مكتبتنا العربية

مكتبتنا العربية

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

مدير المجلة ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات
العنوان : إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون : ٤٦٢١٢

بدل الاشتراك
٥٠ فى مصر والسودان
٦٠ فى الأقطار الإسلامية
٥ ثمن الجزء

الجزء الأول - القاهرة فى غرة المحرم سنة ١٣٧٢ — ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٢ — المجلد الرابع والعشرون

فهرس

صفحة		
٢	كان ظهور الاسلام فتحا لعالم جديد للاستاذ أحمد حسن الزيات	
٥	سر الفوز العظيم فى الفتوح الاسلامية للدكتور عبد الوهاب عزام	
٩	من مواقف البطولة الاسلامية فى القتال للاستاذ عبد الحميد العبادى	
١٥	رأى الاسلام فى القتال لفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز	
٢١	طبيعة الفتح الاسلامى للاستاذ سيد قطب	
٢٦	العقيدة الاسلامية وأثرها فى سمو الانسان لفضيلة الاستاذ محمد محمد المدنى	
٣٠	الأسس التى قام عليها التشريع الاسلامى لفضيلة الاستاذ على الخفيف	
٣٧	مناهج الفقهاء الأئمة فى التشريع للاستاذ الدكتور أحمد أمين	
٤٠	اليوم أكملت لكم دينكم لفضيلة الاستاذ محمود شلتوت	
٤٦	جهود الفقهاء فى التشريع لفضيلة الاستاذ عبد الوهاب خلاف	
٥٠	مقارنة بين شريعة الله وشرائع الانسان للاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى	
٥٥	القرآن واللغة للاستاذ عباس محمود العقاد	
٥٨	جهود المسلمين فى النحو والبلاغة لفضيلة الاستاذ محمد عرفة	
٦٢	فضل العرب على فلسفة اليونان للدكتور أحمد فؤاد الاهوانى	
٦٨	تدعيم الاسلام للاسرة للدكتور على عبد الواحد وافى	
٧٣	جهود العلماء المسلمين فى ميدان العلوم للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن	
٨١	خصائص العمارة الاسلامية للاستاذ حسن عبد الوهاب	
٨٨	جهود المسلمين فى الموسيقى للدكتور محمود أحمد الحفنى	
٩٥	أثر الاسلام فى الفنون الزخرفية للدكتور أحمد موسى	
١٠٢	مجلة الأزهر للاستاذ عبد الله أمين	
١٠٦	الفتح المبين لفضيلة الاستاذ محمود شلتوت	
١٠٩	ما يقال عن الاسلام للاستاذ محمود الخفيف	
١١٤	الكتب : مخطوط فريد للاستاذ عبد الفتاح السرنجاوى	
١١٨	كتب أفرنجية تعالج موضوعات إسلامية وشرقية للدكتور عمر حليق	
١٢٤	الأدب والعلوم فى شهر للدكتور عمر حليق	
١٣٢	العالم الاسلامى فى شهر للاستاذ محمود الخفيف	
١٣٤	طرائف علمية وأدبية	

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

كان ظهور الإسلام فتحا لعالم جديد

نستطيع من غير أن نغضب المؤرخين أن نجعل ظهور الإسلام هو الفاروق بين عالم قديم كان يقاسى لهاث الموت ، وعالم جديد كان يستهل استهلال الحياة ؛ وأن نطلق الوصف بالجاهلية على العالم القديم كله شرقيه وغربيه ، والوصف بالإسلامية على العالم الجديد كله مسيحيته ومحمديّة .

ومما يعزز هذا التقسيم أن الله جل جلاله قد أرسل رسوله محمداً بالهدى إلى الناس كافة ، وكانت سنته من قبل أن يرسل من اصطفاه إلى البلد الذى فسد ، والشعب الذى شرد . فلما عمت الجهالة ، وشاعت الضلالة ، وأوفت الإنسانية ، اقتضت حكمة الخالق أن تكون الرسالة عامة والدعوة شاملة . ومن طبيعة الشريعة العامة أن تكون كاملة لا يناالها النقص ، متجددة لا يعتريها البلى ، صالحة لكل نفس ولكل أفق ، حتى يكون فيها لكل داء علاج ، ولكل قوم منهاج . ولكل مشكلة حل . وتلك هى الخصائص المميزة للشريعة التى انقطع بعدها الوحى ، ولصاحبها الذى اختتمت به الرسل .

* * *

كانت الجاهلية العالمية ، التى سبقت الإسلامية العالمية ليلا موصول الظلام بالأزل ، مبسوط الهول على الأرض . ومن حقبة إلى حقبة كانت تضىء سماءه الداجية ومضات من عقل الإنسان فى طيبة وأثينا ، وأشعة من وحى الله فى سيناء وأورشليم . حتى إذا خبا نور العقل بحيوانية الرومان ، وخفت صوت الوحى بمادية اليهود ، أطبق الظلام فى كل سماء ، وغشى الضلال على كل أرض ، وسرت قافلة الحياة غويّة تخبط فى مجاهل البيد ، يسوقها من الشرق الفرس ، ويقودها إلى الغرب الروم . ولم تكن الروم فى القرنين السادس والسابع الميلاد إلا دولة منحلة ألح عليها سرف الغنى وترف العيش وفساد العقيدة وتباين المذاهب ، حتى انتهى أمر دينها فى بيزنطة إلى خلاف مستحكم فى طبيعة المسيح ، وجدل متحكم فى صفات هذه الطبيعة . وآل أمر دنياها فى رومة إلى استغراق فى شهوات الحس ونزوات النفس كفكفت من سلطان العقل ، وطأطأت من إشراف الروح . وكان من هذا الدين المسيخ ومن هذه الدنيا الداعرة أن قام فى شطرى الأمبراطورية الغاربة نظام من الحكم السفيه الفاجر أرهق الأمة بالضرائب ، وأفسد الحكومة بالرشا ، ولوّث

مكتبتنا العربية

المجتمع بالرذائل ، وأشعر الناس مذلة الرق ، فعظموا القادة . وقدسوا السادة ، وألهـــوا القياصرة ، حتى اتخذ السيد والمسود ، والعابد والمعبود ، إلى هوة لا قرار لها إلا العدم .

كذلك لم تكن الفرس فى ذلك العصر نفسه إلا حطام دولة وغثاء جيل . منيت بما منيت به الروم من تحلل العُقد ، وتعفن الأخلاق ، وسطوة الشهوات ، وتفاوت الطبقات ، وطغيان الملوك ، وبطلان الدين . وأربت عليها بنشوء المذاهب المعوجة فيها ، وغلبة الميول الشاذة عليها ، فمن (رمزية) زرادشت ، الذى مهد للمجوسية الحمقاء ، إلى (عدمية) مانى ، الذى حرم الزواج استعجالا للفناء ، إلى (وجودية) مزدك الذى جعل الناس شركة فى الأموال والنساء ، إلى حال من الاجتماع العفن والنظام البالى لا يعيش فيهما حر ، ولا يدوم عليهما مُلك .

وكان الناس من وراء هاتين الدولتين يعيشون على حال أسوأ من هذه الحال ، وفى درك أسفل من هذا الدرك ؛ فالعرب واليهود قد وصفهم الكتاب العزيز بما لا بيان بعده . والهنود وأهل الصين كانوا من البوذية والبرهمية فى وثنية إباحية لا حصر لأصنامها ، ولا حـــد لأوهامها ، ولا علاج لما ابتلاهم به من أدواء خلقية واجتماعية بعضها يبيد عالماً بأسره . أما الشعوب الأوربية فى الشمال والغرب فكانت لا تزال خارج الوجود المتمدن لا تشعر بأحد ، ولا يشعر بها أحد .

* * *

على هذه الحال الأليمة والقيادة المضلة كانت قافلة الحياة تسرى . ! ظلام مخيم على الكون كله ! فيه التهاويل التى تفزع كل نفس ، والعراقيل التى تصدم كل قدم ، والشياطين التى توسوس هنا بالفتنة ، وتغرى هناك بالإثم ، وتعيث هنالك فى الدين ، وتستعين دائما بحواء على إغواء آدم ! . وما كان الله ـ جل شأنه ـ ليكل ركب الخليقة إلى نفسه ، فيحْمَه فى هذا التيه وقد قضى عليه أن يقطع مراحل الدنيا ويبلغ غاية الأجل . لذلك أذن ـ وهو الرءوف الرحيم ـ لهذا الليل أن يصبح ، وشاء ـ وهو الخبير العليم ـ أن يكون إسفار صبحه من غار حراء !

هنالك تجلى الله لجبل النور فأشرق الحجاز كله . ونزل الرسول المصطفى من الغار ونور الله يسعى بين يديه ، وصوت الروح الأمين يتردد فى أذنيه ، فدعا إلى الإسلام البداة الرعاة الذين اختارهم الله لهداية خلقه ورعاية حقه ، ثم خرج بهم إلى القافلة البشرية وقد شردها الضلال ، وأضناها الكلال ، وأعوزها الهادى الذى يدل ، والحادى الذى يرفه . فرد الشارد ، وألف النافر ، وجمع الشتيت ، وطمأن السادرين اليائسين الهلكى بقول ربه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » فمنهم من آمن ومنهم من كفر . وحينئذ بدأ المجاهدون فى سبيل الله معارك التطهير والتحرير ، فطهروا النفوس من الرجس ،

مكتبتنا العربية

وحرروا العقول من الشرك ، وثلّوا عرش قيصر ، وقوّضوا إيوان كسرى ، وشادوا على أنقاضهما مأذنة بلال ومنبر محمد . ثم طبقوا فى البلاد المطهرة المحررة شريعة الله التى تكرم الإنسان وتعلن حقوقه ، وتمحو فروقه ، وترفع شأنه . ثم حملوا فى الشرق والغرب شعلة المعرفة بما تجمع لهم من وراثة ما مضى من الديانات والثقافات والحضارات، وأقبسوها أقواما لم يروا قبلها النور فى ذهن ولا ضمير .

ورثوا ديانات إبراهيم وموسى وعيسى ، وثقافات اليونان والعبران والهنود ، وحضارات المصريين والرومانيين والفرس ، ثم أخضعوا هذا الإرث الضخم لعبقرية الإسلام ومزية الجنس ، فانتقى منه الخبيث ، وارتفع الخطأ ، وانجلى الغموض ، وكمل النقص ، وأصبح صالحا لتغذية العقول ، وتقوية القلوب ، وتنمية المدارك ، وتكوين مجتمع صحيح قوى حر ، لا يوجهه إلا الحق ، ولا يحكمه إلا الله .

ثم كان من فضل الله على الناس أن أظهر نوره فى مكان وسط بين قرنى الشمس ، ليعشو على ضوئه الضالون فى الشرق والغرب من المحيط إلى المحيط.

* * *

على أن نور الله لم يلبث أن غمر الشرق حتى بلاد الصين ، وطبق الغرب حتى بلاد الغال . ومن حرمه الله نعمة الانتفاع بهدايته وقيادته ، لم يحرمه فضل الاستمتاع بثقافته وحضارته . فالمسيحيون الأوربيون قد أخذوا ثقافة العرب عن طريق المغرب والأندلس فى فتوح الهلال ، وقبسوا حضارة المسلمين عن طريق مصر وفلسطين فى غزوات الصليب . ثم كان من أثر الفتح الإسلامى للقسطنطينية أن انتشر الدين المحمدى فى شرق أوربا ، وتفرق العلم المسيحى فى وسط الفارة ، فكانت حركة (الإحياء) .

وما الإحياء إلا اختلاط الثقافة اللاتينية التى أطلقها محمد الفاتح من الأديرة والكنائس ، بالثقافة اليونانية التى بعثها محمد المأمون فى المساجد والمدارس ، ومن هاتين الثقافتين وما خالطهما من علوم الإسلام وفنون المسلمين كانت هذه الثقافة الحديثة والحضارة القائمة .

* * *

لم تكن الفتوح الإسلامية اذن فتوح استعمار وجباية ، وإنما كانت فتوح تحرير وهداية .

كانت فتوحا فى الأرض للحرية والعمران ، وفتوحا فى العقيدة للتوحيد والإيمان ، وفتوحا فى الشريعة للحق والعقل ، وفتوحا فى السياسة للإحسان والعدل ، وفتوحا فى اللغة للأدب والبلاغة ، وفتوحا فى العلم للإحياء والتجديد ، وفتوحا فى الفن للابتكار والطرافة .

وفى المقالات التى ستقرأها فى هذا العدد تفصيل لهذا الإجمال وتدليل على هذه الدعوى .

والله اللطيف بعباده هو المسئول أن يظهر دين الحق على الدين كله ؛ فإن الإسلامية هى الإنسانية ؛ وإن القرآن هو الفرقان ؛ وإن الإسلام هو السلام ؟

أحمد حسن الزيات

مكتبتنا العربية

فتوح المجاهدين فى سبيل الله

سر الفوز العظيم فى الفتوح الإسلامية

الدكتور عبد الوهاب عزام
سفير مصر فى باكستان

١

يوم السابع عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة. اجتمع المسلمون، يقودهم إمامهم ومعلمهم وقائدهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمشركون من قريش وألفافهم.

اجتمعوا فى سهل غير فسيح، يعلو على وادى الصفراء المقبل من الشمال من جهة المدينة، ويتصل به الخيف الأخضر الذى تتطلع منه ذرا النخيل إلى هذا السهل، وتحد الطرف فيه أنى توجه الجبال، إلا حيث يقبل وادى الصفراء. وإلا حيث يشرف كثيب عظيم من الرمل تجوزه السابلة إلى الغرب شطر البحر.

ذلكم بدر، هناك اجتمعت فئة من المسلمين هى شعاع من الغيب يبشر بالصبح الصادق تتلوه شمس الضحى، واجتمعت فئة من المشركين هى طليعة سواد الكفر فى أرجاء الأرض تريد أن تطبق ظلماتها على هذا الشعاع.

اجتمع المسلمون يحملون فى قلوبهم وعلى ألسنتهم وبأيديهم، توحيدا وطهارة وشريعة ونظاما وطاعة. وقابلهم المشركون فى موكب من الوثنية والرذائل، والعنجهية والفوضى.

جاء المسلمون وليس لهم مدد إلا إيمانهم وشريعتهم. وجاء المشركون كأمواج الظلام، تمدهم كل ظلمة على الأرض ويصلهم كل باطل فيها.

كان العرب المشركون الذين لم يشهدوا الوقعة أنصار من شهدها من المشركين؛ ولو استنجدهم هؤلاء لأنجدوهم، ولو شهدوا لنصروهم. ووراء مشركى العرب كلُّ دين للشرك، وكل شريعة للباطل، وكل مشوه مبدل من الأديان والشرائع. فلا حرج على متخيل أن يرى أمم العالم كافة مددا وراء مشركى قريش يوم بدر، وأن يبصر رايات الشرك والظلم والباطل فى كل أرجاء الأرض محشورة بجانب راية قريش يوم بدر.

علم هذا رسول الله حين قال وهو قائم على هذه الصخور التى تشرف على موضع المعركة والتى تطل اليوم على الحفرة التى ثوى فيها الشهداء - قال يخاطب ربه الذى أرسله بالهدى ودين الحق: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض بعد اليوم». وصدق رسول الله.

٢

وبعد عام سار سواد الكفر إلى المدينة يغزو هذه العصابة فى دارها، يريد أن يطفىء الشعاع فى مصباحه، يريد أن يسد النهر حيث ينبع. وكانت وقعة أُحد. وكاد السحاب

مكتبتنا العربية

المتكاثف المظلم يطبق على نجم الصبح المتلألىء . ثم انقشع الغمام وبقى الكوكب فى لألائه .

وبعد عامين آخرين جاء سواد الشرك والباطل فى جحافل كثيفة لتأخذ المدينة من أقطارها ، واجتمعت سيول القبائل فى مجتمع الأسيال إلى الشمال والغرب من المدينة ، وسالت على مواطن أخرى . وخندق المسلمون على أنفسهم إذ لم تكن لهم طاقة بهذا السيل .

« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » .

والرسول يضرب بمعوله على صخور اعترضت الحافرين فيقدح نارا تضىء قصور الأكاسرة والقياصرة . وصدق رسول الله ، إن الضربات التى زلزلت العروش من بعد هى نسيبة ضربات المعول فى يد إمام المسلمين يوم حفر الخندق .

٣

وفتح المسلمون مكة ، ودخلها إمامهم ساجدا على رحله . فما كان انتصارهم إلا انتصار الحق العزيز ، والعدل المسلط والرحمة القادرة والأخوة الجامعة ، والعفو الشامل ؛ انتصار الإيمان بالحق والخير على العبودية للباطل والشر .

وبُعث المسلمون فى حنين فهزموا . فلو كان الأمر حربا وكيدا وخدعة ومباغتة ، وجندا وسلاحا ، لهزم العرب المشركون العرب المسلمين هزيمة ماحقة ، ولكن الجمع تفرق ، والجند فزع فانذعر ، وثبت الإيمان الذى اجتمع عليه الحشد ، والحق الذى أطاف به الجند ، ثبت محمد وإيمانه ودينه فانحاز إليه الفارُّون ، وأوى إليه المتفرقون . ثبت القطب حين البأس ولم يزل ، فدارت الرحى على هوازن . فانقلب انتصارهم هزيمة ، يقول القرآن للمسلمين « وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » .

٤

وهكذا تتابعت الحادثات حتى سير رسول الله جيشاً إلى أرض الروم ، فكانت بين شرذمة من العرب وجيش الروم وألفافهم من العرب موقعة مؤتة . ومتى كانت مؤتة ؟ كانت والروم فى أوج الانتصار والفخار ، كانت حين أتم هرقل هزيمة الفرس واسترد آسيا الصغرى والشام وتبع كسرى أبرويز إلى دار ملكه وقضى على كسرى وجيشه ورد الصليب الكبير إلى بيت المقدس ولكن الجند الذين شهدوا مؤتة كانوا يحملون من الحقائق ما هو أعظم من الروم والفرس وكل دولة فى العالم . فمن ارتاب فى هذا فليعلم أن مؤتة التى هزم فيها المسلمون وتهافت قوادهم فيها ، ولدت بعد سبعة أعوام وقعة اليرموك . ولم يكن المسلمون فى اليرموك منتصرين يتقدم بهم خالد إلى فتح بعد فتح ، أعظم من المسلمين القليلين فى مؤتة يتقهقر بهم خالد لينجو بهم من بأس الروم . فالحقائق التى حارب بها المسلمون فى مؤتة هى الحقائق التى حارب لها المسلمون فى اليرموك . دعوا الكثرة والقلة ، والانتصار والانهزام يا من ترون ظواهر الأمور ولا تبصرون بواطنها .

٥

ومن أطراف الجزيرة العربية إلى خليج

مكتبتنا العربية

القسطنطينية شطر الشمال وإلى حدود الصين وما وراء نهر السند شطر الشرق ، وإلى بحر الظلمات حيث دفع عقبة فرسه فى البحر صائحا :

« لو علمت وراءك أرضا لسرت غازيا فى سبيل الله » ثم إلى نهر اللوار فى فرنسا وإلى أرجاء أخرى ، سار المسلمون قائلين وصالحين ، يفرقون الجيوش المجتمعة بالقهر على الباطل ، ليجمعوها بالعدل على الحق . ويلقون الأقوام والألوان ، فى أخوة الإسلام .

كانت موقعة بلاط الشهداء سنة أربع عشرة ومائة موقعة امتحن فيها المسلمون وقتل كثير منهم وانتصر شارل مرتل على عبد الرحمن الغافقى .

وروى الراوون أن الناس لبثوا حقبة يسمعون الأذان، أذان الشهداء فى بلاط الشهداء . لم يسمعوا فى الآفاق أو فى أنفسهم طبل الحرب ولا صاصلة السيوف ، ولا صياح المحاربين ، ولكنهم سمعوا الأذان شعار التوحيد والإيمان والصلاة والفلاح ذلكم كان مقصد هذه الوقائع وشعارها وسرها وعلانيتها .

أكتب هذه الكلمة فى « كراجى » من أرض السند ، لست بعيداً من أطلال مدينة « الديبل » ، مدينة الصنم الكبير الذى حطمه المسلمون فى السند ، كما حطموا « هبل » فى مكة وحطموا كل صنم من الحجر أو البشر بين مكة والديبل وفى أرجاء من الأرض كثيرة .

يقول المسلمون هنا كلما رأوا نخلا ـ والنخل كثير فى أمكنة شتى من هذه البلاد ـ هذه آثار العرب ، كانوا حيثما ساروا أو خيموا نبت النخل . قلت : ونبت الإيمان والحق والخير ومعان أخرى كثيرة .

٦

انظروا إلى العرب المسلمين يسيرون من بلادهم فى البر والبحر إلى المشارق والمغارب ، على بعد الشقة ، وضآلة العدد ، وعظم المطلب . يسيرون إلى المشارق والمغارب دعاة توحيد وأخوة ، ورسل شريعة عادلة وخلق كريم ، الله ربهم . والناس إخوانهم ، والأرض كلها ديارهم ، غلبوا ولم يذلوا ، وفتحوا ولم يخربوا ، وتسلطوا فساسوا بالعدل ، وواسوا بالحق ، وخلطوا الأمم بعضها ببعض فى أخوة الإسلام التى لا تميز بين الأقوام والألوان والأوطان . وذاع فى الأرض عدلهم ، وشاعت بين الناس سيرتهم ، فسالم من سالم وحارب من حارب ، قوماً أصحاب شريعة من العدل والرحمة ، دعوتهم الأخوة وسيرتهم مكارم الأخلاق ، قوما بيوتهم مساجد ورحالهم معابد ، يحاربون على شريعة ، ويسالمون على شريعة .

٧

ما الذى يسر للمسلمين الفتح ، ونشر سلطانهم فى المشرق والمغرب فى سنين قليلة ؟

الإيمان الذى ملأ قلوبهم فى مبدأ سيرهم ونهايته وصحبهم من بدر إلى بلاط الشهداء وحالفهم مشرقين ومغربين وهازمين ومهزومين ، والثقة بوعد الله فى فتح الأرض ، والسيطرة عليها بالحق والعدل .

يسر لهم الإيمان واليقين كل عسير ، وذلل لهم كل صعب ، وأصغر كل كبير ، وجمع كلمتهم وقلوبهم على الجهاد فى سبيل الله والصبر على

مكتبتنا العربية

ما يلقون ، ولقاء الموت راضين مستبشرين .

وكذلك يسر لهم الفتح أنهم ساروا إلى الأمم على شريعة جامعة ، وقانون محكم ، لا يعتدون ولا يبغون ، ولا ينقضون العهد ، ولا يخفرون الذمة ، تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم .

وأنهم جماعة نظام ، وجند طاعة فى السراء والضراء والشدة والرخاء ، والحرب والسلم .

وأنهم لم يسيروا فى الأرض ابتغاء المال والملك والسلطان والجبروت ، ولكن دعاة دين وشرع قويم ، وخلق كريم ، ورسل عدل ورحمة وأخوة ومواساة . شعارهم الآية :

« وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدن »

عباد زهاد ، شعارهم الأذان ، وحداؤهم القرآن وما رأى الناس جيوشاً من العباد قبلهم سارت للدعوة إلى الحق ، وتمكين عدل الله فى الأرض .

بهذا طار ذكرهم ، وانتشر صيتهم . لقد أخرجوا عبادة الله من الصوامع إلى أرض الله الواسعة .

وأنهم سيطروا فأزالوا سلطان الجبارين عن الضعفاء والمساكين ، وأمنوا الناس على ما تعمله أيديهم ، وما يناله جدهم وسعيهم ، فاستبشر الزارع والصانع وأمن التاجر ، وشمل الناس الأمن مقيمين وظاعنين ، وبادين وحاضرين ، وعم الرخاء واستبحر العمران .

وكثير من الأمم انتظروا العرب ليفتحوا بلادهم ، وينقذوهم من الجبارين المسلطين عليهم ويشملوهم بما شاع عنهم من العدل والرحمة والأخوة والمساواة .

ساروا على الأرض قوانين من قوانين الله ، وسننا من سننه لا تعطل ولا يصدها عن غايتها شيء .

٨

وقال قائلون فضلوا وأضلوا - وكم منيت هذه الأمة بالمفترين ، يغضون من أقدارها ، ويهونون من مآثرها - قالوا : طلب القوت والطمع فى الغنائم نشر هؤلاء العرب فى أرجاء الأرض . قاس هؤلاء الدعوة الإسلامية على الاستغلال الذى يسمى الاستعمار فى حضارة هذا العصر . وكل شيء عندهم قهر وتسلط ، واستغلال ونهب ، وشره وحرص ، وتفريق بين الناس وعبادة المال من دون الله .

فقل لهؤلاء : إن الإنسان ربما يحارب على الخبز ولكنه لا يطلب الشهادة فى سبيله ، إن الإنسان يريد أن يظفر بالطعام ليعيش به ، لا أن يموت فى طلبه . فما بال هؤلاء العرب المسلمين طلبوا الموت حيثما ذهبوا ، وحقروا العيش أينما توجهوا .

ما بالهم وقد فتحت لهم مصر ورأوا الخصب فى أرضها ، ورغد العيش على حفاف نيلها ، جاوزوها إلى صحارى النوبة وسهوب أفريقية ؟

ما بالهم وقد فتحت لهم الأندلس ورأوا النعيم المقيم ، جاوزوا جبال البرانس ليستشهدوا فى بلاط الشهداء ؟

ما بالهم وقد دانت لهم فارس ، جابوا صحارى مكران إلى السند ، وعبروا نهر جيحون إلى ما وراء النهر ؟ ما بالهم يتركون النعيم والخير العميم ؟

مكتبتنا العربية

٩

من مواقف البطولة الإسلامية فى القتال

للأستاذ عبد الحميد العبادى
أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة فاس

إن من يطلع على تاريخ الحروب التى وقعت بين الفرس والروم فى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل السابع ، يرى إلى أى حد كانت هذه الحروب راجعة إلى الشهوات والأهواء الشخصية ، شهوات الأكاسرة تارة والقياصرة أخرى ، وإلى أى حد كان يحدوها حب المغنم والسلب والنهب ، وإلى أى حد كان يذكى أوارها حب التشفى والانتقام ، وإلى أى حد كان يصاحبها التخريب والتدمير ، ونقض العهود والمواثيق . الشهوة ، والغنيمة ، والانتقام ، والتخريب والغدر ، تلك كانت الصفات الغالبة على تلك الحروب التى كادت تترك المشرق والمغرب خرابا يبابا .

والعجب العاجب أن هذه التقاليد المشئومة استمرت فى الغرب الذى يدين بالمسيحية السمحة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث ، ولعله لم يخل منها حتى يومنا هذا . ولنمثل لذلك بالحروب الصليبية التى ارتكب فيها الصليبيون فى مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة من أفاعيل تقشعر لهولها الأبدان ، وبما صنعه الملكان الكاثوليكيان الأسبانيان فردنند وإيزابلا ، بمسلمى غرناطة غداة استيلائهم على مدنهم صلحا ، من نقض للعهود المؤكدة ، والمواثيق المغلظة . وبالحروب المعروفة فى التاريخ الأوربى الحديث فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب

والعز المقيم فى الأرض التى سيطروا عليها ليجوزوا فيافى قاحلة ، ويحاربوا أقواما غلاظاً شداداً ، فى بلاد تنتظرهم فيها قبورهم ، إن الأمر لأعظم مما توهموا ، وأسمى مما قالوا .

٩

وبعد : فالحرب هى الحرب فى كل أرض وكل عصر . فيها قتل وفيها أسر وفيها غلب وسلب . وليس عجيباً أن يفرح المجاهد الذى شرى نفسه فى سبيل الله ، بغنيمة ينالها ، وليس بعيداً أن يكون فى سواد الجند من تكون الغنيمة همه ، ولكن جيوش المسلمين سارت داعية الى الإسلام مجاهدة فى الله ، ترجو الشهادة قبل الغنيمة ، وتنهباً للموت قبل الطعام .

إن النهر العظيم الذى ينحدر من منبعه إلى منتهاه يسير بالحياة والخصب ولكنه يجرف أرضا ويحمل غثاء ويغرق ناساً ، ولكن الله أجراه للحياة والخصب لا ليسير بالكدر والغثاء ، ويهلك الأحياء .

فأعيدوا النظر أيها الضالون ، وأنعموا الفكر لعلكم تهتدون .

هذا سطر من كتاب ، وموجة من عباب ، والكتاب هو تاريخ الفتح الإسلامى على سعته وطوله ، والعباب هو مجد العرب المسلمين ، لا يزال يعى الزمان صداه ، ويحلم التاريخ بذكراه . فمن عبقرى عادل يفقه التاريخ ويكتب الكتاب ، ويصور فى السطور أمواج هذا العباب !

عبد الوهاب عزام

مكتبتنا العربية

٩

من مواقف البطولة الإسلامية فى القتال

للأستاذ عبد الحميد العبادى
أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة فاس

إن من يطلع على تاريخ الحروب التى وقعت بين الفرس والروم فى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل السابع ، يرى إلى أى حد كانت هذه الحروب راجعة إلى الشهوات والأهواء الشخصية ، شهوات الأكاسرة تارة والقياصرة أخرى ، وإلى أى حد كان يحدوها حب المغنم والسلب والنهب ، وإلى أى حد كان يذكى أوارها حب التشفى والانتقام ، وإلى أى حد كان يصاحبها التخريب والتدمير ، ونقض العهود والمواثيق . الشهوة ، والغنيمة ، والانتقام ، والتخريب والغدر ، تلك كانت الصفات الغالبة على تلك الحروب التى كادت تترك المشرق والمغرب خرابا يبابا .

والعجب العاجب أن هذه التقاليد المشئومة استمرت فى الغرب الذى يدين بالمسيحية السمحة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث ، ولعله لم يخل منها حتى يومنا هذا . ولنمثل لذلك بالحروب الصليبية التى ارتكب فيها الصليبيون فى مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة من أفاعيل تقشعر لهولها الأبدان ، وبما صنعه الملكان الكاثوليكيان الأسبانيان فردنند وإيزابلا ، بمسلمى غرناطة غداة استيلائهم على مدنهم صلحا ، من نقض للعهود المؤكدة ، والمواثيق المغلظة . وبالحروب المعروفة فى التاريخ الأوربى الحديث فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب

والعز المقيم فى الأرض التى سيطروا عليها ليجوزوا فيافى قاحلة ، ويحاربوا أقواما غلاظاً شداداً ، فى بلاد تنتظرهم فيها قبورهم ، إن الأمر لأعظم مما توهموا ، وأسمى مما قالوا .

٩

وبعد : فالحرب هى الحرب فى كل أرض وكل عصر . فيها قتل وفيها أسر وفيها غلب وسلب . وليس عجيباً أن يفرح المجاهد الذى شرى نفسه فى سبيل الله ، بغنيمة ينالها ، وليس بعيداً أن يكون فى سواد الجند من تكون الغنيمة همه ، ولكن جيوش المسلمين سارت داعية الى الإسلام مجاهدة فى الله ، ترجو الشهادة قبل الغنيمة ، وتنهباً للموت قبل الطعام .

إن النهر العظيم الذى ينحدر من منبعه إلى منتهاه يسير بالحياة والخصب ولكنه يجرف أرضا ويحمل غثاء ويغرق ناساً ، ولكن الله أجراه للحياة والخصب لا ليسير بالكدر والغثاء ، ويهلك الأحياء .

فأعيدوا النظر أيها الضالون ، وأنعموا الفكر لعلكم تهتدون .

هذا سطر من كتاب ، وموجة من عباب ، والكتاب هو تاريخ الفتح الإسلامى على سعته وطوله ، والعباب هو مجد العرب المسلمين ، لا يزال يعى الزمان صداه ، ويحلم التاريخ بذكراه . فمن عبقرى عادل يفقه التاريخ ويكتب الكتاب ، ويصور فى السطور أمواج هذا العباب !

عبد الوهاب عزام

مكتبتنا العربية

الدينية ، وأخيراً بما ارتكب فى الحرب العالمية الأخيرة من تدمير كان ختامه إلقاء القنابل الذرية على المدن اليابانية ، مما أودى بالآلاف المؤلفة من اليابانيين ، غدراً وبغياً وعدوانا .

ولنضرب صفحا عن وصف الحرب فى العصور الوسطى عند القبائل الجرمانية التى قضت على الدولة الرومانية ، وغمرت أوربا فى ظلام دامس طوال ألف سنة تقريبا ، وعند التتر الذين قضوا على الدولة العباسية ودكوا صرح الحضارة الإسلامية فى المشرق ، فقد يعتذر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم همج وبرابرة ليست لهم حضارة الفرس ولا نصرانية الروم ولا مدنية أوربا وأمريكا فى القرن العشرين .

ولكن كم لحوادث التاريخ وتصاريفها من أسرار جهد العلماء ولا يزالون يجهدون فى الوقوف عليها ! وكم لله من لطف خفى حارت فى كنهه الأفهام ! ففى وسط هذه الغياهب المدلهمة والظلمات الحالكة ، تبزغ شمس الدعوة الإسلامية فإذا الحرب المشروعة هى المنزهة عن شهوة السلطان ، وحب المغنم ، والسمعة ، والمرأة من عوامل الغدر والخيانة والعدوان ، وإذا بها نظام من نظم العمران ، به يكف الظلم ويقمع الطغيان ، ويستأصل الفساد . وقد عبر شوقى عن كل ذلك فى قوله مخاطبا الرسول العربى :

والحرب فى حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواء

وإذا بهذه الحرب المشروعة تسمى « جهادا فى سبيل الله » أى كفاحا لإعلاء كلمته بما تشتمل عليه هذه العبارة من معانى العدالة والإصلاح فى الأرض وتحقيق المثل العليا . وإذا الجهاد أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله بعد الإيمان به تعالى وبعد بر الوالدين ، وإذا المجاهد له إحدى الحسنيين إما الظفر وإما الشهادة ، « وإذا الذين يقتلون فى سبيل الله غير أموات بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

كانت هذه المبادىء جزءا جوهريا من تعاليم الدعوة الإسلامية ، اعتنقها المسلمون الأولون وعملوا بها فى حروبهم ، فلا غرو أن حفلت هذه الحروب بذكر الأبطال ومواقف البطولة الصحيحة فى القتال . ونحن نورد ، فيما يلى ، على سبيل المثال لا الحصر ، بعضا من صور هذه البطولة ، سواء أكانت بطولة آحاد أم بطولة جيوش وجماعات .

١ — أبطال :

يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر فحرض الناس على القتال ، وقال « والذى نفسى بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » فقال عمير بن حمام من بنى سلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن « بخ ! بخ ! ما بقى بينى وبين الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء القوم ! » ثم قذف بالتمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

ويروى أنه عليه السلام يوم أحد أخذ سيفا فهزه وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه عمر بن الخطاب فقال : أنا آخذه بحقه » فأعرض عنه . ثم هزه الثانية وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه الزبير بن العوام وقال : أنا آخذه بحقه » فأعرض عنه . فوجدا فى أنفسهما . ثم عرضه الثالثة وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه أبو دجانة ، فقال وما حقه يا رسول الله ؟ : قال « أن تضرب فى العدو حتى ينثنى ! فأخذه منه ،

مكتبتنا العربية

وأعلم نفسه بعصابة حمراء ومشى إلى الحرب ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال الرسول « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن ! ودخل أبو دجانة فى الحرب مبتدئا بالقتال ، فأبلى وأنكى .

ومما استدل به الفقهاء على جواز المبارزة مع التغرير بالنفس ما حدث فى حرب الخندق إذ دعا عمرو بن عبدود فارس قريش وفلها الخندق ، إلى البراز أول يوم ، فلم يجبه أحد ثم دعا إلى البراز فى اليوم الثانى ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز فى اليوم الثالث ، وجعل يعير المسلمين إحجامهم عن مبارزته . فقام على بن أبى طالب فاستأذن رسول الله فى المبارزة ، فأذن له على ضنه به ، وقال « اخرج يا على فى حفظ الله وعياذه ! . فخرج فتجاولا وثارت عجاجة أخفتهما عن الأبصار ، ثم انجلت عنهما وعلى يمسح سيفه بثوب عمرو وهو قتيل .

٢ — العفو عند المقدرة :

لما انقضت قريش هدنة الحديبية التى كانت بينها وبين الرسول ، عزم الرسول على غزوها وفتح مكة وذلك فى رمضان سنة ٨ فخرج من المدينة فى عشرة آلاف وبغت قريشا على غير استعداد ، فلم يسع ساداتها وكبراءها إلا أن يبادروا إلى أخذ الأمان لأنفسهم ولبلدهم ، وقد أعطاهم الرسول هذا الأمان بعد أن أسلموا ونهى الجيش عن أن يقاتل إلا من قاتله ، وقال فى تأمين أهل مكة : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » ودخل الرسول وجيشه مكة من أقطارها فلم يقع قتال يذكر ، واجتمعت قريش إليه عند الكعبة معلنة إسلامها ومبايعتها ، فخطبهم فقال « يا معشر قريش ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا « خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ! » ، فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء ! هكذا عامل الرسول هذه القبيلة التى كذبته ، وآذته ، وأخرجته وأصحابه ، وحاربته أكثر من عشرين سنة ! فضرب بذلك أروع مثل للحلم والعفو عند المقدرة .

٣ — طلب الشهادة فلم يعطها :

كان زيد أخو عمر بن الخطاب ممن قتل فى وقعة اليمامة ، إحدى وقائع حرب الردة وذلك سنة ١١ فلما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله ، وكان معهم « ألا هلكت قبل زيد ؟ هلك زيد وأنت حى ! الا داريت وجهك عنى ؟ فقال عبد الله « سأل زيد الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطها ! »

٤ — لا نامت أعين الجبناء :

لا شك أن خالد بن الوليد أعظم قائد فى الإسلام ومن أعظم قواد العالم على الإطلاق . ولقد سماه الرسول سيفا من سيوف الله ، وكفى بذلك شرفا له وتنويها بقدره . ظهرت عبقريته فى وقائع مؤتة والردة وفتوح العراق والشام . ولكن بطولته تظهر فوق ذلك فى تواضعه ، فعندما عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن التقدم على جيوش الشام لمصلحة ارتآها ، نزل على أمر الخليفة ، وعمل راضيا تحت إمرة أبى عبيدة . وهى تتجلى بوجه أخص فى العبرة التى استخلصها من تجاربه وعبر عنها فى ألفاظ قلائل قالها عند ما حضرته الوفاة ، قال : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية . وها أنذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء » .

مكتبتنا العربية

٥ — قائد محبوب :

كان المثنى بن حارثة الشيبانى يقاتل العجم بالعراق على شاطىء الفرات ، فاشتبك مع الفرس فى وقعة كبيرة تعرف بوقعة البويب وذلك سنة ١٣ هـ . وكان قد انضم إليه قبيل الوقعة جمع من نصارى تغلب حمية لصلة العروبة . وإلى القارىء ما تصف به الرواية هذا القائد وجيشه فى ذلك اليوم : « وأقبل الفرس يقودهم قائدهم مهران فى ثلاثة صفوف ومع كل صف فيل ولهم زجل ، فقال المثنى للمسلمين : « إن الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت ! » وطوّف المثنى فى صفوفه يعهد إليهم ، وهو على فرسه الشموس ، وكان لا يركبه إلا لقتال ، فوقف على الرايات يحرضهم ويهزهم بأحسن ما فيهم ، ولكلهم يقول : « إنى لأرجو ألا يؤتى العرب من قبلكم اليوم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم » فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصفهم من نفسه فى القول والفعل ، وخلط الناس فى المحبوب والمكروه ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا فعلا . وقال : « إنى مكبر ثلاثاً فتهيأوا ، ثم احملوا فى الرابعة ! » فلما كبر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم ، وركدت خيلهم وحربهم مليا ، ورأى المثنى خللا فى صفوف بنى عجل ، فجعل يمد لحيته لما يرى منهم ، وأرسل إليهم يقول : « الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم ! فقالوا : نعم ! واعتدلوا . فضحك فرحاً » .

فلما طال القتال واشتد ، قال المثنى لأنس بن هلال النمرى : « إنك امرؤ عربى ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا حملت على مهران فاحمل معى ! فأجابه ، فحمل المثنى على قلب الجيش الفارسى فأزاله ثم أباده ، وقتل مهران ، قتله غلام من تغلب نصرانى . فلما رأت ذلك مجنبات المسلمين حملوا على مجنبات الفرس ، وجعل المثنى والمسلمون فى القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم : « عاداتكم فى أمثالهم ! انصروا الله ينصركم ! » حتى هزموا الفرس .

ومات أناس من الجرحى ، منهم : مسعود أخو المثنى فصلى عليهم المثنى ، وقال : « والله إنه ليهوّن وجدى عليهم أن شهدوا البويب وأقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا » .

٦ — العفو عند المقدرة أيضاً :

من أفظع حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصليبيين فى البيت المقدس غداة استيلائهم عليه فى سنة ٤٩٢ هـ . أجمعت على ذلك جميع المصادر الإسلامية والصليبية على السواء . فلنورد للقارىء مجملا لما حدث عند ما فتح صلاح الدين الأيوبى تلك المدينة فى سنة ٥٨٣ هـ

فبعد أن دحر صلاح الدين جيش الصليبيين فى وقعة حطين سار إلى عسقلان فافتتحها وأخذ يتأهب للزحف منها إلى بيت المقدس . وكان حريصاً على أن يجنب تلك المدينة ويلات الحرب والحصار ، فاستدعى وفداً من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب إليهم تسليم تلك المدينة التى يقدسها المسلمون كما يقدسها الصليبيون ولكنهم صرحوا له بأنهم لن يسلموها طوعاً أبداً . عند ذلك أقسم لهم أنه لن يفتحها إلا بالسيف .

وتقدم صلاح الدين إلى بيت المقدس وأخذ فى مهاجمتها ، ونقب أسوارها ، وأوشكت جنوده أن تقتحمها . فلما رأى الصليبيون ذلك أنفذوا

مكتبتنا العربية

الأمير بليان لمفاوضة صلاح الدين ـ فطلب هذا الأمير أن يمنح السلطان بيت المقدس عفوه الذى منحه مدنا صليبية أخرى . فلم يجبه السلطان إلى ما طلب مستمسكا بيمينه التى أقسمها . عند ذلك قال له بليان : إن فى المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليه بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويدمروا كل ما يسعهم تدميره ، ثم يقاتلونه حتى يقتلوا عن آخرهم . ولقد راع هذا التهديد صلاح الدين ، فاستشار من معه من الفقهاء فأفتوه بأن ما حدث من قتال حول المدينة كاف فى إبرار قسمه ، وأن فى وسعه أن يعتبر كل من فى المدينة من الصليبيين أسرى حرب ، له أن يضرب عليهم الفداء .

وقد أخذ صلاح الدين بهذا الرأى وتم الاتفاق على أن يكون الفداء عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل ديناراً واحداً ، وأن تكون المدة التى يؤدى فيها الفداء ويتم الجلاء أربعين يوماً . فمن وجد فى المدينة بعدها كان ملكا مسترقا للسلطان .

وفتحت المدينة أبوابها للسلطان وجيشه وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ ، وكانت الليلة ليلة المعراج الشهيرة ، وهى مصادفة عجيبة . وأقام صلاح الدين على الأبواب أمناء يتقاضون مال الفداء .

فخرج الأمير بليان ومعه سبعة آلاف فقير بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار ، ثم تتابع خروج الصليبيين على الرسم المقرر ، ثم يأتى البطرك الكبير بجر من أموال الكنائس وتحفها وجواهرها ما لا يقدر بمال ، فلم يعرض صلاح الدين لشىء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه ، وأبى أن ينقض عهده ولم يأخذ منه غير الدنانير العشرة المقررة . وانقضت الأربعون يوماً ولا يزال فى المدينة آلاف كثيرة من فقراء الصليبيين لا يملكون فداء . يقول المؤرخ الصليبى « أرنول » ولعله كان حاضراً ذلك اليوم المشهود . فتقدم العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين وقال : « سيدى ! لقد أعنتك بحمد الله على فتح هذه البلاد وهذه المدينة وإنى أستوهبك ألفاً من أولئك الأرقاء » ، فأجابه السلطان إلى طلبه وعند ذلك أعتقهم العادل من فوره . ثم جاء بليان والبطرك وطلبا مثل الذى طلب العادل فوهبهم صلاح الدين ألف رقيق أطلقوا فى الحال ، وأخيراً يلتفت صلاح الدين إلى أصحابه ويقول : « لقد أدى أخى صدقته ، وكذلك صنع بليان والبطرك ، وقد بقى أن أؤدى أنا صدقتى » . ثم إنه أمر رجالا من حرسه أن ينطلقوا فينادوا فى جميع شوارع المدينة أن كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حر لوجه الله تعالى . يقول أرنول : « وقد استغرق خروج هؤلاء نهاراً كاملا من لدن شروق الشمس إلى أن خيم الظلام .

ثم يمضى المؤرخ المسيحى المذكور فيقول متحدثا عن أدب صلاح الدين ونبله ورقة قلبه : إن نساء من نساء فرسان الصليبيين كن قد لجأن إلى بيت المقدس بعد أن قتل أو أسر أزواجهن وعائلوهن فى الحرب . فاجتمعن بعد أن أدّين الفداء وحضرن عند صلاح الدين باكيات معولات يشكون إليه سوء حالهن . فما كان منه إلا أن أطلق لكل من لها زوج فى حبسه زوجها ،

مكتبتنا العربية

وأمر بمال من ماله الخاص لكل من لا عائل لها ، مما أهج ألسنتهن بالشكر له والثناء عليه .

ويقول المؤرخ الانجليزى لين بول : « لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس ، لكان ذلك كافيا فى عده أعظم الفاتحين فى عصره فروسية وأكبرهم قلبا ، بل لعله كذلك فى أى عصر من العصور » .

٧ — والإسلاماه !

اجتاح التتر أقاليم الدولة العباسية الشرقية ودمروها تدميراً ، ثم دخل زعيمهم هولاكو بغداد فى سنة ٦٥٦ وقضى على الخلافة العباسية ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على أبواب مصر . ولقد أرسل هولاكو إلى سلطان مصر إذ ذاك وهو الملك المظفر قطز كتابا ملأه تهديداً ووعيدا وطلب إليه فيه المبادرة إلى الخضوع له والاستسلام إليه . فثارت حمية السلطان واستنفر الناس لجهاد التتار فتثاقلوا لما ثبت فى الأذهان إذ ذاك أن التتر لا يغلبون ولكن السلطان أعلن أنه سائر بنفسه للجهاد على أى حال وليصحبه من يشاء . عند ذلك نفر معه الأمراء بأجنادهم . فسار بالجيش الى فلسطين مقدما أمامه الأمير بيبرس . وجرت بينه وبين التتار وقعة عظيمة عند عين جالوت وذلك فى رمضان سنة ٦٥٨ هـ .

يقول المقريزى فى وصف بلاء قطز وبيبرس والجيش المصرى فى ذلك اليوم العصيب : « فلما كان يوم الجمعة خامس عشر من رمضان التقى الجمعان ، وفى قلوب المصريين وهم عظيم من التتر ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادى ، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ، فتحيز التتر إلى الجبل . فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان وانتقض طرف منه ، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض ، وصرخ بأعلى صوته : « وا إسلاماه ! » ، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره . وقتل كتبغا مقدم التتر ، وانهزم باقيهم . . . . . وأبلى الأمير بيبرس أيضاً بلاء حسناً بين يدى السلطان » ، ومر العسكر فى أثر التتر إلى قرب بيسان ، فرجع التتر وصافوا مصافا ثانياً أعظم من الأول ، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم ، وكان قد زلزل المسلمون زلزالا شديداً ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : « وا إسلاماه » ثلاث مرات « يا الله ! انصر عبدك قطز على التتار » ، فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم » .

هذه وقعة عين جالوت التى صد فيها الجيش المصرى سيل الغزو التترى الجارف ، واستنقذ بها الشام من أيدى التتار ، ورد عن مصر والمغرب الإسلامى كيدهم وجبروتهم ، وفوق ذلك فإنه وقى فى ذلك اليوم على غير علم منه أوربا وحضارتها الناشئة دماراً محققاً وذلك باعتراف مؤرخى أوربا أنفسهم .

وبعد فلعل القارىء يكون قد رأى من جميع هذه النصوص المتقدمة أن الإسلام قد شرع للحرب والجهاد منهاجا واضحاً قاصداً وسن آدابا جديدة حميدة ؟

عبد الحميد العبادى

مكتبتنا العربية

رأى الإسلام فى القتال

لصاحب الفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

هذه إحدى « الثلاثيات » القرآنية .

وأعنى بتلك « الثلاثيات » طرازاً خاصاً من الأحكام ، يصدرها القرآن فى ثلاثة ألوان مختلفة من أساليب البيان : أسلوب « الإثبات » المجمل تارة ، و « النفى » المجمل تارة ، و « الإثبات والنفى » جميعاً تارة أخرى ؛ مفصلا فى هذا الوضع الأخير مطالع الحكم ومقاطعه ، ومحدداً فيه منازل التشريع ومنازعه ؛ مبيناً بذلك أنه ، حين يثبت مجملا وحين ينفى مجملا ، إنما يقضى فى شأنين مختلفين ، فيقرر فى كل شأن حكمه العدل ، ويقول فى كل مقام قوله الفصل.

ليس أخطر على الباحث فى الشريعة الإسلامية من الوقوف عند أطرافها المجملة ؛ لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم وتتخاصم .. حتى إذا سعى فى الصلح بينها برأيه لم يأمن على نفسه الهوى والزلل فى تأويلها . وهذا شأن اتباع المتشابه الذى نهى الله عنه .

وإنما يستبين موقف الإسلام واضحاً جلياً فى هذا الضرب من المسائل ، حين يلتمس حلها فى تلك الآيات الجامعات ، التى تلتقى فيها الأطراف على قدر ، والتى يبرز بها التشريع الإسلامى فى وحدة لا تنقسم ، وعروة لا تنفصم . تلك هى الآيات المحكمات ، وهن أم الكتاب .

هذا الطراز من التشريع الثلاثى مفتاحه إذاً فى وسطه لا فى طرفيه ، وروحه فى قلبه لا فى جناحيه . وسنريك الآن : أين الأطراف ، وأين الأوساط فى موضوع حديثنا .

* * *

فانظر ها هنا ، فى أقصى الجانب الأيمن !

أليس يبرز الإسلام أمامك فى شعاب « مكة » ووديانها رافعاً راية السلام بيضاء نقية لا شية فيها ؟ أليس يبدو نبى الإسلام باسطاً جناحى رأفة ورحمة يفىء إلى ظلهما الوارف أنصاره وأعداؤه على السواء ؟ ألست تسمع كتاب الإسلام وهو يحدد مهمة حامله ؟ فإذا هى هداية وإرشاد ، وموعظة وتذكير ، وإنذار وتبشير . ويجمع ذلك كله فى كلمة واحدة : « بلاغ » .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ، « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ، « وما أنت عليهم بجبار » ، « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » ، « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « فان تولوا فانما عليك البلاغ » ، . . .

وزد ما شئت من سماحة وكرم ، لا ترى فيهما شائبة لعنف ولا انتقام ، ولا أثارة من مقاومة أو اصطدام . . . الإسلام إذاً هو رسالة السلام .

مكتبتنا العربية

ولكن هلم إلى أقصى الطرف الآخر !

ألست تسمع من قِبَل « المدينة » صيحات النفير إلى النزال ، وقعقعة السلاح فى ميادين القتال ؟ أو لست ترى هنالك أشلاء تتناثر ، وأطرافا تتطاير ، وأعناقا تدق ، ودماء تسفك ، وأرواحا تزهق ، وأسرى يشد وثاقهم ، وشهداء يهنأون بقبيل تضحياتهم ، ويبشرون بعظيم أجورهم ؟

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » ، يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال » ، « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؛ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون » ، « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » ، « فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » ، « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » ، ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون »

الحرب إذاً شريعة إسلامية ، وفريضة محمدية . بل هى أعظم من ذلك ؛ إنها عنصر أصيل من عناصر الإيمان الصادق : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا » ، « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك هم الصادقون » .

يا لله ! ما أبعد الشقة ، وأشد المفارقة ! . . . أمن السلام الأبيض الناصع ، الرحيم المتواضع ، إلى الثورة الحمراء القانية ، والحرب الفاتكة المهلكة ؟

تلك هى المشكلة التى فتحت باب التعليل والتأويل أمام الذين يأخذون الأمور من أطرافها . وما أكثر الفروض ، وما أبعد تشعب الظنون ، حين يتحرر المرء من قيود العيان والبرهان ! وما أشد إغراء الهوى لمن وقف فى محراب العلم وهو لمّا يفق من نشوة نزعاته وعصبياته ، ولما يتجرد من سلطان عقائده وعوائده ! هنالك يطير خلف كل سانحة وبارحة من الرأى ، فيمسك بأيها كان أحب لقلبه ، أو أكثر تملقا لشعور قومه ، ثم يرسلها فى الناس باسم العلم وفلسفة التاريخ . وما هى من العلم ولا من التاريخ فى شىء .

ذلك مثل فريق من كتاب الغرب حين تفرقت بهم السبل فى معالجتهم لهذه القضية :

أكان محمد متعطشا للدماء بفطرته ، ولم يمنعه من سفكها إذ كان فى « مكة » ، إلا أنه كان من الأعوان فى قلة ، ولم يكن أعوانه فى عامة الأمر يومئذ إلا الضعفاء والمستضعفين ؛ فكان تسامحه حينذاك ضرورة ألجأه اليها العجز وفقد النصير حتى إذا واتته الفرصة فى موطنه الجديد اهتبلها ، وغمس يده فى الدماء إشباعا لغريزة الثأر والتشفى ؟

أم كان فى هذا الموقف الحربى متحركا بحركة قسرية لا يستمليها من مَرارة قلبه ، ولكنه دفع اليها دفعا ، وكان فيها تابعا لا متبوعا ؟ ذلك أنه وجد نفسه فى قوم عاشوا جل دهرهم على الغارات والحروب ؛ فما كان منه إلا أن نزل على إرادتهم وجرى فى تيارهم .

مكتبتنا العربية

وهل أنا إلا من غزية ؟ إن غوت
غويت ؛ وإن ترشد غزية أرشد

لقد قلبوا وجوه الرأى وذهبوا فيها كل مذهب ؛ ولكنهم حيثما ذهبوا لم يجدوا إلا برقا خلبا ، وسرابا خادعا ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . نعم لقد اصطدموا بحقائق التاريخ فى كل مسلك سلكوه ، وضلوا ضلالا بعيداً فى كل مثل ضربوه .

ذلك أن الذين درسوا منهم نفسية محمد فى مختلف أطواره : فى شبابه وكهولته ، فى بأسائه ونعمائه ، حتى فى أوج سلطانه ، شهدوا بأن محمداً لم يكن يوماً ما فظ الطبع ، ولا غليظ القلب ، ولا خشن العشرة ، ولا عاتى الحكم ، ولا حامل ضغن على صديق أو عدو . ولئن كانت فى طباعه نزعة عاتبه الوحى فيها عتاباً بلغ حد اللوم والتثريب ، لقد كانت تلك ، على العكس ، نزعته للصفح عن أعدائه ، ومجازاتهم بالذنب غفرانا ، وبالسوء إحسانا . وإن شواهد سيرته العطرة فى هذا كله لأشهر من أن ينبه عليها ، وأكثر من أن يعد بعضها. ناهيك بمنه بالحياة على قريش وهم فى قبضته ، بعد ما تآمروا على قتله .

وذلك أن الذين درسوا حياة محمد شهدوا فى الوقت نفسه بأنه لم يكن يوماً ما إمعة فى رأيه ، ولا رخواً فى حكمه ؛ وأنه لم يعرف عن أمة فى التاريخ أنها كانت أطوع لملك أو قائد أو زعيم من قوم محمد له : طاعة لا يمليها سوط ولا صولجان ، ولكن يبعثها الحب والمهابة والثقة والإيمان ؛ وأنهم بلغوا فيها إلى حدّ تفديته بأهليهم وآبائهم وأبنائهم وأنفسهم .

وكذلك شهد التاريخ أن خروج محمد من القرية الظالمة إلى دار الأنصار لم يكن سبباً فى تحول سياسته مع قريش من اللطف إلى العنف ، ومن المسالمة إلى المقاومة ، على الرغم من وضوح حقه فى هذا التحول وتمكنه منه ؛ فقد بايعه الأنصار من قبل هجرته اليهم ، وأعطوه المواثيق الغلاظ على مؤازرته ونصرته . فلو أنه فكر فى الثأر لرمى بهم فى وجه عدوّه من أول يوم ، ولكانوا أطوع له من بنانه ؛ ولكنه لبث فيهم زهاء عامين شغل فى أثنائهما شغلا مستغرقا بشعائر دينه ، وشؤون قومه ، وكان كل شىء فى سيرته إذ ذاك يدل على أنه قد تناسى الماضى بحسناته وسيئاته ، وأنه قد اطمأن الاطمئنان كله إلى حياته الجديدة : فها هو ذا قد استبدل داراً بدار ، وأهلا بأهل ؛ بل لقد استبدل شعاراً بشعار ، وقبلة بقبلة : إذ أصبح يولى وجهه فى الصلاة شطر بيت المقدس بعد أن كان يستقبل الكعبة . وجملة القول: إن خوضه غمار الحرب لأول مرة كان حادثاً فجائيا حقا ، لم تمهد له مقدمات من حياته بالمدينة ، كما لم تمهد له مقدمات من ميوله ونزعاته ، ولا من شخصيته ومنزلته فى قومه .

* * *

هكذا فشل كتاب الغرب فى محاولتهم تعليل هذا الموقف الجديد بأسباب وعوامل التمسوها فى المعسكر الإسلامى .

وكان الإنصاف العلمى يقضى عليهم أن يلتمسوها بعد ذلك فى الجانب الآخر ؛ فلم يفعلوا . ولو أنهم

مكتبتنا العربية

طرقوا هذا الباب لوجدوا من ورائه ضالتهم ، ولقبضوا من فورهم على جريمة الحرب فى مهدها ومولدها .

فالواقع أن أول حرب فى الإسلام لم يوقدها المسلمون ، بل كانوا وقودها ، وأن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوا نارها ، وأطاروا شررها . لا أقول إنهم كانوا سببها البعيد فحسب ، بل كانوا هم معلنيها عمليا ، والمتسببين فيها من طريق مباشر : وما كان من المسلمين إلا أنهم قبلوا التحدّى ، وردُّوا التعدّى .

لا تعجل أيها القارىء علىّ ردًّا وإنكاراً ، ولا تنغض رأسك إلىّ دهشاً وعجباً : فإنى أعرف أنك تقرأ فى كتب التاريخ كلها أن أصحاب الرسول هم الذين أخذوا يتعقبون عير قريش وهى آمنة مطمئنة فى قفولها من الشام إلى الحجاز . أفلا يكونون إذاً هم البادئين بالمناوشة . . . ؟ ألا فليعلم القارىء الكريم أن هذا الذى سطرته كتب التاريخ إنما هو الحلقة الثانية من قصة هذه الحرب ، وأن الحلقة الأولى ظلت صفحة منسية منعزلة ، لم تأخذ مكانها فى سلسلة السرد التاريخى لهذه الفترة من الزمان ، وأن مؤرخى العرب ومؤرخى الغرب كانوا سواء فى السكوت عنها : فحق عليك أن ترد هذه اللبنة المفقودة إلى مكانها من البنيان . وإليك جلية الخبر !

لقد بدأت قريش بعد هجرة النبى وأصحابه تغير أسلوب معاملتها للمسلمين المستوطنين فى « مكة » وهم أولئك الذين لم يجدوا سبيلا للحاق بإخوانهم المهاجرين . فبعد أن كانت حوادث عدوانها عليهم قبل الهجرة حوادث فردية ، متفرقة ، وكان يلطف من حدتها فى غالب الأمر مقام الرسول وعظماء أصحابه بين ظهرانيهم ، أخذت حين خلا لها الجو تهاجم جموعهم ، وتوالى التنكيل بهم ، وهى آمنة أن تلاقى لهم ولياً حميما تخشى غضبه ، أو يلاقيها شفيع متوسل تستحيي أن ترد سعيه . وما زال طغيانها عليهم يزداد يوماً بعد يوم ، حتى عيل صبرهم ، وطفح كيل بلائهم ، فهنالك أخذوا يجأرون إلى الله مستغيثين ، فى صرخات عالية ، تسمع دويها فى القرآن الكريم . . وهنالك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يخفوا لإغاثتهم ، فكان ذلك هو أول تحريض على القتال : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

لم تكن الغزوة الأولى إذاً حملة تحرش وبدء بالعدوان ، كما زعم الجاهلون ، فذلك ذنب خليق أن يعتذر منه لو وقع . ولم تكن دفعة ثأر وانتقام لجروح قديمة قد اندملت ، أو محاولة تعويض واسترداد لحقوق استولى عليها الأعداء من ديار المهاجرين وأموالهم ، كما قد يظن بادىء الرأى ؛ ولو فعلوا لكان حقا لهم تقره كافة الشرائع السماوية والوضعية ، ولكنه حق مشروع فحسب ، وكان من السائغ التنازل عنه . كلا ، لم تكن هذا ولا ذاك ، ولكنها كانت عملا أعلى من ذلك كله وأسمى : لقد كانت قياما بواجب منزه القصد مبرأ الغاية عن كل الأغراض والمنافع العاجلة ، واجب نجدة المظلوم ، وإغاثة الملهوف . فهى إذاً صفحة فخار جديرة أن تسجل فى أعلى

مكتبتنا العربية

مكان من ديوان التضحية والإيثار ، وليست عملا عاديا يتطلب التبرير أو الاعتذار .

* * *

والآن وقد صححنا الوضع فى هذا الحادث التاريخى الذى ضلت به أفهام ، وزلت فيه أقلام ، نعود إلى سياق الحديث عن المبادىء العامة فنقول : إن أمثال هذه الضلات والزلات فى تحديد موقف الإسلام من الحروب مردها كما أسلفنا إلى تلك النظرات الجزئية الجانبية فى نصوص التشريع ، وإلى تلك الوقفات المترددة عند أطرافها المتباعدة . ولا ريب فى أن المقارنة بين الدعوة إلى السلام فى السور المكية ، وبين التحريض على القتال فى آيات من التشريع المدنى ، وهو آخر دورى التشريع الإسلامى ، كانت مثار شبهة وفتنة لكثير من النفوس المريضة ، فقد خيل إليها أن شريعة القتال جاءت قاعدة عامة ختمت بها الدعوة المحمدية ، وأنها تمثل انقلابا نهائيا محيت به آية السلام فى الإسلام . وإنه لمن العجيب والمؤسف حقاً أن أكثر الكتاب الغربيين لا يزالون إلى يومنا هذا يرددون صدى هذا الضلال القديم ؛ حتى إن بعض كبار المستشرقين (١) ، الذين عاشوا بيننا ، ودرسوا لغتنا ، وتولوا إدارات فنية فى دورنا العربية ، كتبوا فى الموسوعات الأوربية الحديثة فصولا مطولة عن الإسلام قرروا فيها هذه النظرية الخاطئة ؛ وكانت زلتهم كغيرهم أنهم نظروا فى التشريع القرآنى إلى طرفى خطيه المنفرجين ، ولم يحوموا حول رأس الزاوية التى يلتقى عندها الخطان .

وها نحن أولاء ندعو الباحثين المنصفين منهم أن ينتقلوا معنا من هذه الأطراف إلى الحد الوسط الذى كان وجوده فى القرآن حكمة بالغة ، وحجة دامغة ، تقطع عند نصوصها كل الفروض والظنون ، وتنهزم أمامها كل التعليلات والتأويلات ؛ فإنه متى ظهر النص بطل القياس ، ومتى طلع النهار زال كل لبس والتباس .

أجل إن القرآن الحكيم لم يكتف فى تعيين مراده بأنه كان يدعو إلى السلم فى ظروف وملابسات عادية توائمه ، ويأمر بالقتال فى ظروف وملابسات استثنائية تحتمه ، ولو أن القرآن نزل لأهل عصره وحدهم لكفاهم ذلك ؛ إذ كان واقع الحال فى كلا المقامين تفسيراً شافياً لموقع كل تشريع ، وتحديداً كافياً لمجال تطبيقه ، أما وهو دستور الإنسانية الخالد فقد كان من الحكمة السامية ألا يعتمد فى تحديد مقاصده على

---

(١) اقرأ البحث الذى كتبه المستشرق ويت ، المدير السابق لدار الآثار العربية ، عن (الديانة الاسلامية) ونشره فى موسوعة « التاريخ العام للديانات » باللغة الفرنسية

Gaston Wist, La Religion Islamique. in Histoire générale des Raligions, PP. 347, 359-300 Quillet, Paris 1948.

فى هذا البحث يقرر المؤلف أن فكرة الشيخ محمد عبده فى نصر الحروب الاسلامية على الدفاع فكرة عصرية تمثل تطوراً حقيقياً فى وجهة نظر المسلمين ، وأن النصوص تدل على عكس هذه النظرية ، ويستشهد على رأيه بآية القتال : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . فالمؤلف كما ترى يتمسك بآية من آيات الأطراف ، نظرة عن الآيات الجامعة التى سنشير إليها . على أنه قد أخطأ فى فهم الآية التى أوردها نفسها . ولو قرأ آخرها لتبين له أنها فى التقاء الجيوش فى الحروب « حتى تضع الحرب أوزارها » ، وأنها فى حرب الدفاع والانتصاف « ولو يشاء الله لانتصر منهم » .

مكتبتنا العربية

ظروف واقعية فى عصر نزوله ، لا تلبث أن تنسى إذا طال العهد بها ، وكان من الرحمة الشاملة أن يسجل أهدافه بنفسه فى نص صريح يضع كل تشريع فى موضعه ، ويكون مرجعاً للناس على مر العصور والأجيال ، ولاسيما فى قضية الأمن العالمى التى يرتبط بها مصير البشرية جمعاء .

ولقد قام القرآن بهذه المهمة على أدق وجه فى آيات جامعات ، استبان بها أن الحرب ليست هى القاعدة ، وإنما هى استثناء من القاعدة ، وأنها لا يخلقها الإسلام ، ولكن يخلقها أعداؤه بعدوانهم المسلح على دعوته السامية ، وأنها ضرورة تقدر بقدر أسبابها ، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التى استوجبتها ؛ وبالجملة أنها محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم عنه خطوة ، ولا تستأخر خطوة :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبيناً » « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ؛ إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

لقد أبطل الإسلام حروب العصبية الدينية : « لا إكراه فى الدين ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » .

ومنع حروب التشفى والانتقام للإساءات الأدبية : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » ؛

وأنكر حروب التخريب والتدمير ، وحروب الفتح والتوسع والاستعلاء : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » ؛

واستنكر حروب التنافس بين الأمم فى مجال الضخامة والفخامة : ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة » .

فهل كان يراد منه فوق ذلك كله أن يمحو حق الدفاع عن النفس والحيف ، وواجب الذود عن المستضعف والمظلوم ؟ كلا : إن الإسلام دين إحسان ولكنه إحسان لا يناقض العدل ، ولا يشجع الإجرام ، ولا يدع الحق مكبل اليدين إذا أراد الباطل أن يفتك به ؛ إنه ذو رحمة واسعة ، ولكنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين . فهو دين عدل وإحسان معا ؛ وبذلك فضل الشرائع السابقة التى فرقت بينهما . ولقد علمنا كيف ننزل بالحكمة كلا المبدأين فى منزلته ، وحذرنا أن نضع واحداً منهما فى موضع صاحبه؛

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

محمد عبد الله دراز

مكتبتنا العربية

طبيعة الفتح الإسلامي

للأستاذ سيد قطب

يخيل إلى أحياناً أن طبيعة الفتوح الإسلامية وبواعثها وأهدافها الحقيقية ليست مجهولة من الغربيين فحسب ، ممن يحسبون المدّ الإسلامى كان حركة سيف ، وهجرة جنس ، ودفعة أطماع . بل إنها مجهولة كذلك من كثرة المسلمين ، الذين يحسبون مجرد التوسع فى الفتوحات العسكرية كسباً للإسلام ، ومأثرة للفاتحين فى جميع العصور .

هؤلاء وهؤلاء سواء فى البعد عن إدراك طبيعة الفتوح الإسلامية ، وبواعثها وأهدافها الحقيقية . وإنه ليحسن أن نصحح تلك الصورة المزورة أو المشوهة لا للفتوح الإسلامية ، بل للفكرة الإسلامية ذاتها فى النهاية .

قال تعالى : « لا إكراهَ فى الدين قدْ تبينَ الرُّشدُ منَ الغىّ » .

وقال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى . فمن فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

هذه النصوص الثلاثة من القرآن والحديث تكشف لنا عن طبيعة الحروب الإسلامية وطبيعة الفتوح الإسلامية إجمالا .

إن الإسلام يستبعد من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد إكراه أحد على الدخول فى الإسلام . وبذلك يستبعد جميع الحروب والفتوحات التى تثيرها العصبية الدينية بهذا المعنى ؛ والتى ذاق العالم من ويلاتها لا فى الحروب الصليبية المعروفة فحسب ، ولا فى الاضطهاد الأسبانى للمسلمين فى الأندلس فحسب ، بل فى كثير من بقاع الأرض ، وفى كثير من أدوار التاريخ ؛ والتى ما تزال البشرية إلى يومنا هذا تتجرع مرارتها ، وإن كانت تتخفى تحت عنوانات أخرى غير عنوان التعصب الدينى !

والإسلام يستبعد من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح بقصد سيادة عنصر أو تغليب جنس ، فالناس قد جعلوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا ؛ لا ليستذل بعضهم رقاب بعض ، ولا ليسود جنس أو شعب . وبذلك يستبعد جميع الحروب والفتوحات التى تثيرها عصبية الجنس أو اللون أو اللغة . والتى ذاق العالم وما يزال يذوق ثمراتها المرة ، حتى فى العصور الحديثة ، التى يزعم الزاعمون أنها تحضرت ، وارتفعت على دوافع القبيلة !

كذلك يستبعد الإسلام من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد جر المغانم . وبذلك يستبعد كافة الفتوح الاستعمارية ، التى تكمن وراءها مطامع اقتصادية كفتح الأسواق واستجلاب الخامات ، واستغلال الموارد ؛

مكتبتنا العربية

أو الحصول على مراكز استراتيجية ، وميزات عسكرية ؛ تلك الفتوحات التى عانت البشرية وما تزال تعانى من ويلاتها ، والتى تقوم الحضارة الغربية الراهنة على أساسها ، لأنها مقوم أساسى من مقوماتها .

وأخيراً يستبعد الإسلام من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد اكتساب أمجاد شخصية للملوك والقواد ، أو إرضاء نزعات الاستعلاء والسيطرة والبروز ، التى تهيمن على أولئك الرجال ، فيسخّرون من أجلها الشعوب ، لإضافة شارة إلى تاج ، أو وسام إلى رداء !

ومن ثم يتعين باعث واحد ، وهدف واحد للفتح الإسلامى ، هو الذى يقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »

إنها إذن فكرة هى التى يراد نشرها ويراد تحقيقها : أن تكون كلمة الله هى العليا . فما هى كلمة الله المعنية فى هذا الحديث ؟ ما طبيعتها ؟ وما حدودها ؟ إنه لابد لنا أن ندرك طبيعة هذه الفكرة وحدودها لكى ندرك طبيعة الفتح الإسلامى ، ولكى ندرك الفارق بينه وبين الفتوح العسكرية الأخرى . ثم لندرك أى الفتوح الإسلامية كان فى حدود الفكرة الإسلامية ؛ وأيها لم يكن ولو أنه تم على أيدى المسلمين .

قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » ، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » فتحقيق كلمة الله وجعلها هى العليا يتضمن أن يصبح الإسلام لله هو دين البشرية كافة . الإسلام لله على إطلاقه بمعنى إخلاص القلب لله دون سواه . والنظرية الإسلامية تعتبر أن جميع الرسل قد جاءوا بالإسلام على هذا المعنى ، وأن جميع الرسالات قد قامت على أساسه ، وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - إنما جاء بالإسلام فى صورته الأخيرة التى ارتضاها الله للبشرية كافة ؛ وأن القرآن إنما جاء « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » ، ومن ثم ينبغى أن يفىء الناس كلهم إليه ، فتتحقق كلمة الله فى الأرض ، وتصبح كلمة الله هى العليا . وهذه إحدى معانى كلمة الله فى هذا السياق .

إلا أن الطريقة لأن يفىء الناس إلى هذا الدين الأخير لا يجوز أن تخرج على القاعدة الكلية التى قررها : « لا إكراه فى الدين » ؛ والمطلوب من رسول الإسلام ومعتنقيه أن يحاولوا هداية الناس إليه بالدعوة اللينة والموعظة الحسنة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

فإذا وقفت قوة مادية فى وجه الدعوة السليمة فهنا فقط يجوز حمل السلاح ، لتقرير حرية الدعوة . كذلك إذا تعرضت هذه القوة للذين استجابوا للدعوة كى تفتنهم عن دينهم الذى ارتضوه بملء حريتهم . وذلك لتقرير حرية العقيدة : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » .

وفى مثل هذه الحالة يبدو واضحاً معنى القتال لتكون كلمة الله هى العليا . فكلمة الله هنا تعنى كذلك حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وكل قوة مادية تقوم فى وجه هاتين الحريتين أو إحداهما

مكتبتنا العربية

هى قوة معتدية مضادة لكلمة الله الذى كرم الإنسان ، وجعله على نفسه بصيرة ، وجعل عقله هو الحكم ، وإرادته هى مناط التكليف : واعتبر الوقوف بالقوة فى وجه الدعوة ، أو استخدام القوة للإكراه على العقيدة ، معطلا لكلمة الله . فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

وفى هذا السبيل كانت الحروب والفتوح الإسلامية فى عهدها الأول ، الذى نشر الإسلام وقرره فى مواطنه الرئيسية فى داخل الجزيرة أو خارجها . وقد سبقت الدعوة إلى الإسلام تلك الحروب والفتوح جميعاً ، ولم تتقرر الحرب إلا فى حالة من حالتين : الوقوف بالقوة المادية فى وجه الدعوة السلمية ، أو الاعتداء على حرية العقيدة وفتنة المسلمين عن دينهم أفراداً أو جماعات .

وإن كان هذا لا ينفى أن بعض من خرجوا فى هذه الفتوح كانت الغنائم والأسلاب والفيء حافزاً من حوافزهم ، ولكن العبرة فى هذه الحالة ليست بدوافع بعض الأفراد ، إنما العبرة بأهداف القيادة . فأنا لا أحاسب دولة دخلت الحرب بطمع أفراد من جيوشها فى مغانم وأسلاب ، أو مغامرات ومتاع ، إنما أحاسبها على الفكرة التى من أجلها دخلت الحرب ، والهدف المرسوم من ورائها .

وما من شك أن القيادة الإسلامية فى فتوحها الأولى على وجه التحديد ، وفى كثير من فتوحاتها المتأخرة كذلك ، ما كانت تهدف إلى أكثر من أن تكون كلمة الله هى العليا ؛ وأن يكون الإسلام هو دين البشرية كافة ؛ لا عن طريق الإكراه ، ولكن عن طريق الدعوة . وضماناً لحرية الدعوة ، ولحرية العقيدة ، ساقت الجيوش وخاضت المعارك ، وفتحت البلاد بعد أن قدمت الدعوة بين يديها ، وأعلنت أنها الغاية الأولى والأخيرة .

ومن ثم تتهاوى جميع الأباطيل والمفتريات ، التى تقولها الغربيون على الفتوحات الإسلامية : طبيعتها وبواعثها ، والتى نشأ بعضها عن التعصب الدينى ضد الإسلام والمسلمين : ونشأ البعض الآخر عن سوء التفسير ، بسبب قياس المؤرخين الغربيين لفتوحات الإسلام على فتوحاتهم هم ، وقياس بواعث الفتوحات الإسلامية على الفتوحات الامبراطورية الاستعمارية عندهم فى القديم والحديث !

وثمة مفهوم ثالث لجعل كلمة الله هى العليا ، مشتق من المفهومين السابقين ومكمل لهما :

إن الإسلام عقيدة وجدانية ، تنبثق منها شريعة قانونية ويقوم عليها نظام اجتماعى . نظام متميز عن سائر النظم الاجتماعية التى عرفتها البشرية ، ذو مقومات خاصة به ، قد تشترك معه فى بعضها بعض النظم الأخرى . ولكنه فى مجموعه يبدو متميزا عن سائر النظم بكل تأكيد .

من هذه الخصائص أنه نظام عالمى مبرأ من العصبية العنصرية ومن التعصب الدينى . ومن ثم فهو يسمح لكل إنسان أن ينضم إلى موكبه فى يسر ، وأن يتمتع فور انضمامه إليه بكافة الحقوق

مكتبتنا العربية

التى يتمتع بها أول مسلم من أى جنس ومن أية قبيلة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومنها أنه نظام عادل ، يضمن لجميع الأفراد حقوقاً متساوية ، ولا يجعل للحاكم أو الأسرة أو لطبقة أى حق زائد عن حقوق الفرد العادى . كما يضمن العدالة المطلقة فى علاقات الطوائف والأمم فلا يقيم وزنا للعداوة والشنآن ، كما أنه لا يقيم وزنا للصداقة والقربى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

وحتى ما يسمونه فى العصر الحديث باسم « مصلحة الدولة » فإنه لا يبرر فى عرف الإسلام أن تحيد الدولة عن العدل المطلق فى معاملتها مع الأفراد أو الجماعات أو الأمم . فرد الأمر كله إلى تحقيق شريعة الإسلام لتكون كلمة الله هى العليا .

ومن ثم يدعو الإسلام أهله أن يكونوا هم الأمناء على تحقيق العدل فى الأرض كلها ، ومنع الجور ، ورد الطغيان ، تحقيقاً لكلمة الله فحيثما كان ظلم وكان بغى فالمسلمون منتدبون لدفعه ورفعه ، دون نظر إلى من وقع منه الظلم والبغى ، أو إلى من وقع عليه الظلم والبغى ، فى أية صورة ، وتحت أى عنوان سواء أكان ظلم فرد لفرد ، أم ظلم فرد لجماعة ، أم ظلم جماعة لفرد أم ظلم جماعة لجماعة . كله سواء لأن الناس كلهم سواء :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . إن الله يحب المقسطين » .

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

ومن رفع الظلم وتحقيق العدل كل ما يتعلق بتحقيق العدالة الاجتماعية . والإسلام فوق أنه يعد العدالة الاجتماعية فى أدق صورها شريعة من شرائعه ، وتكليفاً من تكاليفه ؛ يعدها فى الوقت نفسه عبادة من عباداته ينهض بها الفرد المسلم ، وتنهض بها الدولة المسلمة ، ابتغاء لثواب الله وتجنباً لعقابه ، ومن ثم يربطها بالدين فوق كفالتها بالقانون ؛ ويفرض القتال لتحقيقها إذا لم تكن ثمة وسيلة أخرى سوى القتال .

والنتيجة التى تخلص من هذه المقدمات كلها ، أن الحروب الإسلامية والفتوح ملحوظ فيها أن تحقق إلى جانب حرية الدعوة وحرية العقيدة العدالة المطلقة لجميع الناس ، فإذا هى لم تحمل هذه المقدمات معها لأهلها وللبلاد المفتوحة كذلك لم تكن حربا إسلامية ولا فتحاً إسلامياً . ولم تزد ثمرتها على ضم رقعة من الأرض إلى العلم الإسلامى . وزيادة رقعة الأرض لم تكن يوما ما ذات قيمة فى حساب الإسلام . إنما القيمة كلها لتحقيق النظام العادل الكامل الذى يقوم على الشريعة الإسلامية المنبثقة من العقيدة الإسلامية . وهذا

مكتبتنا العربية

هو الذى كان يضيف إلى الإسلام قلوبا وشعوبا . وهذه هى غاية الفتح الإسلامى لا الأرض ، ولا الفىء ، ولا الغنيمة ، ولا الغلبة على البلاد والعباد .

جاء فى كتاب « الدعوة إلى الإسلام ، تأليف . سيرت . و . أرنولد ، وترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه فى ص ٥٣ وما بعدها :

« وقد استطاع ميشيل الأكبر Micheal The Elder بطريق أنطاكية اليعقوبى أن يجد فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ما كتبه إخوانه فى الدين ، وأن يرى أصبع الله فى الفتوح العربية ، حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامى خمسة قرون . وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل : [وهذا هو السبب فى أن إله الانتقام ، الذى تفرد بالقوة والجبروت ، والذى يديل دولة البشر كما يشاء ، فيؤتيها من يشاء ، ويرفع الوضيع ، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة ، فنهبوا كنائسنا ، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب لتخليصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفى الحق أننا إذا كنا قد تحملنا شيئا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا ، وإعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس فى حوزتهم . ولما أسلمت المدن للعرب خصص لكل طائفة الكنائس التى فى حوزتها (وفى ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران) ومع ذلك فلم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم ، وحنقهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام] .

« ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن ، وعسكر أبو عبيدة فى فحل . كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون : [يا معشر المسلمين . أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا . ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا] .

وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم .

لقد كان الفتح الإسلامى فتحا فريدا فى تاريخ البشرية كلها ، لم تعرف له من قبل ولا من بعد نظيرا ، إنه لم يكن فتحاً للأرض وكنوزها ، إنما كان فتحاً لقلوب ساكنى الأرض ، وغرس بذرة العدل والتسامح والمساواة والإخاء فيها .

وإن أى إنسان مخلص للإنسانية ، يعرف طبيعة الفتح الإسلامى ، ويدرك أهدافه وبواعثه ليتمنى أن لو كان مد الإسلام الأول قد غمر الأرض جميعا ، وألقى فيها تلك البذرة الطيبة الخيرة ، وإن الرجاء المعقود - بعون الله - على مد الإسلام الثانى . الذى أخذت بوادره تظهر فى يقظة العالم الإسلامى ، وانبعاث الفكرة الإسلامية ، أن يغمر الأرض ومن عليها .

سيد قطب

مكتبتنا العربية

فتوح المجاهدين في سبيل الله
العقيدة الإسلامية وأثرها في سمو الإنسان

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني
السكرتير العام المساعد للأزهر

تدل الدراسات النفسية للأفراد والجماعات على أن الإرادة تخضع إلى حد بعيد للقوة العقلية وتصطبغ في الأفراد والجماعات بصبغتها ، فإذا اقتنع العقل بشيء وآمن به وجّه الإرادة إليه ، وبعث الرغبة فيه ، فكأن هذا الاقتناع هو القوة المحركة العاملة على وجود هذا الشيء أو بقائه ، ولذلك يحرص أصحاب الدعوات دائما على مخاطبة العقول وإقناعها بما يريدون ، لأنها متى اقتنعت استجابت ، ومتى استجابت كانت العزيمة والإرادة فالعمل ، ولا تجد الحذاق منهم يرمون إلى التسلط بالقوة والاعتماد عليها ، فإن القوة قد تفلح في فرض شيء ما ، ولكنها لا تستطيع أن تكفل له بقاء مستقرا مثمرا ثمرات طيبة مهما كان تأثيرها ومداها .

ومن ثم كانت الأديان ذات تأثير قوى لا يغالب ، ذلك بأنها تصل بعقائدها وما تبثه في العقول والقلوب إلى تكوين إيمان قوى تثير به العزائم إثارة قوية فعالة مكتسحة ، يظنها الناس إعجازاً ، وإنما هي سنة الله في القلوب إذا آمنت إيمانا حقاً .

والأديان كلها متفقة في أصول العقائد من الإيمان بالله والرسل والكتب واليوم الآخر والحساب والجزاء ، وقد سما هذا الإيمان بالإنسانية في عهودها المظلمة إلى حد ما ، نعم إن الجهالة والبهيمية كانتا حينئذ أبعد أثراً وأكبر نجاحا في التشبث ببقاء الإنسان في حضيضه ، ولكن كانت توجد دائماً قلة مؤمنة حول الرسل ودعاة الإصلاح في الأمم ، تبشر بالمستقبل المنتظر للإنسانية ، فلما بزغ شمس الرسالة المحمدية كان ذلك إيذانا بتغلب قوة الإصلاح والخير ، ومطلعا لعهد فريد من السمو بالإنسانية إلى أقصى ما ينبغي لها من مراتب الكمال والكرامة .

ومقال كهذا لا يمكن أن يستوعب جميع العقائد الإسلامية التي كان لها أثر في السمو بالإنسان ، فحسبنا أن نضرب المثل ببعض الأصول التي امتازت بها الرسالة المحمدية في ذلك ليعرف الناس أي جميل أسداه الإسلام للكرامة البشرية :

١ - كان رجال الأديان الأخرى يضربون نطاقا فولاذيا على الناس ، ويستبدون بشئونهم استبداداً عجيباً ، ولم يكونوا يكتفون بما جعلته إليهم نظم الحكم والسياسة ، من وجوب استئذانهم في سائر التصرفات المادية ، من بيع وشراء وهبة وزواج ونحو ذلك ، بل جعلوا من أنفسهم وسطاء بين العباد ورب العباد ، فمن أراد أن يتوب إلى ربه فعن طريقهم ، إن شاءوا فتحوا له باب التوبة وإن شاءوا أغلقوه ، ومن أراد أن يدعو ربه فإليهم أولا يجب أن يرجع . وفي سبيل هذا

مكتبتنا العربية

أو ذاك يجب أن تقدم إليهم القرابين ، وأن تملأ أيديهم بالذهب النضار ، وأن يدخل معهم فى مساومات يسيرة أحياناً ، وشاقة أحياناً تبعا لما اقترفه من ذنب صغير أو كبير .

وقد نزلت هذه الأوهام والأباطيل بالإنسان إلى مستوى العبودية لغير الله ، وجعلته ذليلا خاضعاً لحفنة من الناس الذين لا يمتازون عنه فى شيء ، وليس لهم عمل فى الحياة إلا أن يبتزوا ماله وثمرات سعيه بهذا الإيهام الكاذب ، كما أثر ذلك فى العقول فأصابها بالشلل والعقم والجمود ، ومن ثم لم يكن من العجب أن يظل البشر فى عماية عن الحقائق ، وجهل عميق بقيمة أنفسهم وبما يجب عليهم أن يقوموا به لأداء رسالتهم السامية فى عمارة هذا الكوكب الذى أسكنهم الله إياه ، وسخر لهم كل شيء فيه ، حتى إذا جاء الإسلام صرع هؤلاء الوسطاء الكاذبين صرعة لا قيام لهم من بعدها ، فأعلن فى صراحة أن الله قريب من عباده يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وأنه أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، وأنه لا يشترط فى قبول العبادة من الناس أو التوبة من الذنوب وساطة أحد أو شفاعة أحد ، فما على المرء إلا أن ينيب إلى ربه ، ويتوب من ذنبه ، دون أن يتذلل أو يتزلف أو يقدم القرابين .

بهذا كُرِّم الإنسان ، وصينت عليه عزته ، وانفتحت أمامه أبواب الأمل التى كانت مغلقة ، وسما بعقله وتفكيره عن ذلك الضيق الذى قصر عليه ، وحبس فيه ، وعلى الجملة كان شعوره شبيهاً بمن كان تحت الوصاية ثم رفعت عنه قيودها ، وأصبح حراً طليقاً يفعل ما يشاء غير مُراقب أحدا إلا ربه ، ولم تكن بركة هذه العقيدة قاصرة على الذين اعتنقوا الإسلام وآمنوا برسوله الكريم ، ولكنها سرت إلى أهل الأديان الأخرى سريانا عجيبا ، فلم تمض فترة طويلة حتى خرجوا على أحبارهم ورهبانهم وقسيسيهم فلم يعد أحد يؤمن إيمانا صادقا بوصايتهم أو وساطتهم إلا أن يكون ذلك صورة من الصور التقليدية يؤدونها وهم بها كافرون ، ولها كارهون ، فكأن الإسلام بذلك قد بذر للإنسانية كلها هذا البذر الطيب فأخرج نباته بإذن ربه .

٢ - وعقيدة « التوحيد » من العقائد المشتركة بين الأديان ، ولكن أمرها كان عجيباً فى أذهان المنتسبين إلى هذه الأديان حتى إذا قطعنا النظر عن اضطراب أهل التثليث فيها ، وما يحاولونه من حمل العقول على قبول نظرية الأب والابن والروح القدس ، كصورة من صور الوحدانية أو التوحد ، فالأحبار والرهبان - وساعدهم الملوك وأصحاب السلطة المادية - قسموا الناس طبقات ، وخيلوا لهم أن الدماء الآدمية تختلف ، فلهذه الطبقة من الحقوق ما ليس لتلك . ولهذا الدم أن يحكم وأن يورِّث الحكم فى أعقابه بأمر الله ، وليس لأحد من العامة أن يعترض وإلا كان جزاءه الطرد على يد الحكام من الحياة الدنيا بالموت ، والطرد على يد رجال الكهنوت فى الحياة الآخرة من رضوان الله ، وبهذا فترت الهمم ، وانحلت العزائم ،

مكتبتنا العربية

وصار الناس يدورون فى فلك ضيق ، إن كانوا من الخاصة لم يكدوا ولم يكدحوا ولم يكلفوا أنفسهم أن يسلكوا فى الحياة سبيلا قويما لأنهم لا يخافون أن يضيع مجدهم أو ينزلوا إلى مرتبة العامة ، وإن كانوا من العامة لم تسم نفوسهم إلى حياة أرفع لأن هذه الحياة مستحيلة عليهم فى ظل هذا التقسيم الجائر الذى فرض على المجتمع، ومن ثم استرخى هؤلاء وهؤلاء ، وصار العز والرفعة ميراثا يصـــل إلى الأبناء عن آبائهم وأجدادهم ، كما صار الفقر والشقاء ميراثا لقوم آخرين لا يعدوهم .

وهذا نوع من الشرك بالله ، فإن الله هو الذى له العزة جميعا ، وعباده هم الفقراء إليه ، المحتاجون إلى فضله دائما ، فكيف يشارك رب العزة فيما هو من خصائصه ؟ .

وشىء آخر فى هذا النظام الطبقى ، إنما هو نوع من الشرك ، ذلك هو ادعاء الأحبار والرهبان حق التشريع بالتحليل والتحريم ، وما كان التشريع والحكم إلا لله .

وهكذا كان الناس غارقين فى الشرك وإن انتسبوا إلى شرائع تنادى بالتوحيد .

ثم جاء الإسلام فكان منطقيا عمليا فى دعوته، فالناس جميعا لديه سواء كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد بدعوى أنه من هذه الطبقة أو من تلك ، ولا بدعوى أنه تجرى فى عروقه دماء معينة ، وفى ذلك يقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « أيها الناس . إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ويقول الله فى كتابه الكريم « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وفى هذا المبدأ الذى هو استواء الناس فى الحقوق والواجبات نتيجة لاستوائهم فى المربوبية لرب واحد وفى البنوة لأب واحد ، يصل السمو بالإنسانية إلى مرتبته الكاملة ، وفى جعل التفاضل والتمايز « بالتقوى » تقدير للقيم المعنوية ، وحفز للهمم والعزمات ، وما التقوى إلا سلوك طريق الرشاد فى كل ناحية من نواحى الحياة .

وقد كان من أثر هـــذه العقيدة التى أعلنها الإسلام وأوجبها أن استوى الناس فلا طبقات ولا متقمصين لسلطة التشريع والحكم « إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه » .

وعندما تولى الخليفة الأول كان مما أعلنه على رءوس الأشهاد قوله « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، ولقد وددت لو أن أحدكم قام بهذا الأمر عنى ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى » .

ولم نر أحداً من أهل العلم أو الحكم يزعم أنه ذو حق فى التشريع والتحليل والتحريم ، وإنما هم ناظرون فى كتاب الله وسنة رسوله يستنبطون حكم الله ويبلغونه للناس أو يقومون عليه ، ولذلك يعتقد كل مجتهد أنه عرضة للخطأ والصواب ، ولم يرض أبو بكر حين بويع بالخلافة أن يُدْعى « خليفة الله » وقال : إنما أنا « خليفة رسول الله » ثم رأى عمر أن يزداد بعداً عن

مكتبتنا العربية

مظنة التشريع والنيابة عن الشرع فسمى نفسه « أمير المؤمنين » .

٣ - وقد سما الإسلام بالإنسانية سموا آخر ، حيث جعل كل إنسان مسئولا عن نفسه ، محاسباً على ما يفعله هو من خير أو شر ، فلا هو بمسئول عما يأتيه غيره ، ولا هو بمنتفع بعمل أبيه أو جده « أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » ، « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » ، « يا فاطمة اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

وبهذه العقيدة أدرك الإنسان قيمته ، وأحس بالمسئولية الملقاة على عاتقه ، واستثار كوامن قوته ومواهبه ليخطو فى الحياة معتمداً على نفسه مستمداً النجاح والفوز من ذاته وعمله ، وبهذه العقيدة أيضاً قضى على تلك السلطة الغيبية التى كان يزعمها رؤساء الأديان من أنهم يستطيعون أن يجعلوا العاصى طائعاً لو أرادوا ، وأن الجنة ملك لهم يقطعون منها ما يشاءون لمن يشاءون .

* * *

هذه أمثلة مما جاء به الإسلام من عقائد الحق التى سمت بالإنسان وحفظت كرامته ، ووجهته فى الحياة الوجهة الصحيحة المعينة له على القيام برسالته من عمارة الكون ، وعبادة ربه الأعلى .

وهناك عقائد أخرى تجرى فى هذا المضمار ، ولها تلك الآثار ، كعقيدة البعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، وعقيدة التآخى بين الدين والعلم ، على معنى أنه لا يمكن أن يختلف العلم الصحيح مع الدين ، والإيمان بالحكمة التامة فى كل ما يصدر عن الإله ، وبأن للكون سنناً لا تتبدل ولا تتحول ، وبوجوب البحث والنظر على كل مستطيع ، وبحرية العقل فيهما وعدم تكبيله والحجر عليه . . . الخ .

نعم إن الأديان الأخرى قد شاركت الإسلام فى بعض تلك العقائد ، ولكن أهلها - كما بينا فى عقيدة التوحيد - قد حرّفوها والتوَوْا بها عن أصلها ، وغفلوا عن لوازمها ومقتضياتها فكانوا بذلك مجافين لمنطقها ، وحائلين بينها وبين أن تؤدى إلى الغاية المقصودة منها ، أما الإسلام فأهدى للناس ما أهدى من ذلك صافياً لم تشبه الشوائب فكان حقاً وصدقا هو الحجة البيضاء ، ثم انفرد بما لم يشاركه فيه سواه ، فكان دين الإصلاح الكامل ، ومنهج السمو الذى ليس بعده سمو ، وكان جديراً بما قاله الله عز وجل حين أنمه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

محمد محمد المدنى

قال الله تعالى :

ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا .

مكتبتنا العربية

الأسس التي قام عليها التشريع الإسلامي

لصاحب الفضيلة الاستاذ علي الخفيف
استاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق

الشريعة الإسلامية أبعد الشرائع عن التأثر بالأهواء والاستجابة للأغراض الشخصية والمطامع الطائفية، لايأتيها الباطل ولا تجنح إلى التميز ولا تجعل الناس طبقات بعضها فوق بعض. وإذا جاز لشريعة أن تنزع إلى تحقيق شهوة لملك، أو أن تهدف إلى رفع طبقة من الناس، أو أن تميل إلى تحقيق مصلحة حزبية أو فكرة مذهبية، أو أن تزل فى وضعها العقول وتضل فى توجيهها الأفكار، فلن يجوز ذلك على شريعة شرعها الحكيم العليم وأنزلها لهداية الناس أجمعين والوصول بهم إلى عيشة راضية ينعم بها الفرد ويسعد بها المجموع.

ويهمنا النظر فى هذه الشريعة إلى أنها قد قامت على أسس حكيمة وقواعد متينة، روعيت فيها الطبائع الإنسانية والنزعات النفسية ولوحظت فيها القوى البشرية وما يعرض لها من عوارض وما تتأثر به من أسباب وعوامل، فحققت لذلك أغراضها وآتت أكلها. ولكن الناس قد صدوا عنها فأعقبهم ذلك انحطاطا فى أخلاقهم وضعفاً فى نفوسهم وانحلالا فى وحدتهم وخرابا فى أوطانهم فأصبحوا، عبيداً أذلاء لغيرهم يسخرونهم فى تنفيذ أغراضهم ويحكمونهم بأهوائهم.

قامت الشريعة الإسلامية على أسس عديدة أهمها أسس ثلاثة، اليها يرجع كثير من قواعدها وأصولها وفيها تتدرج جميع الأغراض والحكم التى قصدت اليها فى جميع نواحيها واتجاهاتها، وهذه الأسس هى رعاية مصالح الناس والتيسير عليهم والعدل بينهم، فأما رعايتها لمصالح الناس فجماع أغراضها وأهم أهدافها، لا تغفله فى حكم ولا تتحول عنه فى تشريع فحيث تكون المصلحة يكون حكمها، وحيث تكون المفسدة ينتفى حكمها. وهذه حقيقة تضافرت عليها الأدلة حتى أصبحت علماً ضرورياً لا يرقى اليه شك ولا تقاربه ريبة، يدل عليها ما وصف به الكتاب الحكيم الذى جاء بها وما نعت به الرسول الذى شرع للناس أصولها وبين لهم أحكامها، فقد وصف الكتاب بأنه مبارك أنزل رحمة للعالمين وهدى وبشرى للمؤمنين ونورا وموعظة للمتقين وبصائر وشفاء للناس أجمعين: يقول الله تعالى: «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان»، ويقول «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور»، ويقول «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم»، ويقول فى وصف الرسول: «يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم». وغير ذلك من آى القرآن كثير معلوم، وليس

مكتبتنا العربية

بعد هذا صلاح يرتجى ولا خير يطلب . وليس فى الإمكان أن يأتى كتاب هذه بعض أوصافه بشريعة تسيم الناس الخسف وتهدر فيها الحقوق وتضيع معها المصلحة ويشقى بها أهلها ، إذ لا يمكن أن يكون هدى وقد جاء بالضلال ولا أن يكون رحمة وفلاحا وقد أتى بالشقاء ، ولا أن يكون شفاء وقد نزل بالمرض ولا أن يكون نوراً ورشداً إذا ضل به العقل وفشت به الجهالة . ثم أى شىء يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحل الطيبات وتحريم الخبائث ووضع الأثقال وتحطيم الأغلال إذا لم تتوافر بذلك المصالح وتتحقق المنافع ويزول الضرر وتجتث أصول الشر .

وإذا كان صنيع الله فى خلقه أن هيأ للإنسان منافعه ويسّر له حوائجه وأحضر له مطالبه فسخر له ما فى السموات وما فى الأرض وسخر له الليل والنهار وسخر له الشمس والقمر دائبين وسخر له الفلك وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة فهل يمكن أن يكون صنيعه فى شرعه على خلاف صنيعه فى خلقه ؟

لقد دل استقراء الشريعة والنظر فى أدلتها كلية وجزئية والبحث فيما انطوت عليه من الأغراض والحكم ، على صحة هذه النظرية فكانت أدلة الشريعة كلها لا فرق بين خاصها وعامها ولا بين مطلقها ومقيدها ولا بين كليها وجزئيها ، دائرة على رعاية المصالح فى جميع مناحيها ووقائعها حتى صار العلم بذلك علماً ضروريا وتبين أن رعاية المصالح قطب التشريع الإسلامى وأصله الذى لا متحول عنه .

كما دل استقراء تلك الأدلة على أن رعاية الشارع الإسلامى إنما كانت لمصلحة المجموع فكانت هى أساسه فى شرعه دون أن يكون لمصلحة الفرد أى اعتبار فى حكمه إذا عارضت مصلحة كلية . ولذا كان من قواعد هذه الشريعة تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة عند تعارض المصلحتين . وعلى هذا الأصل شرعت أحكام كثيرة ، منها الحكم القاضى بأخذ الملك من صاحبه جبرا عنه لأجل مصلحة عامة كشق طريق أو توسيع مسجد ، فعل ذلك عمر حين ضاق المسجد الحرام على الناس وكانت دور الناس يومئذ محدقة به من كل جانب عدا فتحات جانبية يدخل منها الناس إليه فاشترى عمر دورا منها وأبى عليه ذلك أصحاب الدور الأخرى فأخذها منهم جبرا وأدخل الجميع فى المسجد بعد أن أودع قيمة ما أخذ جبرا باسم أصحابه . وهذا حل سليم ، لأن المصالح الفردية متضاربة متعارضة ليس فى الإمكان رعاية شىء منها إلا باطراح كثير غيره ، وليست رعاية مصلحة فرد بأولى من رعاية مصلحة فرد آخر والضرر يجب أن يزال . وفى رعاية مصلحة المجموع رعاية لمصلحة كل فرد من ناحية أنه جزء منه ومصلحة عائدة إليه ، فكان ذلك هو الواجب مراعاته دون نظر إلى ما قد يعارضه من المصالح الفردية. ومصالح الناس فى هذه الحياة تتكون من أمور هى لهم ضرورية تتوقف عليها حياتهم ويختل بفقدها وجودهم . وأخرى هم فى حاجة إليها ولكنها دون الأولى فى اعتياد الحياة عليها وصلاح الوجود بها فلا تختل بفقدها حياة الناس ولا يعمهم بسبب ذلك الفساد ولا تسود فيهم الفوضى ولكن يصيبهم عند فقدها حرج

مكتبتنا العربية

ومشقة لا يبلغان مبلغ ما يكون من فساد وضرر عند فقد الأولى . وينضم إلى هاتين الطائفتين من المصالح طائفة ثالثة من أمور لا تدخل فى الطائفتين السابقتين لأنها دونهما ولكن تعتبر مكملة لها ويجمعها الأخذ بمحاسن العادات والعمل بما تتطلبه المروءات ورعاية أحسن المناهج فى العادات والمعاملات[1] فتتحقق للناس مصالحهم على أكمل وجه وتطيب معايشهم . وينعمون بحياتهم .

وقد بنى أمر هذه الحياة على اختلاط المصالح بالمفاسد والملذات بالآلام ، فلا يقع فى هذا الوجود نفع إلا مشوبا بضرر ، ولا لذة إلا مختلطة بألم ويعجزك الفصل بينهما إذا حاولته ويعييك الظفر بأحدهما وحده إذا أردته . ولهذا كان اتجاه الشارع الإسلامى فى شرعه إلى غلبة أحد العنصرين فهو يراعى ما غلب فيه جانب المنفعة ، ويدرأ ما غلب فيه جانب المفسدة ، وما قد يوجد فى الأمر من ضرر وحرج فإن الشارع لا يقصد إليه ولا يريده من شرعه ولا يجعل لوجوده اعتبارا نظرا إلى ما يصاحبه من نفع راجح وصلاح غالب .

ورعاية الشارع للمصالح ودرئه للمفاسد على هذا الوضع تتناول أمورا كانت هى الأخرى من أسس شرعه التى قام بها ومن قواعده التى بنى عليها كثيرا من أحكامه لما فى رعايتها من توفير الخير وتحقيق النفع .

من ذلك مراعاة ما جرى به عرف الناس فى تعاملهم وما اعتادوه فى تصريف شؤونهم مما ليس فيه ضرر غالب فإن الناس قد تدفعهم الحاجة وتقتضيهم الحياة أن يزاولوا أمورا يرون فيها استقامة أحوالهم وسداد حاجتهم فتصير جزءا من نظامهم وعرفا جاريا فيهم ، تقوم به حياتهم وتصلح أمورهم فلا يكون من الحكمة والمصلحة إحراجهم بحملهم على تركه دون أن يكون فى ذلك صلاحهم . وما جاءت الشريعة بحرج ولا شرعت الإعنات ومع هذا قد تدعو الناس أهواؤهم الجامحة وشهواتهم الطاغية إلى ارتكاب أمور أخرى يخدعهم زيفها ويغريهم بريقها فيتخذونها عبثا ولهوا وتصير محببة إلى نفوسهم السيئة ونزعاتها الآثمة فينغمسون فيها حتى تتمكن منهم وتفشو فيهم وتصير عادة عامة لهم . فى مثل هذه الحالة رأت الشريعة أن تطهرهم منها وأن تجنبهم آثامها وشرورها وأن تعالجهم من أمراضها بكل وسيلة تدعو إليها الحكمة مع الموعظة الحسنة .

وهذان نوعان من العرف أولهما : عرف صحيح لأنه لا يعارض شرعا ولا يخل بصلاح . وقد راعت الشريعة الإسلامية ما يقضى به فأقرت فرض الدية على العاقلة ، واشتراط الكفاءة فى الزواج ، ومبدأ العصبية فى الإرث ، وتحريم الزواج بين المحارم من الأقارب ، وكثيراً من أنواع المعاملة والمبادلة ، كالسلم والعارية وغير ذلك مما كان معروفا لدى العرب قبل الإسلام . وثانيهما عرف فاسد لما يترتب عليه من ضرر وما يجر إليه من مفاسد . وقد حاربته الشريعة لحرمته

(١) ورعاية الشريعة لها على هذا الترتيب تهمل رعاية الطائفة الثانية إذا عارضت الأولى وتهمل الثالثة عند معارضتها الثانية وتراعيها جميعها عند عدم التعارض ورعايتها على هذا الوضع .

مكتبتنا العربية

وفرضت العقوبات على مقترفه . ومن ذلك التعامل بالربا والميسر وشرب الخمر وغير ذلك من منكرات الجاهلية . ولذا لم تكن الشريعة الإسلامية شريعة مستحدثة جديدة فى جميع نواحيها بل كان كثير من أحكامها معروفا مقررا قبل مجيئها وكانت مهمتها فى الواقع إصلاح المجتمع وعلاجه . وذلك بإصلاح الفاسد وتكميل الناقص وتحريم الضار وإقرار الصالح .

وقد يتناول العرف ما بقى فى الناس من شرائع سابقة لم تعمل فيها يد الإفساد والتحريف فبقى على صلاحه وأصبح عرفا صحيحا راعاه الشارع الإسلامى لأنه موف بالغرض الذى قصد إليه من شرعه .

ويتصل بهذا الأصل أيضاً إقرار الشارع الإسلامى لما يراه المسلمون حسنا من الأفعال والأحكام ، فإن إسلامهم يمنعهم أن يروا الحرام حلالا والخبيث طيباً والفاسد صالحا ، فلا يرون الشىء حسناً إلا إذا كان خيراً أو وسيلة إلى خير ؛ وتلك أغراض توخاها الشارع فى شرعه وقصد إليها فى حكمه ؛ ويؤيد ذلك الأثر : «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن» ، وكانت هذه الفكرة إحدى الدعائم التى قامت عليها حجية الإجماع واعتضدت بها الشورى فى الإسلام .

وإذا كانت الشريعة كما بينا قد شرعت لتحقيق مصالح الناس وسد حاجاتهم فليس فى توفير المصالح ما هو أهم وألزم من درء المفاسد ودفع المضار ، ولذا حرمت الخبائث ونهت عن الجرائم وأمرت بالكف عن المحرمات والسعى إليها وكان شرع الله فى ذلك سبيلا إلى توفير النفع وتحقيق الخير العام دون نظر إلى ما قد يخالط ذلك من ضرر قد يصيب فرداً وقلة من الناس . وعلى هذا الأساس أمر الناس بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم ولو أدى ذلك إلى قتل النفس . وساغ للتاجر أن يرخص فى سلعته وإن ترتب على ذلك إعراض الناس عن سلع غيره[1] وأن يدفع الرجل عن نفسه ظلماً وإن رأى أنه يصيب عند ذلك غيره : قيل لحماد بن أبى سليمان : قد يتكلم الرجل فترفع عنه المظلمة وتوضع على غيره فقال إنما عليك أن تدفع عن نفسك فإذا وقعت على غيرك فلا نبالى إذ لا سبيل عليك إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق .

وقد يكون الضرر فى أمر من الأمور غالبا فيحرم لذلك ، ثم يعرض له فى بعض الظروف ما يجعل النفع فيه راجحا ، فيتغير لذلك حكمه ويصير جائزا أو مطلوبا بعد أن كان ممنوعا ، غير أن ذلك يجب أن يكون موقوتا ببقاء تلك الحالة واقتضاء ذلك الظرف وعلى قدر ما تستوجبه الضرورة فتقدر عند ذلك بقدرها ولا يجوز مجاوزتها وعلى هذا الأساس أحلت الشريعة كثيراً من المحظورات حسبما تقضى به الضرورات ووضعت القاعدة : الضرورات تبيح المحظورات . وعلى أساس ذلك أحل أكل الميتة لمن اضطر

(١) وحرم على الناس تلقى الركبان من التجار لأخذ السلع قبل دخولهم إلى الأسواق وبيع الحاضر للبادى قبل تعرف الأسعار وبيع السلاح لأهل الحرب والفتنة والسكوت عن المنكر .

مكتبتنا العربية

فى مخمصة غير متجاوز ما يدفع عنه الهلاك. وأحل أكل مال الغير دفعا للهلاك عند شدة الجوع بقدر ما يدفع الضرر. وحل شرب الخمر للتداوى أو لدفع الظمأ الشديد الضار. وفى مثل ذلك نزل كثير من آى القرآن الحكيم قال تعالى بعد بيانه لبعض المحرمات: «فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم» وقال فى موضع آخر: «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم» وفى موضع آخر «إلا ما اضطررتم إليه» وفى آخر «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان».

وعلى هذا الأساس شرعت العقوبات بجميع أنواعها ففيها صلاح الجانى فى كثير من حالاتها على الرغم مما يصيبه من ألم، وفيها زجر غيره ممن تسول لهم أنفسهم أن يعتدوا على غيرهم أو يخرجوا على النظام أو يعبثوا به. وفيها صلاح المجتمع، وهو غاية كل تشريع صالح وأمل كل مصلح ورجاء كل عاقل حكيم.

ويتصل بهذا الأصل قاعدة هامة من قواعد التشريع الإسلامى، وهى قاعدة سد الذرائع وتتحقق عندما يكون الفعل الجائز فى نفسه ذريعة وطريقاً إلى ما هو شر فى نفسه. وإن شئت قلت عندما يكون فى مباشرة أمر فيه مصلحة إفضاء إلى مفسدة.

عند ذلك يكون للوسيلة حكم ما تفضى إليه من مفسدة حرمة أو كراهية. وقد حكمت هذه القاعدة فى كثير من أحكام الشريعة الإسلامية حتى جعلها ابن القيم أصلا لرابعها. وليست هذه القاعدة فى الواقع إلا تطبيقاً للأصل القاضى بدرء المفاسد على أتم وجه وأكمل وضع، حتى لا يتورط الإنسان فى شر من حيث أراد الخير لنفسه، فاقتضت إرادة الشارع الحكيم أن تكون لوسائل المفاسد وطرائقها من الكراهة والتحريم ما لغواقبها، إذ لو أباحها لكان ذلك نقضاً لحكمه ورفعاً لتحريمه ولانفتح على الناس باب للمفاسد والشرور لا يصلح به حال ولا يقوم معه نظام ولا يسلم معه اجتماع. ومما بنى على هذه القاعدة من الأحكام تحريم الخلوة بالنساء الأجنبيات وسفرهن مع غير ذى رحم محرم منهن. والجمع بين المحارم والزيادة على أربع زوجات. ومن ذلك قوله تعالى «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم»، وغير ذلك كثير من الأحكام.

وأما قصد التيسير على الناس فهو مستبين فى جميع أحكامها واضح فى كل دلائلها ظاهر فى خلق من جاء بها وبيّنها وليس أدل على ذلك من قوله تعالى «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» فقد دل على أن إرادة اليسر إرادة عامة شاملة غير منقطعة لا تصاحبها إرادة العسر فى أى زمن أو أية حالة. ومن قوله تعالى لرسوله «ونيسرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى» أى نعدك ونهيئك للشريعة اليسرى السهلة الهينة التى لا تضنى ولا ترهق فذكر الناس بها. ولقد تمكن ذلك من نفسه حتى كان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم، فيما ذكرته عائشة أنه ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما وقد. روى عنه أنه واصل الصيام أياما ثم تركه ونهى عنه مخافة أن

مكتبتنا العربية

يأتسى به الناس فى ذلك . وكان يترك العمل وهو يحب أن يعمله خشية أن يظن الناس وجوبه فيعسر عليهم فعله .

وقال : « خذوا من العمل ما تطيقون » وقال : إذا « أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » إلى غير ذلك من أقواله وأفعاله التى تدل على أن التيسير على الناس من أهم أغراض الشريعة وأعظم قواعد الدين.

وعلى هذا الأساس كان التكليف فى الشريعة على حسب الوسع وكان الأمر فيها على قدر الطاقة وجانبت فى أحكامها الحرج والمشقة يدل على ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة « لا تكلف نفس إلا وسعها » . . « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وفى سورة المائدة « لا نكلف نفساً إلا وسعها » . « ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج » وفى الحج « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وفى سورة النساء « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » ويقول الرسول : بعثت بالحنيفية السمحة . أى المائلة عن الضلال السهلة اليسيرة التى بنيت على القصد والتوسط لا تفنى بأهلها إلى الانقطاع عنها والوقوف دون غايتها عجزاً عن متابعتها . وعلى هذا الأساس روعيت فيها الأعذار الطارئة التى يشق معها الحكم ويتعاسر، فرفع أو استبدل بما هو أيسر منه. ولذا أبيح للمكره أن يتلفظ بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان . وأبيح أكل الميتة وشرب الخمر عند الضرورة . وأبيح الفطر فى السفر وعند المرض فى رمضان . وقصرت الصلاة فى السفر. وكان من قواعد هذه الشريعة «الضرورات تبيح المحظورات» وعليها بنى كثير من الأحكام .

ومن مظاهر هذا التيسير والقصد، إليه التدرج فى بيان هذه الشريعة وفى تكليف الناس ببعض أحكامها حتى لا يرهقوا بتكاليفها دفعة واحدة ، ولا يعنتهم مطالبتهم بترك ما اعتادوه مرة واحدة ، فأنزل القرآن مفرقا على حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال والظروف فى مدة بلغت ٢٢ سنة نزل فيها تباعا فيما يحدث من وقائع تتطلب حكما ، أو أحوالا تقتضى بيانا ، وكذلك كان شأن السنة ، لم يأتهم بها الرسول إلا مفرقة مجزأة على حسب مقتضيات الأحوال وتطلب الظروف . وكذلك روعى هذا التدرج فى التكليف ببعض الأحكام فلم تحرم الخمر على الناس من غير تمهيد لذلك التحريم ، بل أعدت له النفوس قبل نزوله بأن بين أن إثمها أكبر من نفعها ، ثم حرمت عند الصلاة ، ثم حرمت بعد ذلك تحريما نهائيا . وبهذا التدرج لم يواجه الناس جميع التكاليف دفعة واحدة ، ولم يطلب إليهم عمل شىء إلا بعد أن هيئت نفوسهم له واستعدت لامتثاله حتى لا يشق عليهم فعله .

وكان من مظاهر هذا التيسير أيضا قلة التكاليف فيها ، فإذا نظرت فى القرآن رأيت أن ما يحويه من الأوامر والنواهى قليل العدد قليل التفصيل يسير التنفيذ لا يرهق تنفيذه ولا يشق احتماله . ولكيلا تكثر التكاليف بسبب المسألة والإلحاف فيها ، نهى عن السؤال فقال : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم ، عفا الله عنها والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » وقد نزلت هذه الآية

مكتبتنا العربية

حين كان الرسول يبين للناس فريضة الحج فقام إليه رجل فقال : أكل عام يا رسول الله فأعرض عنه فكرر الرجل السؤال ثلاثا : وفى كل مرة يعرض عنه ، حتى قال له فى الرابعة : « لا ، والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت . ولو وجبت ما استطعتم ، ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » . وفى ذلك يقول الرسول أيضا : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وعفا عن أشياء رحمة بكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها » .

ومن مظاهر التيسير أيضا درء الحدود بالشبهات حتى لا يقام حد مع شبهة تشكك فى وجوبه لأن فى إقامة الحد مع الشبهة حرجا يثيره احتمال البراءة وعدم اطمئنان النفس إلى استحقاق العقوبة ، ولذا قال الرسول « ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » ، كما كان من آثاره احتمال الضرر لدفع ما هو أعظم منه ، فإن فى دفعه إزالة ضرر لنا عنه مندوحة . على هذا الأساس بنيت أحكام كثيرة كإيجاب النفقة على القريب ، وإجبار المدين على الوفاء ، وإجبار الشفيع على تملك ما زاده المشترى فى العقار المبيع ، وإلزام الزوجة بطاعة زوجها ، وغير ذلك من الأحكام .

وأما العدل بين الناس فليس لأية شريعة منه مثل ما للشريعة الإسلامية فيه من حظ ، فقد عنيت ببيان ما للناس من حقوق فحافظت عليها وسنت الأحكام الكفيلة بردها إلى أصحابها ، حتى أمن الناس بها على أنفسهم وأعراضهم ودينهم وأموالهم وحقوقهم واطمأنوا إلى الاستمتاع بها فى حدود ما شرعت من أحكام ، وما سنت من نظام وكان من أسسها التزام العدل فى جميع الأمور فى القول والفعل وفى المعاملة والمجازاة قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » ، وقال « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، وقال « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وكان من آثار قيامها على العدل أن جعلت الناس أمامها سواء ، فهم فيها سواسية غنيهم ، وفقيرهم ، وكبيرهم ، وصغيرهم ، وأميرهم ، وسوقيهم ، لا يرتفع فيها أمير على حكم ولا يفلت من جزاء ، وفى ذلك يقول الرسول : « الناس سواسية كأسنان المشط » ، ويقول حين شفع إليه أسامة فى حد من حدود الله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وبقيام الشريعة الإسلامية على هذه الأسس سايرت الزمن ووسعت التطور وصلحت لكل أمة ولاءمت كل وقت ولم يند بها مكان ، ولكن الناس جهلوا أصولها ولم يعرفوها على وجهها فانصرفوا عنها إلى غيرها فضلت بهم السبل فلم يصلوا إلى غايتهم المرجوة ولا إلى كمالهم المطلوب .

على الخفيف

مكتبتنا العربية

مناهج الفقهاء الأئمة فى التشريع

لصاحب الفضيلة الدكتور أحمد أمين

اتفقت كلمة المشرّعين على أن أصول الأحكام الكتاب والسنة والإجماع والقياس وإن اختلفوا فى الاعتماد والتفسير لبعض هذه المصادر . فمثلا يعتمد الإمام أحمد بن حنبل على الحديث كل الاعتماد ، ويجمع فى مسنده نحو ستة آلاف حديث ، بنى عليها أحكامه الفقهية ، على حين أن أبا حنيفة لم يصح عنده إلا نحو تسعة عشر حديثاً ، كما يخبرنا بذلك ابن خلدون . ويضيّق الإمام مالك فكرة الإجماع ويقصرها على إجماع أهل المدينة ، على حين أن غيره من الأئمة يجعل الإجماع عاما لجميع المسلمين ، استناداً إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » ويتوسع أبو حنيفة فى القياس حيث يضيقه أحمد ابن حنبل . وهكذا تختلف منازعهم ، وإن اتفقوا على الأصول الأربعة . وعدا ذلك اختلفت منازع الأئمة فى التشريع . وكان لابد من اختلاف اتجاهاتهم فإن الأحكام الواردة فى القرآن والسنة أكثرها أحكام كلية ، مثل « لا تضارّ والدة بولدها ، ولا مولود له بولده » ، ومثل « لا ضرر ولا ضرار » ، وهكذا . وقد واجه الأئمة بعد فتح الأمصار حالات كثيرة جديدة ، لم تكن معروفة فى جزيرة العرب . فى العراق واجهوا مسائل الرّى الناشئة عن دجلة والفرات ، واجهها أبو حنيفة ، ثم من بعده تلميذاه أبو يوسف ومحمد . وفى مصر واجه الشافعى مشاكل الرّى الناشئة عن النيل ، هذا إلى مشاكل المعاملات والجنايات .

ولكل قطر عاداته فى المعاملات والجنايات . ومن أجل ذلك كان للشافعىّ مذهبان : قديم وجديد ؛ قديم قبل أن يدخل فى مصر ، وجديد استدعته أحوال مصر . ولذلك أود أن يتجه بعض الناشئين الباحثين ، فيقارنوا بين مذهبه القديم والجديد ، ليعرفوا إلى أىّ حدّ غيّرت مصر من مذهبه القديم ، ويعرفوا الحالة الاجتماعية التى استدعت ذلك .

هذا إلى أن كثيراً من الأمم التى دخلت تحت حكم الإسلام كالفرس والروم كانت لهم عادات خاصة ، فلما دخلها الإسلام كان لابد أن يعرضوها على الأئمة ، ليعرضها هؤلاء بدورهم على الأصول الكلية للإسلام ، ويقرّوها أو يحكموا ببطلانها .

وأسباب الخلافات بين الأئمة ترجع إلى عوامل كثيرة . منها صحة حديث عند بعض الأئمة فى بعض الأقطار ، وعدم صحتها عند الآخر . ومنها فهم الإمام لآية وحديث حيث لا يفهم الإمام الآخر هذا المعنى منهما ، ومنها أن أحد الأئمة يشترط شروطا كثيرة فى قبول الحديث حيث لا يشترطها الإمام الآخر ، ومنها تأثر الإمام

مكتبتنا العربية

إلى درجة كبيرة بالبيئة التى يعيش فيها ، حيث يتأثر الآخر ببيئة غيرها . ومنها ثقافة كل إمام وإن كان كلهم مثقفين ، إلا أنه مهما كانت ثقافتهم فإن كلا منهم يختلف عن الآخر فى نوع الثقافة ومقدارها : فمثلا الإمام مالك متأثر ببيئة المدينة حيث كان يسكن رسول الله ، ومخالف للصحابة الذين كانوا يعيشون حوله ، وكان يقدرهم تقديراً كبيراً حتى جعل الإجماع الذى يعتد به هو إجماعهم . ووجوده فى المدينة مكنه من معرفة الأحاديث الصحيحة التى اعتمد عليها فى كتابه الموطأ . ولكن من ناحية أخرى ، كان وجوده هذا فى المدينة سبباً فى عدم اطلاعه على المدنيات الأخرى ومعاملاتها وجناياتها ، كالتى اطلع عليها أبو حنيفة فى العراق والشافعى فى مصر . والشافعى مثلا تلميذ الإمام مالك ، ومتأثر به ، ومطلع أكثر من الإمام مالك على المدنيات الأخرى التى رآها فى مصر والعراق ، ومما امتاز به اهتداؤه إلى علم الأصول ووضعه له ، ثم استنباطه الأحكام على وفقه ، مما لم يصل إليه إمام آخر.

ولذلك كان مذهبه أكثر المذاهب انطباقاً على المنطق بعكس الأئمة الآخرين ، فإنهم كانوا يعتمدون على فهمهم لآيات الأحكام وأحاديثها ، وكان الاستنباط كالملكات فى نفوسهم ، فجاء الشافعى ، فوضع تلك الأصول والتزمها والشافعى كما تدل عليه رسالته فى الأصول يقدِّر السنة تقديراً عظيما ، لأنها فى كثير من الأحوال مبينة للكتاب ، مفصلة لمجمله . وقد نفعه فى ذلك دراسته الموطأ على الإمام مالك ، وملاقاته مشاهير المحدثين فى بغداد ومصر .

وملخص منهجه أنه إذا عرض له أمر ، بحث عنه فى الكتاب ، فإن لم يجده بحث عنه فى السنة ، وإذا وجده فى الكتاب مجملا ، بحث عنه فى السنة مفصلا . ولذلك يجعل الشافعى العلم بالسنة فى مجموعها فى مرتبة القرآن ، ويعنى بذلك الحديث الذى ثبتت صحته ، إذ قيَّد السنة التى فى مرتبة القرآن بالسنة الثابتة ، فإذا لم يجد الحكم فى كتاب ولا سنة اتجه إلى الإجماع ، فإن لم يجد إجماعاً ، التجأ إلى القياس . وقد عنى الشافعى بدرس القياس وتحديده ، وقد حدده بالمثال ، ووضع قواعد معينة لاستعمال القياس .

أما أبو حنيفة فقد تشدد فى الحديث الذى يقبله ، ولذلك قل اعتماده على الأحاديث كما ذكرنا ، واضطره ذلك إلى التوسع فى القياس ، لأنه إذا لم يكن فى المسألة المعارضة حكم فى الكتاب ولا فى السنة ، اضطر إلى أن يلجأ إلى القياس ، فتوسع فيه أكثر من باقى الأئمة .

وأما أحمد بن حنبل ، فقد توسع فى الحديث ما شاء الله أن يتوسع ، فلم يعتمد على القياس إلا قليلا ، ولم يتصور إجماعاً غير إجماع الصحابة.

وبجانب هؤلاء الأئمة الأربعة كان هنالك أئمة يتجهون اتجاهات مخالفة بعض الشىء . فمنهم من كان ينكر الحديث بتاتاً ، وقد حكى ذلك عنهم الإمام الشافعى نفسه فى الأم . وأئمة رفضوا القياس بتاتاً ، ولم يعتمدوا إلا على النص . حكى عنهم ذلك الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » ، كما فعل أهل الظاهر ، فأهل الظاهر

مكتبتنا العربية

يرفضون القياس ولا يعتمدون إلا على النصوص. ويعتبرون أن النص إذا ذكرت علته، كان أخذ الحكم من هذه العلة بناء على النص لا بناء على القياس. ومع اعتمادهم جميعاً على الأصول الأربعة، وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فإنهم واجهوا مسائل اضطروا فيها إلى الرجوع إلى العدالة، كما يقررها العقل، وهى التى كان يسميها القانون الرومانى بقانون الطبيعة. وسماها كل إمام باسم خاص. فسماها بعضهم استحسانا، وسماها بعضهم استصلاحاً، وسماها بعضهم المصالح المرسلة.

وقد تعسف بعضهم فأرجعها إلى القياس، وسماها قياساً خفياً، مع أن العقل غير المتعسف يرى أنها ترجع إلى طبيعة المشرع فى تقويم العدالة. وليست من قبيل القياس المعروف.

فنرى من هذا أن مناهج الفقهاء تكاد تكون متقاربة، لأن اختلافها إنما هو فى التفصيلات لا فى الأسس، على أنا لا ننكر أن السياسة لعبت دوراً كبيراً عند بعض الفقهاء، وأثرت فى بعض آرائهم، فمثلا كان الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ رجلا كبير النفس، واسع العلم، ومع ذلك كان كثير الاتصال بالأمويين. فكان يسهل أحكامهم، ويمهد الأمور لسلطانهم. وربما كان يرى أن مسالمتهم وعدم الخروج عليهم، مما يجمع أمر المسلمين، ويوحد كلمتهم. وكان كثيرون يرون أن سوء العقيدة مع العمل والقوة خير من صحة العقيدة مع الضعف والظلم.

أما فى الدولة العباسية فتدخلهم فى التشريع ظاهر أكثر من ظهور ذلك فى الدولة الأموية، فأولا رويت الأحاديث الكثيرة عن عبد الله ابن عباس، وأعلى شأنه كثيراً، وثانياً ظهر فى التشريعات أشياء كثيرة، تخدم سياستهم التشريعية، كالتشديد على النصارى بلبس الزنار، وتميزهم بالملابس الخاصة، يدرك ذلك من دقق النظر فى كتاب «الخراج» لأبى يوسف. وهذا التدخل السياسى فى التشريع هو الذى كان السبب فى رفض كثير من الأئمة تولى القضاء، وإن عذبوا وأهينوا، لأنهم متى قبلوا القضاء، فقد خضعوا للسلطة السياسية، وجاروها، وعملوا حسب رأيها.

على كل حال قد أفاد هؤلاء المشرعون بمناهجهم الإسلام فائدة كبيرة. والذى يريد أن يدرس فلسفة المسلمين الأصيلة وبعد نظرهم، وجدهم المضنى، فليدرس المشرعين وتاريخهم، وفقههم، وأصولهم، فهنا يجد الإصالة التامة، حيث لا يجد ذلك فى دراسته للفلسفة والفلاسفة المسلمين، فإنها تقليد لليونانيين، وليس فيها من الإصالة ما للمشرعين. ولو ظل باب الاجتهاد مفتوحا طول العصور، لرأينا العجب العجاب من نمو الفقه وتطوره، مما يناسب كل عصر؛ ولكنهم جازاهم الله على عملهم، ضيقوا فى الدين واسعا، وحرموا على أنفسهم ما أحله الله. فكان كلام الخلف ليس إلا ترديداً لما قاله السلف. حتى فى الأمثلة.

وليسوا يبيحون لأنفسهم أن يواجهوا مسألة جدت ولم يكن لها فى الماضى نظير، ولا أن

مكتبتنا العربية

اليوم أكملت لكم دينكم

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء

قد رأينا أن تكون الآية التي نكتب عنها في العدد الأول بعد عيد الاضحى، هذه الآية الكريمة التي تعتبر أعظم ذكريات عيد الاضحى ، الذي نزلت فيه والنبي صلى الله عليه وسلم يحج بالمسلمين حجة الفريضة وهي حجة الوداع التي لبي بعدها نداء ربه.

والكلام عليها يتقاضانا نظرتين : إحداهما في تصوير الوقت والحال اللتين نزلت فيهما . وثانيتهما في بيان المراد من إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضاء الله الإسلام ديناً للمؤمنين .

وقياما بحق النظرة الأولى يجدر بنا أن نرجع إلى الوراء ونشير في إجمال إلى مراحل الدعوة المحمدية من جهة البيان والتشريع . ومن جهة النفوذ وإقرار السلطان .

بدأت الرسالة المحمدية بدعوة الناس إلى الإيمان بالله ، وتطهير القلوب من الشرك والوثنية ، وعبادة ما لا يسمع ولا يبصر ، وإلى الإيمان بالوحي الذي ينظم به الله حياة الإنسان منفرداً ومجتمعاً ، ويرسم له طرق القرب إليه ، ويجمع هذا الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين ، وإلى الإيمان باليوم الآخر ، يوم البعث والجزاء الذي يحاسب فيه المرء على ما قدم من خير أو شر ، والذي يخلق في الإنسان . معنى الضمير

يقدروا عمل الزمان في تغيير الأحداث والأحكام ، فنحن أحوج ما نكون إلى طائفة مجهدة تماشي العصر ، وتشرع للزمان .

لقد ملىء العالم بانقلابات خطيرة في الصناعة ، كالطيارات والغواصات والقطارات ، والقنابل الذرية ، والراديو والتليفزيون ، وغير ذلك من آلاف المخترعات ، وكلها تتطلب تشريعات جديدة ، فمثلا الطائرات تقتضي بحثا في مدى ملكية الأمة اسمائها ، وهل يجوز لطائر من أمة أن يطير بطائرته في سماء أمة أخرى من غير إذنها ، ونحو ذلك من مشاكل . وكثيرا ما كان الشيخ محمد عبده رحمه الله يستفتى في مسائل جديدة تواجه المسلمين ، كلبس البرنيطة وإيداع المال في صناديق التوفير ، وأكل ذبائح النصارى ، ونحو ذلك ، فكان يجتهد ، ويشنع عليه في اجتهاده . ولولا اجتهاده هذا لحار المسلمون في أمرهم .

أما هذا الجمود ، وإغلاق العين عما يحصل ، فنتيجته إهمال الساسة الفقه الإسلامي ، والاتجاه إلى غيره من القوانين الغربية . كما حدث في عهد الخديو إسماعيل ، فقد روى أنه طلب من جمهرة من العلماء أن يجمعوا له الاحكام من سائر المذاهب المختلفة ، ولا يتقيدوا بمذهب واحد ، وأن يعدلوا عن بعض المسائل في مذهب إلى غيرها أصلح منها في مذهب آخر ، فلم يقبلوا ، فاضطر إلى التشريع على أساس القانون الفرنسي ، وإنشاء المحاكم الأهلية . فكان ذلك ضربة كبرى على التشريع الإسلامي .

ولو كان مصطفى كمال قد رأى من علماء المسلمين مرونة واجتهاداً ما التجأ إلى القوانين الأوربية ينقلها بحذافيرها من غير مراعاة لوطنه .

ومن هذا نرى أننا نحتاج إلى ثورة فقهية ، وثورة أدبية بجانب الثورة السياسية والله الموفق .

أحمد أمين

مكتبتنا العربية

اليوم أكملت لكم دينكم

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء

قد رأينا أن تكون الآية التي نكتب عنها في العدد الأول بعد عيد الاضحى، هذه الآية الكريمة التي تعتبر أعظم ذكريات عيد الاضحى ، الذي نزلت فيه والنبي صلى الله عليه وسلم يحج بالمسلمين حجة الفريضة وهي حجة الوداع التي لبي بعدها نداء ربه.

والكلام عليها يتقاضانا نظرتين : إحداهما في تصوير الوقت والحال اللتين نزلت فيهما . وثانيتهما في بيان المراد من إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضاء الله الإسلام ديناً للمؤمنين .

وقياما بحق النظرة الأولى يجدر بنا أن نرجع إلى الوراء ونشير في إجمال إلى مراحل الدعوة المحمدية من جهة البيان والتشريع . ومن جهة النفوذ وإقرار السلطان .

بدأت الرسالة المحمدية بدعوة الناس إلى الإيمان بالله ، وتطهير القلوب من الشرك والوثنية ، وعبادة ما لا يسمع ولا يبصر ، وإلى الإيمان بالوحي الذي ينظم به الله حياة الإنسان منفرداً ومجتمعاً ، ويرسم له طرق القرب إليه ، ويجمع هذا الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين ، وإلى الإيمان باليوم الآخر ، يوم البعث والجزاء الذي يحاسب فيه المرء على ما قدم من خير أو شر ، والذي يخلق في الإنسان . معنى الضمير

يقدروا عمل الزمان في تغيير الأحداث والأحكام ، فنحن أحوج ما نكون إلى طائفة مجهدة تماشي العصر ، وتشرع للزمان .

لقد ملىء العالم بانقلابات خطيرة في الصناعة ، كالطيارات والغواصات والقطارات ، والقنابل الذرية ، والراديو والتليفزيون ، وغير ذلك من آلاف المخترعات ، وكلها تتطلب تشريعات جديدة ، فمثلا الطائرات تقتضي بحثا في مدى ملكية الأمة اسمائها ، وهل يجوز لطائر من أمة أن يطير بطائرته في سماء أمة أخرى من غير إذنها ، ونحو ذلك من مشاكل . وكثيرا ما كان الشيخ محمد عبده رحمه الله يستفتى في مسائل جديدة تواجه المسلمين ، كلبس البرنيطة وإيداع المال في صناديق التوفير ، وأكل ذبائح النصارى ، ونحو ذلك ، فكان يجتهد ، ويشنع عليه في اجتهاده . ولولا اجتهاده هذا لحار المسلمون في أمرهم .

أما هذا الجمود ، وإغلاق العين عما يحصل ، فنتيجته إهمال الساسة الفقه الإسلامي ، والاتجاه إلى غيره من القوانين الغربية . كما حدث في عهد الخديو إسماعيل ، فقد روى أنه طلب من جمهرة من العلماء أن يجمعوا له الاحكام من سائر المذاهب المختلفة ، ولا يتقيدوا بمذهب واحد ، وأن يعدلوا عن بعض المسائل في مذهب إلى غيرها أصلح منها في مذهب آخر ، فلم يقبلوا ، فاضطر إلى التشريع على أساس القانون الفرنسي ، وإنشاء المحاكم الأهلية . فكان ذلك ضربة كبرى على التشريع الإسلامي .

ولو كان مصطفى كمال قد رأى من علماء المسلمين مرونة واجتهاداً ما التجأ إلى القوانين الأوربية ينقلها بحذافيرها من غير مراعاة لوطنه .

ومن هذا نرى أننا نحتاج إلى ثورة فقهية ، وثورة أدبية بجانب الثورة السياسية والله الموفق .

أحمد أمين

مكتبتنا العربية

الدينى الذى يحول بينه وبين ارتكاب الفسوق والعصيان ، إن لم يكن خوفا من جلال الله وجماله ، فطمعاً فى وعده وثوابه ، أو خشية من غضبه وعقابه ، وبالدعوة إلى مكارم الأخلاق التى تحقق معنى الإنسانية الفاضلة التى تربط الناس بروابط المحبة والرحمة والتعاون والتواصى بالحق والتواصى بالصبر . وما إلى ذلك من الخلال التى تفتح للناس أبواب الخير والسعادة ، وتسد دونهم منافذ الشر والشقاء .

عنى الرسول (ص) وهو فى مكة بتطهير الباطن وإصلاح النفوس عن هذا الطريق حتى إذا ما كمل له ذلك تتابع عليه الوحى بالتشريعات العملية ، التى تنظم الأسر ، وتنظم شئون المجتمع ، وتحفظ كيان الدولة من التأثر بمكائد الأعداء وعدوانهم على الحق والفضيلة . وقد هاجر فى سبيل ذلك إلى المدينة التماساً للتربة الخصبة التى ينمو فيها غرسه ، ويثمر ثمراته الطيبة ، وما زال يجاهد ويكافح حتى هيأ الله له فتح مكة ، فعاد إليها هو وصحبه بعد أن أخرجوا منها ، ودخلوا المسجد الحرام بعد أن صدوا عنه ، وحالفهم نصر الله وتأييده فيما حصل بعد الفتح من وقائع وحروب حتى كانت السنة التاسعة من الهجرة فأمر عليه الصلاة والسلام صاحبه أبا بكر على المسلمين فى أداء فريضة الحج لأول مرة يؤدونها بصفة عامة بعد أن خلص لهم السلطان على مكة وعلى مشاعر الحج كلها ، وكانت فلول المشركين المتفرقة فى شبه الجزيرة لا تزال تقصد بيت الله الحرام لتؤدى مناسكها على منهاجها الجاهلى : شرك فى السجود ، شرك فى التلبية ، عُرى فى الطواف .

ولذلك كان من غير الممكن ان يخرج الرسول وهو مقوّض دعائم الشرك والوثنية ، والداعى إلى التوحيد ، والمكلف من قبل ربه بتطهير البيت من نداء غير الله ، ومن مخالفة أوامر الله ، وبالتزام المناسك التى شرعها الله . فكان لابد من العمل أولا على تطهير البيت من هذه العبادة الشركية التى زل بها العقل البشرى ، وأودت بكرامة الانسان ، والتى كانت فى حقيقتها ومعناها تمثل بما لها من تقاليد فاسدة ، وعادات منكرة أفحش نظام عرفه البشر إلى يومنا هذا ، كان فيه وأد البنات وإكراههن على البغاء ، وعضلهن عن التزوج طمعا فى مالهن ، كان فيه استغلال حاجة المحتاجين فى أقبح صور الاستغلال ، كانت فيه الإباحة الخلقية والجنسية إلى غير حد تخجل منه الانسانية . ولاريب أن الشرك بما يحمل فى طياته من هذه الشرور والمآثم ثورة جامحة على الإيمان وما يحمل فى طياته من خير وصلاح . وليس من المعقول أن يبقى منبع الشر إزاء منبع الخير العام ، وإلا اضطرب الخير واستهدف لتيارات الشرك ، والتوت به طرق الهدى والصلاح .

كما أنه ليس من المعقول وقد وقف المشركون مع المؤمنين الموحدين هذه المواقف الشديدة التى قصها التاريخ علينا - والتى كان منها صدهم عن المسجد الحرام ، والسخرية منهم فى عبادة الواحد ، - أن يتركوا ينشرون غازاتهم السامة فى جو الإيمان الطاهر النقى ، ومن ذلك كان لابد أن يسبق خروج النبى لأداء فريضة الحج عملية

مكتبتنا العربية

التطهير والقضاء على مظاهر الفساد ، وانتزاع أصول الشر حتى تسلم الكلمة لله ، ولأولياء بيته الحرام ، وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ،

ولهذا اقتضت الحكمة أن يخرج أبو بكر رضى الله تعالى عنه فى السنة التاسعة على رأس المسلمين لتأدية فريضة الحج ، ولم يكد يصل إلى أماكن المناسك حتى نزلت أوائل سورة براءة تعلن كلمة الإسلام النهائية فى علاقة المشركين بمكة وفى زيارة بيت الله الحرام ، فيرسل النبى صلى الله عليه وسلم ابن عمه عليا ليبلغ الناس عنه هذه الآيات ويؤذن بها فيهم يوم الحج الأكبر ، فيلحق علىٌ بأبى بكر ويجتمع بالناس فى يوم النحر عند جمرة العقبة بمنى ، وينادى : يا أيها الناس إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم ، فيقولون : بماذا ؟ فيقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية هى أوائل سورة التوبة ، ومنها : إعلان التصفية النهائية بين أهل التوحيد والشرك ، وبين أهل العدل والظلم ، وبين أهل الوفاء والخيانة ، وفيها رفع العصمة عن المشركين فى أنفسهم وأموالهم ، وقطع ما بينهم وبين الله من صلات ، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، ، ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ،

، يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ، إن شاء إن الله عليم حكيم ، . وفى هذه الآيات الإهابة بالمؤمنين إلى قطع ما بينهم وبين المشركين من ولاية القربى وصلات الرحم ، إيثارا للحق على الباطل ، وإيثارا لرضا الله عن مقتضى العاطفة والهوى فتسلم الدعوى ، ولا ينفذ إلى صفوف المسلمين شىء من عوامل التفرق والانقسام .

، يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ، . ثم لا يفوت الآيات وهى تركز للمؤمنين شأنهم وتضع لهم قواعد العز والسيادة ، أن تحذرهم من مجاراة غيرهم فى الاغترار بزخارف الدنيا وأكل أموال الناس بالباطل ، والضن بإنفاقها فى سبيل الله ، فتوجه إليهم هذا الخطاب المصحوب بالإنذار الشديد لمن يسلك منهم هذا السبيل ، يا أيها الذين

مكتبتنا العربية

آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هـــذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

يتلو علىّ هذه الآيات على حجاج بيت الله مسلمهم ومشركهم إنذاراً وتحذيرا ، وتعليما وإرشاداً ، ثم يقول : أمرت بأربع : لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته . وبذلك التبليغ أعلنت حكمة الإسلام النهائية فى شبه الجزيرة ، وتمت التصفية بين الشرك والإيمان ، وتركزت قوى الخير ، وولت قوى الشر ، مبعثرة فى الفيافى والقفار تتوارى من ضغط الحق وسلطانه . وقد أثمر هذا التبليغ ثمرته الطيبة المباركة من الجهة الإيجابية ، فلم يكد يرجع الناس إلى بلادهم وينتشر بواسطتهم أمر هذا التبليغ ، ويصل إلى أطراف البلاد ، حتى ازدحمت المدينة بوفود القبائل الباقية على الشرك ، معلنة إسلامها وانضواءها تحت راية التوحيد والعدل . وبهذا تمت حكمة ربك للموحدين ، وهكذا يفعل الحزم ، وتفعل أوامر الحازمين ، القادرين على تنفيذ ما رسموا لصالح الإنسانية ، وحسبهم أن يعلنوا أمرهم ، وإن فى إعلان الأمر من المؤمن الحازم لأعظم غناء عن توقيع العقوبة التى يكفى إعلانها فى تطهير الجو من أسبابها .

بهذا شرح الله صدر رسوله ، واطمأن قلبه على أن بلغ رسالة ربه ، وتوجهت نفسه الكريمة إلى زيارة البيت الحرام ، ليقدم الشكر والقربان بنفسه ، ويتعلق بأستار مولاه الذى نصره وأعزه وعصمه ، حتى أوفى على الغاية ، وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بعد أن أدى رسالة ربه ، وقام بمهمته ، أن يعود فيقف بين يدى مولاه واضعاً نفسه تحت أمره وتصريفه ، فيخرج على رأس جمع من المسلمين ، ويحرم للحج ، وينطلق صوته بالتلبية : لبيك اللهم لبيك . لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . ثم يطوف بالبيت ويستلم الحجر الأسود ، ويصلى ركعتين عند مقام ابراهيم الذى كان البيت أثراً من آثاره ، وكانت بعثة الرسول صـــلى الله عليه وسلم أثرا من آثار دعوته « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » . ثم يسعى بين الصفا والمروة ويقول كلما صعد الصفا : « لا إله إلا الله

مكتبتنا العربية

الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ثم يتوجه إلى عرفات ويقف على رأس الحجيج خاشعا ضارعا ، وداعيا ملبيا ، وفى هذه الوقفة التاريخية فى حياة الإسلام خاصة ، وفى حياة الإنسانية جميعا ، يقف محمد وقد بلغ ما أراد الله بصبره وجهاده وإخلاص المؤمنين معه ، فيخطب الناس هذه الخطبة الجامعة التى توج بها تبليغه لرسالة ربه وأحكام دينه ، وكان مما جاء فيها :

أما بعد أيها الناس ، اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

أيها الناس . إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم حرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

أيها الناس . إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس . إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حقا ، ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

أيها الناس . إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله . ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

وهكذا أخذ يلقى عليهم ما يفيض الله به عليه من مبادىء الحياة الطيبة ، والسعادة الخالدة ، ومعانى العزة والكرامة . وأين من هذه الخطبة وما احتوت عليه من حقوق الإنسان ما يطنطن به اليوم قادة الشعوب ، وفلاسفة الاجتماع مما يسمونه « حقوق الإنسان » ، ويعقدون لبحثها المؤتمرات ، وتهتز بها الأسلاك ، والإنسان هو الإنسان منه الظالم الفاتك ، والمتجبر الطاغى ، والغنى السكنود ، منه المظلوم الضعيف ، والمستخذى أمام الجبروت ، والمتضور جوعا يلتحف السماء ويفترش الغبراء .

هذه هى حقوق الإنسان ، كما رسمها الله لنبيه محمد ، وأعلنها منذ أربعة عشر قرنا فعليهم إن كانوا جادين فى قيادة الشعوب إلى الرخاء والسلم أن يتدبروها ، وأن يعلنوها للناس مرة أخرى بنصها وأبحاثها ، مقترنة بالعزيمة الصادقة ، والقوة الحازمة ، فينعم الناس بخيرها ، وتذكرهم الإنسانية عند ربها ، ويكونوا بحق « قادة الأمم

مكتبتنا العربية

والشعوب ، وبدون هذا سيظلون يخطبون ويسكتون ، ويجتمعون وينفضون ، ولا رائد لهم سوى مصالحهم الشخصية . أو الجنسية ، والإنسان هو الإنسان ، منه الظالم ومنه المظلوم .

فى هذا الجو الذى اتصلت به رحمة السماء بالأرض ، وكثر فيض الله على عبده محمد ، بما ينظم به الناس حياتهم ، ينزل عليه قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » . وفيها يروى أئمة الحديث أن اليهود قالوا لعمر : إنكم تقرءون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود أنزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال عمر : وأى آية ؟ قالوا : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » ، قال عمر : إنى والله لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه والساعة التى نزلت فيها ، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة ، والحمد لله الذى جعله لنا عيدا واليوم الثانى يوم النحر .

هذه هى النظرة الأولى التى تصور لنا الوقت والحال اللتين نزلت فيهما الآية الكريمة . وبها يتبين أنها نزلت بعد أن تمت مراحل الجهاد المحمدى فى نشر الدعوة وتبليغ الرسالة ، وبعد أن تغلغلت هذه الدعوة فى قلوب من وصلت إليهم ودخلوا بها فى دين الله أفواجا ، وبعد أن توج محمد رسالة ربه بهذه الخطبة الجامعة لكثير من الأحكام والشرائع التى لابد منها فى سعادة الناس ، وطيب حياتهم وحصولهم على رضا الله وقبوله . ونحن إذا نظرنا إلى الآية التى قبلها وهى قوله تعالى : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون » ، ونظرنا إلى السورة التى نزلت فيها لوجدنا شواهد تعيين الوقت والحال اللتين نزلت فيها الآية بينة واضحة ، وكثيرة متعددة . فالآية التى قبلها تقرر يأس المشركين من أطماعهم فى فتنة المسلمين عن دينهم ، وفى وقوف دعوتهم ، وفى رجوعهم إلى ماهم فيه من الشرك والوثنية ، وعبادة غير الله ، والسورة من جهة أخرى تعنى عناية تامة بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين خاصة فى ستة عشر موضعاً ، تقرر فى كل نداء حكما من الأحكام ومبدأ من المبادىء التى يأخذ المسلمون بها أنفسهم فى خاصة حياتهم ، وفى علاقتهم بمن يجاورون من أهل الكتاب ، ولا تعرض فى شىء مما اشتملت لذكر الشرك والمشركين ، كما لا تعرض لذكر قتالهم ، ولا معاملاتهم ، ولا ريب أن كل ذلك مما يدل دلالة واضحة على أن الجو الذى نزلت فيه هذه الآية « اليوم أكملت لكم دينكم » هو جو القوة والسيطرة العامة ، وخلوص الأمر للمسلمين ، والبلوغ برسالة الله إلى أقصاها . ومن هنا كان يوم نزولها عيداً عند المسلمين وأى عيد ؟ يذكرون بها فضل الله عليهم فى التمكين والتشريع .

أما النظرة الثانية وهى النظرة الجوهرية المتعلقة بمعنى إكمال الدين وإتمام النعمة ، فموعدنا بها العدد المقبل إن شاء الله ،

محمود شلتوت

مكتبتنا العربية

جهود الفقهاء فى التشريع

لصاحب الفضيلة الاستاذ عبد الوهاب خلاف
أستاذ الشريعة بكلية الحقوق

أول ما يسترعى النظر من تاريخ المسلمين فى فجر الإسلام أن كل مسلم كان يعد نفسه مجندا لخدمة الإسلام والمسلمين فى الميدان الذى يشعر أنه أهل للقيام بالواجب فيه . وكان كل مسلم جنديا فى ميدانه متطوعا يقوم بواجبه يوازع من دينه وضميره لا بتكليف من غيره . وبهذا الشعور كانت ميادين العمل وكل مصالح الدولة مليئة بالعاملين . ولم يخل ميدان من ميادين الإصلاح والنهوض من أيد مجندة تتسابق فيه . وبهذا خطت الدولة الإسلامية فى سنوات قليلة خطوات بعيدة المدى فى ميادين المجد السياسى . والعلمى . والاقتصادى . فبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم شعر المسلمون أن عليهم واجبا أن ينشروا دعوته . وأن يواصلوا سعيه وجهوده لإعلاء كلمة التوحيد وهداية الناس بهدى الإسلام .

فأهل البسالة والقوة والحرب والقتال منهم تجندوا فى ميدان الغزو والجهاد وكونوا الجيوش الإسلامية لدعوة الناس إلى الإسلام والدفاع عن المسلمين . وأهل العلم والفقه والقرآن والسنة منهم تجندوا فى ميدان الاجتهاد والاستنباط والتشريع والتقنين . وأهل الولاية والإمارة والسياسة منهم تولوا تدبير الشئون الإدارية والمالية فى الأمصار . وكل من آنس من نفسه أهلية وكفاءة للقيام بواجب الإسلام والمسلمين تصدى للقيام به ، حتى كانت نهضة المسلمين فى القرون الهجرية الأول والثانى والثالث ظاهرة عجيبة حار فى تعليلها المؤرخون وبلغ المسلمون فيها إلى غاية فى المجد السياسى والعلمى والمالى لم تبلغها دولة غيرها . وكانت فتوح الجيوش فى الاستيلاء على البلدان وفى بسط السلطان يسايرها فتوح علماء الفقه والتشريع فى الاجتهاد والتقنين ، وفتوح الولاة والأمراء فى تنمية موارد الدولة ووفرة الثراء . وكان الانتصار فى كل ميدان من هذه الميادين انتصارا فى الميادين كلها . وقادة كل ميدان يشعرون أنهم أعوان متضامنون مع قادة الميادين الأخرى .

يتجلى هذا من النظرة فى تاريخ المسلمين بعد وفاة الرسول ، ففى ميدان الغزو والجهاد كانت جيوش المسلمين تواصل فتوحها بقيادة أبى عبيدة وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص وعمرو بن العاص ويتلقى راية القيادة قائد بعد قائد ، حتى وصل عبد الله بن عامر والى البصرة وقتيبة بن مسلم شرقا إلى حدود الصين ، ووصل موسى بن نصير وطارق بن زياد غربا إلى جبال أسبانيا ، واستولى المسلمون على جزر البحر الأبيض المتوسط وصار هذا البحر بحيرة إسلامية .

مكتبتنا العربية

وهذه الفتوح السياسية كانت تسايرها فتوح تشريعية وحركة اجتهادية بقيادة الخلفاء الراشدين وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ثم سعيد ابن المسيب وأقرانه بالمدينة . وبقيادة عبد الله ابن عباس ثم تلاميذه بمكة . وبقيادة عبد الله ابن مسعود ثم تلاميذه بالكوفة . وعبد الله ابن عمرو بن العاص ثم تلاميذه بمصر . وكانت ميادين الغزو عامرة بالانتصار تلو الانتصار . ومساجد الأمصار عامرة بالعلم والفقه والتشريع والاستنباط ، فقادة الجيوش بسطوا سلطان الإسلام ورفعوا رايته على كثير من البلدان ، وقادة التشريع سدوا حاجات المسلمين وسايروا مصالحهم ، وأقاموا البراهين على أن الإسلام لا يضيق بحاجة ولا يقصر عن مصلحة وأنه كلما اتسعت فتوح المسلمين اتسع التشريع الإسلامى وان اختلفت الأجناس والبيئات والنظم والمعاملات وإن نمت موارد الدولة وزاد ثراؤها . وبهذا التعاون والتضامن بين جيوش الميادين الثلاثة عزت الدولة ونهضت وتوافرت لها الدعامات التى تقوم عليها نهضة الأمة وهى : القوة والعلم والمال .

وهذه كلمة موجزة فى ميدان التشريع الإسلامى وبعض جهود الأئمة المجتهدين فيه .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته مرجع المسلمين فى جميع شؤونهم الدينية يستفتونه فى وقائعهم ويسألونه عما يعرض لهم . ويقضى بينهم فى خصوماتهم . ولما توفى لم يكن أصحابه كلهم أهلا للفتيا . ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم بل كان فيهم الخاصة العارفون بالقرآن والسنة الفاهمون روح التشريع بما تلقوه من رسول الله وما شاهدوه من قضائه وفتاويه . وفيهم العامة الذين يحتاجون إلى من يستفتونه ويسألونه . وكذلك لم يكن القرآن مدوناً ومنشوراً بحيث يتيسر لكافة المسلمين الرجوع إليه، بل كان مدوناً فى صحف محفوظة عند أبى بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة . والسنة لم تكن مدونة أصلا . وقد حدثت للمسلمين بعد الرسول وقائع ووقعت حوادث لا نص على أحكامها فى القرآن أو السنة ، لهذه الأسباب رأى علماء الصحابة أن عليهم واجباً تشريعيا أن يخلفوا رسول الله فى إفتاء المسلمين والقضاء بينهم وأخذ الدين عنهم ، فتصدوا لبيان نصوص القرآن والسنة ، والإفتاء فيما لا نص فيه. ولم يكتسبوا هذا السلطان التشريعى من تعيين من الخليفة أو انتخاب من الأمة ، وإنما كسبوه بما امتازوا به من طول صحبتهم الرسول وحفظهم القرآن وروايتهم السنة ومشاهدتهم كثيراً من أقضية الرسول وفتاويه ومن مواهبهم فى العلم والفهم ، فلهذه المميزات تصدروا لتولى السلطة التشريعية ودان المسلمون لهم بهذا وتفرقوا فى أمصار المسلمين لأداء هذا الواجب التشريعى فكان فى كل مصر إسلامى رءوس من الصحابة هم مرجع الولاة والأفراد والجماعات فى معرفة حكم الشريعة فيما يعرض وما يحدث من الوقائع وفى كل مصر التف حول من فيه من أهل الفتيا من الصحابة رءوس من التابعين أخذوا عنهم القرآن ورووا عنهم السنة ومارسوا

مكتبتنا العربية

استنباطهم الأحكام فيما لا نص فيه وخلفوا الصحابة فى القيام بهذا الواجب وتصدوا لإفتاء المسلمين والتشريع فيما يعرض لهم . والتف حول أهل الفتيا من التابعين رءوس من تابعى التابعين أخذوا عنهم علمهم وفقههم وتصدوا للتشريع والتقنين . وعن هؤلاء أخذ الأئمة المجتهدون فى القرنين الهجريين الثانى والثالث ، فكان رجال التشريع فى الأمصار يخلف خلفهم سلفهم ، وبعد كل طبقة منهم تلاميذ لمن قبلهم وأساتذة لمن بعدهم ، والمسلمون واثقون بهم ويأخذون عنهم طيبة نفوسهم وما شعر مسلم بقصور شريعته عن مصلحة من مصالحه . وماضاقت هذه الشريعة عن حاجات المسلمين مع تعدد أجناسهم وبيئاتهم وبلدانهم ومع تعدد ماخلفته امبراطورية الفرس والرومان من نظم وعقود ومعاملات .

ففى المدينة أشهر أساتذة التشريع من الصحابة عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله ابن عمر وزيد بن ثابت . وأشهر تلاميذهم من التابعين ، سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وسائر فقهاء المدينة السبعة وأشهر تلاميذ هؤلاء ، محمد بن شهاب الزهرى ويحيى بن سعيد . وأشهر تلاميذ هؤلاء ، مالك بن أنس وأقرانه ، وفى مكة أشهر أساتذة التشريع من الصحابة ، عبد الله بن عباس وأشهر تلاميذه من التابعين عكرمة وعطاء ومجاهد ، وأشهر تلاميذهم سفيان ابن عيينة ومفتى الحرم مسلم بن خالد . وأشهر تلاميذ هؤلاء محمد بن إدريس الشافعى .

وفى الكوفة أشهر أساتذة التشريع من الصحابة عبد الله بن مسعود وأشهر تلاميذه ، علقمة بن قيس وسعيد بن جبير والقاضى شريح . وأشهر تلاميذهم ، إبراهيم النخعى وأشهر تلاميذه حماد ابن أبى سليمان أستاذ أبى حنيفة وأصحابه .

وفى مصر أشهر أساتذة التشريع من الصحابة ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأشهر تلاميذه مفتى مصر يزيد بن حبيب ، وأشهر تلاميذه الليث ابن سعد وأقرانه من بنى عبد الحكم . وأشهر من خلفهم محمد بن إدريس الشافعى فى المرحلة الأخيرة من حياته ، وكذلك كان فى دمشق وبغداد وفى كل من أمصار المسلمين أئمة للتشريع من الصحابة والتابعين وتابعيهم وتلاميذهم ومن هذا يتبين أن كل مصر من أمصار المسلمين كانت فيه مدرسة تشريعية ، وأن الأئمة الأربعة المجتهدين كانوا فى أمصارهم تلاميذ لمن سبقوهم وفروعا من شجرة تشريعية أصلها من رءوس الصحابة والتابعين.

وما كان الاجتهاد والتشريع فى طبقة الأئمة الأربعة خاصا بهم ، وإنما كان لهم أقران اجتهدوا وأفتوا واستنبطوا ، كما اجتهد الأئمة الأربعة واستنبطوا. ولكن لم يقدر لفقههم واستنباطهم الذيوع والتدوين والبقاء وكثرة الاتباع كما قدر لفقه الأئمة الأربعة . من أولئك الأعلام عبد الرحمن الأوزاعى إمام أهل الشام . والليث بن سعد إمام أهل مصر . وأبو داود الظاهرى وسفيان الثورى ومحمد بن جرير الطبرى وأقرانهم .

وأهم العوامل التى توافرت للأئمة الأربعة وجعلت من جهودهم التشريعية فتحا مبينا وآثاراً خالدة هى ما يأتى :

مكتبتنا العربية

أولا ـ أن الأئمة الأربعة كانوا فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، وهذا هو العهد الذهبى للدولة الإسلامية الذى اتسعت فيه رقعة الدولة وامتدت الفتوح شرقا وغربا ودخل فى الإسلام وفى رعاية الدولة الإسلامية شعوب وأمم وبلدان مختلفة النظم والعادات والمعاملات ، كثيرة المصالح والحاجات، فكان لابد من جهود تشريعية تساير هذا النهوض وتفى بهذه الحاجات . وقد بذل الأئمة الأربعة فى بيئاتهم هذه الجهود وبحثوا وشرعوا واستنبطوا ووفوا بحاجات الناس أفراداً وجماعات ووفوا بحاجات الولاة والحكام وما شعر فرد أو جماعة أو وال أو حاكم بقصور التشريع الإسلامى عن تحقيق أى مصلحة أو إقامة العدل فى واقعة مدنية أو تجارية أو جنائية أو غيرها بل استنبط الأئمة أحكاما لوقائع فرضية وخصومات محتملة فكان النشاط السياسى يساير الرأى التشريعى .

وثانيا ـ أن الأئمة الأربعة وجدوا بين أيديهم ثروة تشريعية خلفها لهم سلفهم من رجال التشريع من الصحابة والتابعين وتابعيهم ؛ فالقرآن مدوّن ومنشور بين الكافة وكذلك المأثور عن الصحابة والتابعين فى تفسيره وتأويله ، والسنة مدوّنة ، وفتاوى الصحابة والتابعين وتابعيهم متوارثة فهم انتفعوا بهذه الثروة ونموها وكملوها بما أثمرته مواهبهم وعقولهم من استنباطات اقتضتها بيئاتهم ، فبجهودهم حفظت ثروة سلفهم وبمجهودهم كملت ووفر إنتاجها .

وثالثاً ـ أن الأئمة الأربعة وجدوا فى عصر دخلت فى بلاد الإسلام فيه علوم كثيرة من علوم الفرس واليونان وغيرهما ، ودخل فى الإسلام فيه علماء كثيرون من غير المسلمين وتبادل البحث والنظر فى هذه العلوم . ومع هؤلاء العلماء توجه الفقهاء إلى الصنعة العلمية ، فبعد أن كان الفقه الإسلامى مجرد حلول جزئية وفتاوى فى وقائع من غير تعليل ولا تحليل ، اتجه الأئمة إلى تعليل الأحكام والاستدلال عليها وجمعها فى ضوابط كلية وبهذا صار الفقه علماً ذا ضوابط ووضعت فيه مصطلحات لم تكن من قبل. وصار البحث فيه بحثاً علمياً لإثبات الأحكام بأدلتها واستنباط عللها وحكمها . ولهذا عنى بتدوينه فدوّن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ، كتب ظاهر الرواية والسنة ودوّن سحنون القيروانى معاصر الإمام مالك ، المدونة فى فقه مالك بن أنس ، وأملى الإمام الشافعى فقهه فى كتاب الأم . وجمع ابن قدامة فقه أحمد فى كتابه المغنى وتتابع التدوين والتأليف كما هو الشأن فى كل علم .

ورابعاً ـ أنه فى عهد الأئمة الأربعة وجدت مدرستان تشريعيتان مدرسة الحجازيين ومدرسة العراقيين. والتنافس بين أساتذة المدرستين أنضج كثيراً من البحوث التشريعية ووسع دائرة الاستدلال . وهذه التوسعة فى الاستدلال والنظر فى الأدلة أدى إلى العناية بأصول الفقه فدون فيه أبو يوسف، ولم يصل إلينا ما دوّنه، ودوّن فيه الإمام الشافعى رسالته وهى أول مدوّن فى أصول الفقه بين أيدينا . وبهذا أخذ الفقه صبغة علمية تستند أحكامه إلى أصول وتتسع أصولها لكل جزئية .

عبد الوهاب خلاف

مكتبتنا العربية

مقارنة بين شريعة الله وشرائع الإنسان

لصاحب الفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق

١ - أرسل الله رسوله المصطفى بدين الإسلام بعد أن أدّت كل من الديانات السابقة غرضها، وصارت الإنسانية فى حاجة ملحة لدين جديد تجىء به رسالة إلهية جديدة تكون خاتمة الرسالات السماوية جميعا.

والإسلام نظام عام: عقيدة، وتشريع، واجتماع. ولا تتسع الصفحات القليلة، المخصصة من هذا العدد الخاص لهذه الكلمة، لبحث مقارن بين شريعة الله العليم الحكيم وبين شرائع الإنسان التى عرفها العالم قبل الإسلام وبعده إلا إذا كان موضوع المقارنة مسألة واحدة من مسائل الفقه الهامة.

لذلك رأينا أن نتناول أولا بالبحث الطابع العام للشريعة الإسلامية، مقارنا بما نعرف من الطابع للشرائع الوضعية؛ فإن هذا الطابع لكل شريعة هو الذى يحدد مقاصدها، وهو الذى يستلهمه الفقهاء فيما يقررون من أحكام، ومن هذه المقارنة، نعلم أن الإسلام كان فى ناحية التشريع، كما هو فى سائر النواحى الأخرى، فتحا أى فتح!.

ثم، من باب التطبيق، نبحث مظهر وأثر هذا الطابع العام لشريعة الله فى مسألة واحدة، وهى مسألة «الحق»؛ أى مدى ما لصاحبه من سلطان فى الانتفاع به واستعماله، وما يكون من تقييد الشارع له بألا يضر هذا الاستعمال الغير، مقارنين الشريعة الإسلامية فى هذه الناحية بالقانون الرومانى والقانون الفرنسى، وهذه المسألة هى ما تعرف بنظرية «سوء استعمال الحق».

٢ - لقد واجه الإسلام حين جاء دولة الروم ودولة الفرس، وفى كلتيهما كان الفساد قد بلغ مداه، وشارفت الأمة نهايتها المحتومة. وفى كلتيهما كانت القوانين والنظم العامة تهدف إلى تمكين السادة والأقوياء، على حساب الرعية والضعفاء، وبلغ الأمر إلى درجة تقديس القياصرة والأكاسرة وتقديم الرعايا لهم فروض العبادة.

أما فى دولة الروم، فقد كانت المسيحية قد تحولت من ديانة سماوية تأمر بعبادة الله وحده، إلى دين زعم رؤساؤه أن الله هو المسيح بن مريم، بل نادوا بعد هذا بعبادة القديسين معه، فلا عجب أن يكون الإمبراطور موضع تقديس وعبادة أيضا. وفى هذا يقول مؤرخ إنجليزى معروف: «وهنا التقت الكنيسة، على وجه الخصوص، وجها لوجه مع مذهب عبادة الامبراطور»[1].

وأما فى فارس، فقد كان الأكاسرة يزعمون أن دماً إلهيا يجرى فى عروقهم؛ ومن ثم كانت الرعية تنظر إليهم كأنهم آلهة، فكانت تكفّر لهم وتتحمل فى هذا السبيل مالا تطيق. والمستمع

(١) الامبراطورية البيزنطية، تأليف نورمان بينز وترجمة الدكتور حسين مؤنس وآخر، مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٥٠ ص ٩٧

مكتبتنا العربية

إلى محمد بن جرير الطبرى يقص علينا هذا الخبر ، ومنه نرى كيف كانت منزلة قائد من قواد كِسرى ـ لا كسرى نفسه ! ـ من الرعية ومنزلة الرعية منه ، حين يقول : (١)

« لما جاء المغيرة [بن شعبة] إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس ، أجلسوه واستأذنوا رُسْتم [وكان قائدهم فى حرب المسلمين] فى إجازته ... ، فأقبل المغيرة ـ وله أربع ضفائر ـ يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فنتروه وأنزلوه ومغثوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ... اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون . وإن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

٣ ـ وهذه النزعة الفردية المطلقة التى كانت تسود فى النظم الاجتماعية لدى الروم والفرس ، من قمة المجتمع إلى آخر درجاته منزلة ، تراها تسود فى نُظُمهم القانونية أيضا ؛ فما القانون ـ فى رأينا ـ إلا التقاليد والعادات العامة تتأصل فى النفوس ثم تتبلور حتى تأخذ أوضاع القانون ، أو ـ على الأقل ـ تعتبر هذه التقاليد والعادات والأعراف مصدراً له خطره من مصادر القانون . من أجل ذلك نجد القانون الرومانى (٢) فى مراحله الأولى ينبنى على فكرة استبداد صاحب الحق بما يزعمه من حقه الذى يملكه ، سواء فى ناحية الأسرة أو ناحية المعاملات . « ففى الأسرة كان لرب العائلة حقوق مطلقة على جميع أفرادها ؛ كان له حق الحياة أو الموت على زوجه وأولاده وعبيده ، فلم يكن للزوجة حقوق ولا أموال ، وكان الولد معرضا للبيع ، والعبد للترك والقتل . وفى المعاملات كان للدائن سلطة مطلقة على مدينه ، فكان المدين يباع أو يقسم بين دائنيه » (١) .

بل إن قوانين « جُستِنيان » ، وهو المشرع الرومانى الأكبر ، قد حرمت على من لم يكونوا تابعين للمذهب الرسمى للدولة ـ وهم مسيحيون مع ذلك ـ الاشتغال بالمهن الحرة ، وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة ، وجعلت وصاياهم لاغية ، ومنعتهم الحق فى أن يرثوا شيئاً من ذويهم . (٢)

٤ ـ وفى مقابل هذا الطابع الفردى المقيت للقوانين والنظم الرومانية ، نجد الطابع الجماعى للتشريع الإسلامى الإلهى . ذلك بأن الإسلام لم يجىء لإسعاد الملوك والسادة على أنقاض الشعب ؛ فهو الدين الذى لا يعرف فضلا لأحد إلا بمقدار حظه من تقوى الله ، ورسوله ينادى بأنه ليس إلا بشراً كسائر البشر ، وبأنه ابن امرأة كانت تأكل القديد ! وهو الدين الذى جاء ليحقق العيش الكريم والسعادة للفرد والمجتمع معا ، بل للإنسانية عامة ولا فرق بين عرب وعجم وبيض وسود .

(١) حـ ٤ : ١٠٨ من كتابه الكبير فى التاريخ .

(٢) نكتفى هنا فى المقارنة بالقانون الرومانى الذى أخذت عنه أكثر دول الغرب قوانينها الحديثة .

(١) الدكتور أنور سلطان ، مجلة القانون والاقتصاد ، عدد مارس سنة ١٩٤٧ ، ص ٧٧ ـ ٧٨

(٢) الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨

مكتبتنا العربية

وهذا الطابع الجماعى للشريعة الإسلامية ، له أثره ومظهره بلا ريب فى التشريع والفقه العملى أو المعاملات ، كما له أثره الواضح فيما فرض الإسلام من عبادات ، وله بعد هذا وذاك أثره القوى فى تحديد مدى ما يكون لصاحب الحق فى استعماله .

على أن من الواجب أن نضيف لذلك اعتباراً آخر . وهو أن أى قانون وضعى يعتبر حقوق الفرد حقوقا طبيعية له ، فهو يعمل على حمايتها له وتمكينه من الانتفاع بها على ما يشاء ، ما دام يتصرف فى زعمه فى خالص حقه . أما الشريعة الإلهية فتقرر من أول الأمر أن الإنسان وكل ما يملك ملك لله وحده ، والله لا يمنح الفرد ما يمنح من ملك وحق إلا ليتصرف فيه وفقاً لمقصد المشرع العليم الحكيم ، نعنى لتحقيق مصلحة الفرد والجماعة معا ، ومن ثم نجد تقييد استعمال « الحق » من نواح عديدة ، ولنضرب لذلك بعض المثل :

(ا) من حق الأب أن يشرف على تربية ولده ، وأن يؤدبهم على ما قد يكون منهم مما يستحق الأدب شرعا ، وكذلك من حق الزوج أن تطيعه زوجته وتكون تحت ولايته ، فلا تخرج من بيته بلا إذنه ولا تدخل داره أحدا لا يرغب فيه ، ولكن هذه الحقوق ، وأمثالها ، التى للأب والزوج مقيدة كلها بعدم الضرر بالأولاد والزوجة ، وإلا تدخل القضاء ، لأنه لا ضرر ولا ضرار .

(ب) للمالك الحق فى أن يتصرف فى ملكه كما يريد بأى نوع من التصرفات ، ومن ذلك البيع لمن يشاء ، ولكن الشريعة التى عنيت بتأكيد ما للجار من حقوق على جاره ، حتى جاء فى هذا كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول ، أوجبت للجار حق الشفعة فيما يبيعه جاره ، كما منعت الجار المالك - وهو مذهب الإمام مالك رضى الله عنه [1] - أن يتصرف فى ملكه تصرفا يضر ضرراً فاحشا بجاره . وذلك كله تطبيقا لقاعدة : « لا ضرر ولا ضرار » وقاعدة دفع أكبر الضررين بأيسرهما ، وفى هذا الخير لصاحب الحق وللجار معاً .

(ج) ولرعاية هذه المصلحة التى تكون للغير وقد تكون مصلحة جماعة لا مصلحة فرد واحد نرى الشريعة الإسلامية تقرر للغير على صاحب الماء ما يسمى بحق الشفة وحق الشرب ، ويراد بالحق الأول حق شرب الإنسان ودوابه من عين أو قناة مملوكة للغير ، ويراد بالثانى حق سقى زرعه من ماء يمر بأرض لغيره ، مع أن من خواص الملكية حرية المالك فى ملكه يتصرف فيه كما يشاء ويهوى .

وتطبيقا للحق الأول يروى الإمام أبو يوسف أن قوما مروا بماء وهم فى سفر ، فأرادوا أن يستقوا منه لأنفسهم ودوابهم فمنعهم أهله ، فقالوا لهم إن أعناقنا وأعناق مطايانا كادت تنقطع عطشا ، فأبوا أيضا ، وحين رجعوا ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب ، الفاروق بحق ! فقال لهم هلا وضعتم فيهم السلاح ! [2] :

---

(١) وذهب إلى ذلك أيضا غيره من الفقهاء ومنهم بعض الأحناف المتأخرين .

(٢) كتاب الخراج طبع المطبعة الأميرية ، ص ٥٥

مكتبتنا العربية

وتطبيقا للحق الثانى ، تجعل الشريعة للمرء أن يحفر مجرى ماء فى ملك غيره ليصل الماء لأرضه البعيدة عن مصدر الماء ، فإن أبى ألزمه ولىّ الأمر أو القضاء.

وفى هذا يروى يحيى بن آدم القرشى بطرق مختلفة فى كتابه الخراج ، أنه كان للضحاك بن خليفة الأنصارى أرض بعيدة عن مجرى الماء فلا يصل إليها إلا إذا مر ببستان لمحمد بن مسلمة ، ولكن محمدا هذا أبى أن يمر الماء بأرضه ، فألزمه عمر بن الخطاب بإمداده بعد أن تبين له أنه لا ضرر عليه منه . وكان من كلامه فى هذا أن قال : والله لو لم أجد له ممراً إلا على بطنك لأمررته [1] !

(د) وأخيراً ، مما لا شك فيه أن للفاتحين لأرض من أراضى الأعداء أربعة أخماس الغنيمة والخمس الباقى يصرف فى مصارفه التى حددتها آية الأنفال : « واعلموا أن ماغنمتم من شىء فأن لله خمسه » الآية .

غير أن حق ملكية الفاتحين لأربعة أخماس ما فتح الله عليهم به ، قد يكون فيه ضرر بالجماعة وبالمسلمين الذين يأتون بعدهم ، ولهذا رأى عمر ابن الخطاب أيضا عدم التسليم بهذا الحق للمحاربين بإطلاق فى بعض الحالات ، ومعنى هـذا تقييد « الحق » لمصلحة الجماعة ودفعا للضرر عنها .

ذلك أنه لما تم فتح العراق والشام وغيرهما من الأقطار فى عهد عمر ، رأى ألا تقسم بين الفاتحين ، بل تبقى خراجية ينتفعون بها هم ومن يجىء بعدهم من المسلمين ، وكان من كلامه فى هذا : كيف بمن يأتى من المسلمين فيجد الأرض قد قسمت وورثت عن الآباء ! ما هذا والله برأى ، واستشهد بآيات من سورة الحشر [1]

لكن المعارضين ذكروا أنه كيف يقف عمر ما أفاء الله عليهم بأسيافهم على قوم لم يحضروا الحرب ، ثم على أبنائهم وذرياتهم من بعدهم ! ولما اشتد الخلاف ، حكم الخليفة عشرة من الأنصار ، رغبة - كما قال - فى أن يشركوه فى الأمانة التى حملها . فلما اجتمعوا وتكلم مخالفوه بما يرون من رأى وحجة . قال فيما قال بأنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد رأيت بعد صرف الخمس فى وجوهه أن أحبس الأرض بعلوجها وأضع عليهم الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فيئا للمسلمين الحاضرين ولمن يأتى بعدهم . ثم قال : أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ! أرأيتم هذه المدن العظام ، كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لا بد لها أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج ؟

وكانت النتيجة أن أعطى المحكمون ، بعد وزن كل رأى ودليله ، الرأى لعمر ، ولم يسع المخالفين إلا الرضا والتسليم ، وكان هذا إلهاماً من الله العليم الحكيم ، وتوفيقاً للخير العام فى العاجل والآجل من الزمان .

هذه المثل ، ولو شئنا لأتينا بكثير غيرها ، تشهد بلا ريب بالطابع الجماعى لشريعة الله ،

(١) كتاب الخراج طبع المطبعة السلفية ، ص ١١١ - ١١٢

(١) الآيات ٨ - ١٠

مكتبتنا العربية

وبأنه من أجل هذا الطابع قيدت استعمال المرء لما يظنه حقه بألا يكون فى استعماله ضرر لغيره ، بل إنها منعت أحيانا - رعاية لمصلحة الجماعة والأمة عامة - إعطاء بعض الأفراد ما يزعمون أنه لهم من حقوق ، ومن هذا الباب، المثال الأخير .

(هـ) أما القوانين التى صنعها البشر لأنفسهم ، فلم تلاحظ شيئاً من هذه النظرة الجماعية الإنسانية إلا بعد زمن طويل ، ثم لم تبلغ بعد شأو الشريعة الإسلامية فى هذه الناحية ، بل لم تقاربها .

ولنأخذ مثلا لذلك القانون الفرنسى الذى صدر عام ١٨٠٤ م ، لقد كان هذا القانون وليد الثورة الفرنسية التى قامت لتحطيم سلطان الملوك والسادة وإعلان أن للإنسان ، باعتباره فرداً ، حقوقاً طبيعية مقدسة ليس لأحد المساس بها مطلقا ، ومن ثم ساد هذا القانون روح فردى قوى يلتئم مع الروح الذى أملى إعلان حقوق الإنسان ، وهو تدعيم حقوق الأفراد وحمايتها ، وينظر إلى الفرد باعتباره العنصر الأهم فى الحياة لا باعتباره جزءاً من كل هو الجماعة ، ولقد كان من نتائج ذلك أن أتى وقت اعتُبرت فيه الحقوق مطلقة المدى ، وأن صاحب الحق فى استعماله سيد لا يُسأل عما يترتب على هذا الاستعمال من الأضرار التى تحيق بغيره [1]

وقد حدث بعد ذلك أن اضطربت القوانين الحديثة للتطور تبعا للتطورات الاجتماعية العامة ، فأخذت فى تقييد حرية الفرد فى استعمال حقه حتى لا يسىء استعماله ويضر غيره بهذا الاستعمال السيء . إلا أنه من الثابت أن نظرة الشريعة الإسلامية - التى سبقت هذه القوانين بقرون طويلة - لمصلحة الجماعة وتقييد حرية الأفراد فى استعمال حقوقهم - ظلت أوسع مدى وأبعد أثرا من نظرة القوانين الحديثة فى هذه الناحية [1] ونعتقد أن السبب فى هذه التفرقة الواضحة بين طابع شريعة الله وطابع شرائع الإنسان ، هو ما سبق أن ذكرناه من التفرقة الأساسية بين أصل حقوق الفرد فى كل من هذين النوعين من التشريع .

هذا ، وفضل الشريعة الإسلامية فى تقرير نظرية سوء استعمال الحق ، حتى لا يضار أحد باستعمال صاحب الحق حقه ، فضل غير مسبوق وغير منكور من رجال القانون المحدثين وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عبد الرازق السنهورى واضع التشريع المصرى الحديث [2]

إن لنا ، بعد ذلك ، أن نتوجه إلى أولى الأمر فى الأزهر بالعناية بدراسة الفقه الإسلامى دراسة جدية مقارنة ، وإلى أولى الأمر فى الدولة بالعمل على إحياء تراثنا الإسلامى ، والإفادة منه قبل أن نولى وجوهنا شطر الغرب ؛ والله المستعان ؟

محمد يوسف موسى

(١) انظر مدى استعمال حقوق الزوجية وما تتقيد به فى الشريعة الاسلامية والقانون المصرى الحديث ، ، للدكتور السعيد مصطفى السعيد الأستاذ بكلية الحقوق - فؤاد ، ص ٥

(١) مدى استعمال حقوق الزوجية ، للدكتور السعيد مصطفى السعيد ، ص ٤٣

(٢) الدكتور أنور سلطان الأستاذ بكلية الحقوق ، المرجع السابق ذكره له ، ص ٧٧ ، ٩٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ الدكتور السنهورى ، مجلة المحاماة سنة ١٩٢٢ ص ٤١٩

مكتبتنا العربية

فتوح الإسلام فى العقيدة والتشريع

القرآن واللغة

للأستاذ عباس محمود العقاد

منذ أربعة عشر قرنا تغيرت لغات كثيرة ، بل تغيرت جميع اللغات التى كانت تحسب يومئذ من اللغات الحية ، فانتقلت من ميدان الحياة إلى سجلات الآثار والمحفوظات ، أو إلى المراجع التى يتخصص لها علماء اللغات المهجورة . إلا اللغة العربية ، فإنها نشأت منذ أربعة عشر قرنا نشأة جديدة ، وتقدمت أشواطا بعد أشواط ، وأخذت من إكسير الحياة ما يضمن لها طول البقاء .

وذلك بفضل القرآن الكريم ، لأنه جعلها لغة العقيدة الإسلامية ولغة الثقافة الإسلامية فى وقت واحد ، بل جعل لها فضلا على الثقافة الإنسانية عامة ، فحفظت إلى حين ما كان وشيك الضياع .

فلولا القرآن الكريم لكان من المشكوك فيه كثيراً أن يتوفر العلماء على وضع علم النحو وعلوم البلاغة واستقصاء المفردات وتحرّى مصادر الفصيح والدخيل وضبط المعجمات التى لم تسبق فى لغة من اللغات .

والأرجح فيما نعتقد أن البحث فى الصفات والقضاء والقدر ، كان مصدر علم الكلام فالحكمة الإسلامية فالدراسات المنطقية التى تتصل بها وتعين عليها . ولا يخفى أن هذه الدراسات هى التى أنقذت الفلسفة القديمة من الدثور والإهمال ، فدبت الحياة فيما استحق الحياة من فلسفة يونان وعلومها ومباحثها ، واتصلت الثقافة الإنسانية منذ أقدم العصور إلى العصر الحديث فى هذا الاتجاه .

ومما لا خلاف عليه أن اللغة العربية نشطت هذا النشاط وتقدمت هذا التقدم لأنها لغة كتاب مقدس يدين به المسلمون ، وهو القرآن الكريم .

ولكن اللغات التى كتبت بها الأسفار المقدسة كثيرة ، منها العبرية لغة التوراة ، والآرية القديمة لغة الزندافستا ، ولغات آرية أخرى فى الهند كتبت بها الأسفار التى يقدسها الهنود الأقدمون والمعاصرون .

إلا أن اللغة العبرية أصبحت إحدى اللغات التى لحقت بسجلات الآثار أو سجلات المراجع والدراسات ، وقد كتبت بعض أسفار العهد القديم باللغة الآرامية فى حياة اللغة العبرية وإبان نشأتها ، وقد ترجمت أسفار العبرية والآرامية جميعا إلى اللغة اليونانية قبل ألفى سنة ، ولا تزال هذه الأسفار كتبا مقدسة عند اليهود . وهم لا يطلعون عليها فى لغتها ولا يتكلمون تلك اللغة إلا بالإضافة إلى لغة أخرى هى لغة الحياة أو لغة كل يوم ، أما اللغة العبرية فهم يستحيونها من طوايا التاريخ ويفهمونها كما يفهم الأثرى نقوش الهيكل أو البردى العتيق .

وانتهت حياة اللغات التى كتبت بها أسفار

مكتبتنا العربية

المجوس والبراهمة ، وأصبحت مجهولة عند من يدينون بها ولا يؤمنون بشيء منها ...

إذن ليس مجرد الإيمان بكتاب مقدس كفيلا بحفظ اللغة وعصمتها من الزوال أو الانتقال من ميدان الحياة إلى المراجع المهجورة .

ولا بد من فضل خاص للقرآن الكريم ميزه بين الكتب الدينية وجعل له من الأثر فى استبقاء اللغة العربية ما لم يكن لكتاب آخر فى اللغات السامية ، أو اللغات الآرية ، وقد كانت العبرية والآرامية من اللغات السامية ، وكانت لغة المجوس والبراهمة من صميم اللغات الآرية ، أو الهندية الجرمانية كما يقولون عنها فى علوم اللغات ، فما هو سر هذا الفارق بين كتاب وكتاب وبين اعتقاد واعتقاد ؟

سره أن القرآن العربى قد جاء برسالة عامة إلى الناس كافة ، ولم يكن رسالة خاصة ببنى إسرائيل أو بالطبقة الحاكمة بين الهنود ، ولو كان عربياً للعرب دون غيرهم لما كان له هذا الشأن الذى امتاز به على كل شأن لكتاب من كتب الأديان .

فالتوراة كتاب يؤمن به بنو إسرائيل ولكنه لم يحفظ اللغة العبرية بين أهلها فضلا عن حفظها بين الغرباء عنها ، لأن بنى إسرائيل أنفسهم قد هجروا لغتهم وانساقوا فى التيار الذى يشمل الأمم الإنسانية بأجمعها .

وكتب البراهمة أسفار يدين بها أتباعها ، ولكنها كذلك لم تحفظ لغاتها التى كتبت بها من قديم الزمن ، لأن البراهمة كانوا سادة يفرضون دينهم على عبيد مسخرين ، لا يعاملونهم معاملة الإخاء والمساواة ، ومن ثم هذه الطوائف المنبوذة التى تعد بعشرات الملايين ، ومن ثم هذا التفاوت بين طبقة وطبقة ، وصناعة وصناعة ، بل من ثم هذه الأعجوبة فى تاريخ الهند الحديث من ناحية اللغات والتفاهم بها بين أقاليم الهند على تباعد مواقعها ، فقد أصبح التفاهم بين أهل الشمال وأهل الجنوب باللغة الإنجليزية أسهل من التفاهم بين الجيران فى الإقليم لواحد بلغة الكتب المقدسة التى انقضى عليها ثلاثون قرناً على أقرب تقدير .

وهذا هو الفارق العظيم بين كتاب وكتاب ، ولغة ولغة ، فإن العقيدة وحدها لا تحمى لغتها ، ولا تحمى أمتها إذا جاءت منعزلة عن الدنيا مقصورة على عصبية واحدة ، وإنما تبقى اللغة مع بقاء العقيدة إذا تفتحت أبوابها للأمم كافة بغير عصبية ولا عزلة قومية أو جنسية ، ولهذا خصت العربية ، بظاهرة ، قل نظيرها فى لغة من لغات الكتب المقدسة أو غير هذه اللغات ، فإن خدامها من الفرس والأمم الآرية لا يقلون عن خدامها من أبناء الأمة العربية ، وإن البلاد التى انتقلت إليها العربية من مهدها تخرج من المشتغلين بها ، والعاكفين على آدابها وفنونها أضعاف من يتخرجون فى بيئتها الأولى .

ويبدو لنا أن هذه اللغة الجميلة مستعدة بطبيعتها للعموم والشيوع والنهوض بالأمانة الإنسانية ، لأنها كلها انتقلت من تربة إلى تربة أخرى ترعرعت فى تربتها الجديدة وسمقت لها فيها فروع كالأصول بل أثبت وأبقى .

فاللغة فى عهد العرب المستعربة أصح وأفصح

مكتبتنا العربية

بما كانت عليه فى عهد العرب العاربة ، وهى فى عهد العرب العاربة تقترب فى فصاحة اللهجة واستقامة القاعدة وتبتعد من الحميرية التى تشبه الرطانة الأعجمية ، وقد اطرد هذا القياس زمنا فاستفادت العربية بالعموم والشيوع ، وما زالت كلما قادها العموم والشيوع إلى شىء من الإسفاف و « العامية » ، وجدت مرساة الأمان فى القرآن الكريم ، فلم تنقطع الآصرة بينها وبين أصولها ولم تنقطع كذلك عن مجاراة الزمن والاحتفاظ بالمزية الإنسانية : مزية العموم والشيوع .

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

نعم ويصدق ذلك على اللغة التى تقوم بها الرسالة كما يصدق على الرسول الذى يؤديها إلى بلاغها ، فتمضى الرسالة إلى غايتها ببلاغة اللغة وبلاغ الرسول .

وتتضح هذه الحقيقة من الموازنة بين العربية والعبرية واللغات الآرية والمجوسية ، فإن العربية قد انتهت إلى عصر الدعوة الإسلامية وهى تزدهر وتتسع للنظم المتين والخطابة المبينة والحكمة المأثورة ، ولم يعرف عن لغات الكتب الدينية كالعبرية أو الآرية القديمة أنها وعت إلى جانب الآيات الدينية شيئا من روائع البلاغة التى يتفاهم بها الناس فى مطالب الفن والأدب ، فلم ترزق من الحياة ما يعبر عن الحياة ، وانقضت مهمتها ولما تجاوز نطاقها المحدود من عصبية القبيل والإقليم .

وهذه البلاغة العربية التى نضجت وسرت فى سليقة الناطقين بها مسرى الوظيفة الحية قد كانت حصنا للعقيدة كما كانت حصنا للغة ولهجاتها وأساليبها ، فلما انتشر المبشرون بالمذاهب المختلفة فى بلاد المسلمين أخفقوا واعترفوا بالإخفاق وقرروا أن المسلم لا يخرج من دينه إلى دين آخر وأن نسبة الصابئين عن دينهم من المسلمين لا تزيد على الآحاد فى الملايين ، وبعضهم يتحولون لمنفعة أو غواية وعلى غير اقتناع وإيمان ، ومهما يكن من ثبات العقيدة الدينية فلا يقال إن المبشر المدرب على التبشير يعجز عن إقناع جاهل أو ساذج بما حذقه من وسائل التشكيك والتأثير وإنما العصمة حق العصمة أن بلاغة القرآن حتى فى مسامع الجهلاء قد عودتهم نمطا من الكلام العذب المستساغ يرفضون كل ما عداه ولا يحسون فيه الروحانية الإلهية ، فيصعب إقناعهم بكلام على غير ذلك النسق البليغ .

ولقد مضى أربعة عشر قرنا على اللغة العربية فى تجددها وارتقائها بعد نزول القرآن الكريم ، وقد زالت كما أسلفنا لغات كانت تحسب من اللغات الحية عند انتشار الدعوة الإسلامية ، وقد بقيت اللغة العربية لغة عقيدة ولغة ثقافة ولغة خطاب بين المتعلمين من أبنائها ، ولغة فهم بين غير المتعلمين منهم ، ولكن المعجزة القرآنية لم تقف ولن تقف عند هذه الغاية ، فبفضل هذه المعجزة يرجى أن تكون هذه اللغة بعد قرن من الزمان لغة الملايين ممن لم يتكلموها حتى الآن ، وفى طليعتهم أهل الهند والملايو المسلمون ، ومعهم فى آسيا وأفريقية شعوب تنمو وتزداد صلة بلغة القرآن على مر السنين .

عباس محمود العقاد

مكتبتنا العربية

جهود المسلمين فى النحو والبلاغة

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

للعرب جهود موفقة فى ابتكار علمى النحو والصرف، جهود نذكرها مع الإعجاب والإجلال.

نعجب بهم لأنهم أحاطوا باللغة العربية إحاطة شاملة كاملة.

ولأنهم استوعبوا شواردها والنادر منها، فتراهم يجمعون فى الموضع الواحد ما يمكن أن تستنتج منه قاعدة، ويجمعون ما خرج عن هذه القاعدة ويحكمون عليه بالشذوذ والندور.

ونعجب بهم لأنهم تعمقوا فى البحث وأدركوا العلل والأسباب وحسن تهديهم إلى القياس.

ونجلهم لأمانتهم وحرصهم على أن يصلوا إلى الحقائق وخوفهم من أن يقولوا فى اللغة بغير علم كأنما هى دين لا يجوز فيه التهاون والتسامح بل يجب أن يفرغ المرء جهده ليصل إلى الحق ولا يجوز أن يثق المرء بأول خاطر أو يسكن إلى الراحة والدعة.

إن ابتكار العلوم يقتضى أموراً لابد من وجودها ليمكن الابتكار:

أولها - عقل مبتكر منطق يبحث عن العلل والأسباب ويقيس الأمور بأمثالها.

ثانيها - حب للبحث والاستقصاء والابتكار وإيثار له على جميع حظوظ الدنيا وما فيها من متع وزخارف.

ثالثها - إيمان بجدوى هذه البحوث وبأنها تهدف إلى غرض معين وتوصل إلى فائدة مطلوبة.

رابعها - بيئة تقدر العلم والعلماء وتبحث عن مبتكرات القرائح وثمرات القرائح وترى فيها غذاء عقلياً لا تقل حاجتها إليه عن حاجتها إلى غذاء الأجسام، والبيئة الإسلامية فى البصرة والكوفة فى عهد وضع النحو والصرف كانت تستكمل هذه العناصر.

أما العقول المبتكرة الخصبة التى كانت تعلل وتقيس لتهتدى إلى المجهول العقلى، فقد وجد منها فى هذا العصر عدد ليس بالقليل، فهذا الخليل ابن أحمد الفراهيدى كان عقله آية فى البحث والابتكار والتعليل والقياس، وكان عنده من هذه الملكة ما كان عند أمة اليونان فى عهد ازدهار العلوم فيها، كان مثل أرسطو وأفلاطون وسقراط إلا أنه صرف هذه الملكة إلى معرفة مقاييس العربية وتعليلها ولو صرفها إلى علوم الطبيعة والاجتماع والأخلاق لما قل شأنه عن هؤلاء الأفذاذ فى التاريخ من اليونان.

وقد بلغ الخليل بن أحمد الغاية القصوى فى معرفة قوانين العربية قوانين مفرداتها ومركباتها. وقد كان ككل العلماء المبتكرين إنما يعنيه الابتكار ويشغله البحث ولا يعنى بالتأليف والتنظيم. وقد كان تلميذه سيبويه ممن رزق ملكة التأليف والتنظيم فأخذ علم الخليل ونظمه وأخرج

مكتبتنا العربية

الـكتاب فى النحو ، فطـارت شهرته فى الآفاق وذهب سيبويه بفخره ، فلما رأى الخليل ذلك أراد أن يصنع علماً ينسب إليه ويختص به فوضع قوانين الشـــعر العربى وحصرها وبين علله وأعاريضه وما يصح منها ومالا يصح وقد وضع كتابا فى اللغة سماه كتاب العين هو الأصل لـكل القواميس التى ألفت بعده وكان يظهر عقله للباحث إذا اجتمع به .

يروى أنه اجتمع مع عبد الله بن المقفع ثم افترقا فسئل كل منهما عن صاحبه فقال الخليل عن ابن المقفع : علمه أكبر من عقله . وقال عبد الله ابن المقفع عن الخليل : عقله أكبر من علمه . وكذلك كان كل واحد منهما ، فلو تتبع العالم الباحث آثارهما ودرسهما أزمانا متطاولة لكانت خلاصة بحثه هذه النتيجة .

انظر إلى آثار ابن المقفع تجدها ترجمة لحكم الأولين وأمثالهم وقد يأتى ببعض الحكم ولـكنه يراه مشتقاً من كلام الأولين .

ونرى ملـكته التقليدية ظاهرة فى أوائل كتبه . اقرأ قوله فى أول كتابه الأدب الصغير ، ومن أخذ كلاما حسناً من غيره فتـكلم به فى موضعه وعلى وجهه ، فلا ترين عليه فى ذلك ضؤولة ، فإنه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدى للاقتداء بالصالحين ووفق للأخذ عن الحكماء ـ ولا عليه ألا يزداد ـ فقد بلغ الغاية ، وليس بناقصه فى رأيه ولا غامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق إليه تجده يدل على أن همه مصروف إلى جمع العلوم والحكم والاستكثار منها . ويرى أن من فعل ذلك فقد بلغ الغاية ولا يضيره ألا يكون استنبط واستحدث . وانظر إلى آثار الخليل تجدها كلها تعليلا وقياساً واستنتاجا وابتكاراً .

وقد يعجب المرء كيف توجد هذه العقول الخصبة فى أوائل الدولة الإسلامية ولم تمر بالأدوار التى تمر بها الأمم من طفولة وشباب واكتمال مما يقتضى أحقابا طوالا حتى تصل إلى سن ابتكار العلوم ولو علم المرء أن الإسلام جاء إلى أمم كانت قد مرت بأدوار الصبا والطفولة ووصلت إلى حد الاكتمال فلم ينشئها الإسلام إنشاء وإنما جاء فأصلح من عقائدها وأخلاقها واجتماعها ، نقول لو علم الباحث ذلك لزال منه العجب . إن الإسلام دخل فى أمة الفرس والروم والسريان وقد كانت أمما ذات ثقافة ومدنية بل العرب أنفسهم جاءهم الإسلام بعد أجيال وأجيال من منشئهم فلا عجب أن تظهر فيهم ملكة الابتكار والاستنباط التى لا تظهر فى الأمم إلا فى دور نضوجها واستكمالها .

أما حب البحث والابتكار حبا يصل إلى درجة العشق والهيام وإيثاره على كل شىء عداه ، فيحدثنا التاريخ بأعاجيب منه . وحسبنا أن نذكر هنا الحادثتين الآتيتين : يروى عن أبى عمرو بن العلاء قال : كنت هاربا من الحجاج بن يوسف وكان يشتبه على « فرجة » هل هو بالفتح أو بالضم فسمعت قائلا يقول :

ربما تجزع النفوس من الأمـ
ـر له فرجـــة كحل العقـال

بفتح الفاء من فرجة ثم قال : ألا إنه قد مات الحجاج . قال أبو عمرو : فما أدرى بأيهما كنت

مكتبتنا العربية

أشد فرحا بقوله «فرجة» أم بقوله مات «الحجاج».

فأنت تراه قد فرح باستفادته حرفا واحداً من اللغة فرحا يعدل الأمن بعد الخوف، والظهور إلى الناس بعد الاستخفاء. وأما الحادثة الثانية فهى أن سليمان بن على وجه إلى الخليل بن أحمد، من الأهواز لتأديب ولده فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً وقال: كل فما عندى غيره وما دمت أجده فلا حاجة لى إلى سليمان. فقال الرسول: فما أبلغه؟ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة
وفى غنى غير أنى لست ذا مال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه
ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

وما أحسب الخليل آثر الإقامة مع فقره وإقلاله على الرحلة مع ما فيها من غنى ويسار إلا لأنه كان فى بيئة يفهمها وتفهمه ويبتكرها فتعجب بابتكاره وتناقشه فيسر لهذه المناقشة. وكان لذلك فى سعادة نفسية يتمنى جزءا منها الأغنياء والموسرون. وستفوته هذه السعادة إذا ذهب إلى الأهواز وشغل بتعليم ولد سليمان وفاته تلاميذه الذين كان يأنس بمحاوراتهم ومساجلاتهم كسيبويه والنضر بن شميل ومؤرج السدوسى وعلى بن نصر الجهضمى.

وكان النضر بن شميل يقول: أكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه وهو فى خص لا يشعر به. ولم تؤكل الدنيا بعلمه فى زمنه فحسب، بل أكلت الدنيا بعلمه فى جميع الأزمان بعده إلى اليوم. ولا يزال للخليل فضل جسيم على معلمى العربية اليوم فى الأزهر ووزارة المعارف والجامعة، فبعلمه يرزقون وبقلمه كان لهم الجاه والشرف والمثالة فى قومهم، كل ذلك كان من صوفيته فى العلم التى كان يراها عبادة وزهادة، ولذلك كان يقول: إذا لم تكن هذه الطائفة - يعنى أهل العلم - أولياء الله تعالى فليس لله ولى. ولعلمه وزهده وعفته ورغبته عما فى أيدى الناس كان سفيان يقول: من أراد أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد.

بمثل هذا العشق والهيام بالبحث يستنبط العلم وتكتب المعرفة.

أما أنهم كانوا يؤملون من وراء بحثهم غرضاً عزيزاً لديهم ويرونهم فى أشد الحاجة إلى تحصيله فلأنهم كانوا يريدون المحافظة على كتاب الله أن يتطرق اليه اللحن وفساد الإعراب. وكانوا يخافون على اللغة العربية أن يذهب نظامها بمخالطة الأعاجم الذين دخلوا فى الإسلام، فقد كانوا يسمعون اللحن فى القرآن فيسوءهم ذلك. وأشد ما ساءهم أن قارئاً قرأ: إن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر فقيل معاذ الله أن يبرأ من رسوله. وقد هرعوا إلى وضع النحو بعد هذه الحادثة. وقد كانوا يرون اللحن فى لغة العرب فيقودهم ذلك إلى وضع قوانين فيما كان فيه اللحن.

يروى أن أبا الأسود قالت له ابنته: ما أحسنُ السماء. فقال لها: يا بنيتى نجومها. فقالت: إنى لم أرد هذا وإنما تعجبت من حسنها فقال لها: إذن فقولى ما أحسنَ السماء. ووضع باب التعجب.

وما أظن أنهم غاروا على اللغة العربية، هذه الغيرة إلا من أجل القرآن، وإلا فإن أمما

مكتبتنا العربية

كثيرة تركت لغتها تتطور وتتفرع إلى لغات كثيرة دون أن تعنى بضبطها والوقوف فى سبيل تطورها ، ولكن علماء الإسلام عنوا بضبط لغتهم من أجل المحافظة على القرآن، فنشأت هذه الظاهرة العجيبة ، وهى أنه لو قدر أن يحيا اليوم رجل مات منذ ألف سنة ، فسمع المتحدثين بالعربية لما أنكرها ولفهمها ، أما اللغات الأخرى فليست كذلك . فلو أن فرنسيا مات منذ مائتى سنة وبعث اليوم ، لما فهم اللغة الفرنسية التى يتحدث بها أهل هذا العصر لتطورها ومطاوعتها للأحداث الجارية عليها .

وقد بلغ من حرصهم على صحة اللغة وسلامة إعرابها أن أحدهم كان يخجل من اللحن ويراه سوءة لا ينبغى أن يعلمها أحد عنه .

يروى أن الحجاج بن يوسف قال ليحيى بن يعمر العدوانى : أتجدنى ألحن؟ فقال : الأمير أفصح من ذلك . فقال : عزمت عليك أتجدنى ألحن ؟ فقال يحيى : نعم ، فقال له : فى أى شىء ؟ فقال : فى كتاب الله تعالى ، فقال : ذلك أشنع ، ففى أى شىء من كتاب الله تعالى ؟ قال : قرأت « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم » فرفعت أحب وهو منصوب . فقال له الحجاج : طول لحيتك دفعك - وكان طويل اللحية - لا تساكنى فى بلد أنا فيه ونفاه إلى خراسان .

وأما البيئة العربية فى ذلك الحين ، فقد كانت تشجع أعظم التشجيع ، على البحث والدرس ، فقد كان الناس يعظمون العلماء ويستفيدون منهم ويرحلون إليهم . وكان الخلفاء والأمراء يجزلون صلات العلماء بحرف واحد من اللغة يستفيدونه منهم ، كما يحكى أن المأمون قال بحضرة النضر بن شميل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها ، كان فيها سداد من عوز ، فأورده بفتح السين . فقال النضر : سداد بكسر السين. فقال المأمون: وما الفرق بينهما ؟ فقال النضر: السداد بالفتح القصد فى الدين والسبيل والسداد بالكسر المبلغة ، وكل ما سددت به شيئا فهو سداد ، قال العرجى :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم أمر له المأمون بخمسين ألف درهم وأمر له الفضل بثلاثين ألفا .

هذه العناصر الاربعة التى ذكرنا أنها تدعو إلى استنباط العلوم وابتكار قوانين اللغة كانت موجودة فى البصرة والكوفة ، ولذلك بدأ النحو فى هذين المصرين ثم انتشر بعد ذلك فى الأمصار الإسلامية ، فليت شعرى ما الذى فقدته الأمصار الإسلامية ، كمصر ، والشام ، والحجاز ، من هذه العناصر الاربعة فلم يظهر فيها النحو ولم تستنبطه وكانت عيالا فيه على نحو البصرة والكوفة ! وليت شعرى ما الذى تنقصه الممالك الإسلامية الآن من هذه العناصر فعجزت عن استنباط العلوم ومجاراة الأمم فى بناء هيكل العلم المقدس ؟ هذا موضوع حقيق بأن يبحث مستقلا لأنه لا يخلو من طرافة ، ولا يخلو من فائدة أيضا ؟

محمد عرفه

مكتبتنا العربية

فتوح العقلية الإسلامية فى العلم والفلسفة
فضل العرب على فلسفة اليونان

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

نحسب أنه قد جاء الأوان الذى نكتب فيه فلسفتنا بأيدينا ، وأن نؤرخ لها بأقلامنا ، بعد أن سجل المستشرقون رأيهم فيها ، وأعلنوا أن الفلسفة الإسلامية ليست شيئاً آخر إلا الفلسفة اليونانية دوّنت بحروف عربية . بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا : إن علم الكلام ، والفقه ، والنحو ، وغيرها من العلوم ، يونانية .

وان نذهب مذهب هؤلاء القوم من الغلو فى تقدير اليونان والحط من شأن العرب ، أو نتطرف على العكس فى رفع قيمة العرب وتجريد غيرهم من كل شيء . ولكننا نقول كما قال أرسطو فى أوائل كتاب ما بعد الطبيعة : إنه ينبغى أن نشكر السابقين لأنهم مهدوا الطريق . ولم يفته أن يسجل الفضل للمصريين بوجه خاص لامتيازهم فى العلم الرياضى . وقد صاغ الكندى هذا الرأى فى كتابه إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى فقال : « فينبغى أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق فضلا عمن أتى بكثير من الحق ، إذ أشركونا فى ثمار فكرهم ، وسهلوا لنا المطالب الخفية الحقية . فإنهم لو لم يكونوا لم يجتمع لنا مع شدة البحث فى مدتنا كلها هذه الأوائل الحقية ، التى بها خرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الحقية . فإن ذلك إنما اجتمع فى الأعصار السالفة المتقادمة عصراً بعد عصر إلى زماننا هذا ... »

وقد كان من الخير أن تنتقل حضارة الإغريق على يد المترجمين إلى أرض جديدة ، وتدرج إلى عقول جديدة ، لأنها كانت كالحب الذى ينبت فى غير وطنه فيعطى ثمراً يختلف فى طعمه عن الثمر الأصلى . بل وفى شكله . فلما تمثل العرب فلسفة اليونان ، اختلطت بأقوى عنصر من عناصر الحضارة الإسلامية ، وهو الدين الذى يعتمد على أصل ثابت من الكتاب الكريم ، لا ريب فيه ، ولا مبدل لكلماته ، هدى للمتقين .

ولم تكن الفلسفة اليونانية غريبة عن الدين ، ولكنه دين أساطير يؤله البحر والسماء والشمس والقمر ويتخذ آلهة كثيرة ، ولم يستطع فلاسفتهم المبرزون مثل أفلاطون وأرسطو أن يخلصوا من أثر تلك الأديان . وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن فلسفة أفلاطون متأثرة تأثراً شديداً بالنحلة الأورفية . ومن أراد من فلاسفتهم أن يتحرر من سلطان الدين ، وأن ينظر إليه بعين العقل ، لقى من غضب الشعب ما يقسره على الخوف ، وكتم الرأى ، ومسايرة الجماعة . فقد اتهم سقراط بإنكار آلهة اليونان ، وحوكم من أجل ذلك وأعدم . واتهم أرسطو بتهمة شبيهة بذلك لأنه نظم قصيدة رثاء عند موت صديقه الملك هرمياس ، وكان الشعر وقفاً على الآلهة فقط ، وهرب أرسطو خوفا على مصيره . وقد جرد أرسطو الإله من كل شيء ، فهو عنده « المحرك الذى لا يتحرك » ، مفارق للعالم ، لا يُعنى به ، ولا يعلم عنه شيئاً . وتختلف هذه النظرة اختلافا شديداً عن نظرة الأديان

مكتبتنا العربية

السماوية ، كاليهودية والمسيحية والإسلام ، ولذلك عدل المسيحيون والمسلمون عن رأى أرسطو فى الله ، واصطنعوا فلسفة أخرى تتلاءم مع الأديان السماوية .

ومع ذلك فقد نصب فلاسفة المسلمين أقلامهم للدفاع عن فلسفة اليونان الدينية ، وذهب الشهرزورى فى كتاب نزهة الأرواح ، بعد أن حكى آراء الفلاسفة الطبيعيين ، إلى أن نظرياتهم كانت «رمزاً» ، أما الحقيقة فإنهم كانوا من المؤلهة .

فإذا كانوا مؤلهة على الحقيقة ، فإنما رمزوا خشية ورهبة . والواقع أن الفلسفة اليونانية لم تكن تمتاز بالتصريح العلانية ، حتى فى أزهى عصورها . فهذا أفلاطون لم يدون دروسه فى «الأكاديمية» ، أما محاوراته فقد كتبها للجمهور لا للفلاسفة . وكان أرسطو يلقى دروساً للخاصة من تلاميذه ، وأخرى فى المساء لجمهور المستمعين . وكتبه التى وصلت إلينا هى «المذكرات» التى كان يلقى منها دروسه ، وهذا سر غموضها وعلة تركيزها ، ويسميها العرب «التذاكير» .

ولم يكن فى الفلسفة الإسلامية سر تخفيه عن الناس ، أو علم يستأثر به الفلاسفة دون العامة والجمهور . وهذا كتاب «الشفاء» لابن سينا يعد موسوعة كبرى حوت جميع أبواب الفلسفة ، ولم يكن الكتاب مقصوراً على فئة دون فئة ، بل لقد يسر الشيخ الرئيس قراءته للناس فاختصره فى كتاب «النجاة» ليكون أيسر تداولا .

فأول فضل للعرب على فلسفة اليونان ، هو هذه النزعة الديمقراطية ، التى أنزلت الفلسفة من السماء إلى الأرض على الحقيقة ، ويسرت لكل «إنسان» أن يفكر فيها ، باحثا ومبتكرا ، مؤيدا ومعارضا .

الدين الجديد :

وإنما جاءت هذه النزعة من طبيعة الدين الجديد . فهو دين عقل وتجديد لا دين رسوم وتقليد . والقرآن خطاب للناس كافة دون تمييز بين جنس وجنس أو طبقة وأخرى ، وفى الأثر «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى» .

وقد جاء الإسلام بعدة أصول عامة مما يتعرض لها الفلاسفة ، ولكنه نظر إليها بطريقة خاصة تختلف عن طريقة الحكماء . هذه الأصول هى وجود الله ، ووحدانيته ، وخلق العالم ، ثم الصلة بين الله تعالى والعالم جملة ، وبالإنسان ومصيره بوجه خاص .

وليس بين فلاسفة الإسلام من أنكر وجود الله ، أو قال بالتعدد مثل فلاسفة اليونان ؛ وأدلتهم على الوجود والوحدانية متأثرة تأثراً شديداً بالإسلام ، وتختلف اختلافاً بيّناً عن أدلة اليونانيين وعن أدلة أفلوطين صاحب الأفلاطونية الجديدة ، والذى نُقل كتابه التاسوعات ونُسب خطأً إلى أرسطو باسم «الأثولوجيا» أو «الربوبية» ، وقيل إنه أثر فى الفلسفة الإسلامية أبلغ الأثر . ونحن لا ننكر ذلك فى تفصيلات كثيرة ، ولكن النظرية العامة لأفلاطين تختلف عما ذهب إليه فلاسفة المسلمين .

وعند الكندى : الله هو «المدبر» «الأول» . ويعتمد فيلسوف العرب فى إثبات وجود الله ،

مكتبتنا العربية

على البرهان الغائى ، وفكرة التدبير ، بل لفظ التدبير ، مما ورد فى القرآن الكريم .

وعند الفارابى : أن الله هو « مبدع » الكل .

وهنا ينظر المعلم الثانى فى وجود الله إلى العلة الأولى ، وإلى الإبداع ، طبقاً لما جاء فى محكم التنزيل من أن الله تعالى بديع السموات والأرض.

ويرى أبو على بن سينا أن الله «واجب الوجود» وذلك بعد قسمة الموجودات إلى واجب وممكن ومستحيل . وهذه قسمة تعتمد على المنطق ، وقد درجت فى براهين المتكلمين فيما بعد ، حتى لقد أورد محمد عبده فى رسالة فى التوحيد هذا البرهان.

أما أبو يوسف وأبو نصر فقد كانا أدنى إلى روح الإسلام وأقرب من نصوصه . وكان أبو على فى برهانه فيلسوفاً مستقل الفكر لم يأخذ عن اليونان ، ولم يتأثر بالإسلام ، ولذلك هاجمه أبو حامد الغزالى فى التهافت هجوماً شديداً .

ومن الطبيعى وقد برهن الفلاسفة على وجود الله أن يبرهنوا كذلك على الصلة بينه وبين العالم وأن يفسروا الظاهرة التى تعد أساس الأديان السماوية وهى النبوة والوحى .

وهذا كله هو موضوع التوفيق بين الدين والفلسفة . وقد زعم المستشرقون أن فضل الفلسفة الإسلامية يقف عند هذا التوفيق ولا يتعداه ، وسوف نبين أن لها أفضالا كثيرة خلاف ما فطنوا إليه . وكان عمادهم فى تصوير هذا التوفيق ما سجله أبو الوليد فى كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ، وسبقه أستاذه أبو بكر بن طفيل فصور هذه المشكلة تصويراً قصصياً فى كتابه « حى بن يقظان » الذى نقل إلى أوربا وأثر فى أهلها تأثيرا كبيرا .

العلم والفلسفة :

وإذا كانت الفلسفة قد اتصلت بالدين من جهة ، فقد اتصلت بالعلم من جانب آخر ، ولا نعدو الصواب إذا قلنا إن العلوم المختلفة ، كالحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب كانت فروعا من شجرة الفلسفة .

حقا نقل العرب فلك بطليموس ، ورياضة أقليدس ، وطب أبقراط وجالينوس ، ولكن هذه العلوم كانت قد تفرقت ، واختص بكل فرع منها قوم ، حتى جاء العرب وسن لهم أبو يوسف يعقوب الكندى سنة الجمع بينها ، فكانت له رسائل فى الفلك والهندسة والكيمياء كما كتب فى الفلسفة . وبذلك أصبحت الفلسفة هى المعرفة الشاملة بجميع العلوم . ولم يقتصر فلاسفة الإسلام على الفلسفة وحدها ، بل كان معظمهم « علماء » ، إما فى العلم الرياضى وإما فى العلم الطبيعى . وهذا هو سبب نهضة الفلسفة الإسلامية ، وارتفاع شأن ممثليها ، كالحال فى ديكارت وليبنتز ، ولكل منهما نظريات رياضية جديدة . ولا تزال هذه السنة قائمة حتى الآن ، فهذا بوانكاريه وبرجسون وبرتراندرسل وهوايت هيد وأينشتين وغيرهم لم تصبح لهم كلمة فى الفلسفة مسموعة إلا لامتلاكهم ناصية العلم الرياضى أو الطبيعى .

ومن الغريب أن يقال إن الفلسفة الإسلامية اقتصرت على نقل علوم اليونان والوقوف عند شرحها . فهذا أبو نصر الفارابى ابتكر علم

مكتبتنا العربية

الموسيقى ، حتى لقد وصفه ابن قيم الجوزية فى كتابه إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، بأنه سمى « المعلم الثانى » لأنه وضع التعاليم الصوتية كما وضع أرسطو المنطق فلقب بالمعلم الأول . وكان الفارابى إلى ذلك صاحب معرفة شاملة ، وهو صاحب « إحصاء العلوم » ، وقد أراد صديقنا الدكتور عثمان أمين أن يفسر تسميته بالمعلم الثانى من أجل ذلك . وذهب الأستاذ زكريا يوسف فى مهرجان ابن سينا الذى أقيم فى بغداد إلى أن الشيخ الرئيس هو أول من وضع علم الموسيقى .

ولا نريد أن نخوض فى تفصيل العلوم واحدا واحدا فنبين فضل فلاسفة العرب على علم الفلك ، والرياضة ، والنبات والحيوان ، والكيمياء وغير ذلك ، فكتبهم التى نقلت إلى اللاتينية فى العصر الوسيط هى التى عوّل عليها الأوربيون فى نهضتهم العلمية . غير أننا نريد الإشارة إلى هذا المعنى ، وهو أن فلاسفة المسلمين هم الذين سنوا سنة الجمع بين الحكمة والعلم ولعل لفظ «الحكيم» الذى يعنى به العامة « الطبيب » إنما يرجع إلى أن أطباء الإسلام كانوا فلاسفة وحكماء فى الوقت نفسه . ولا غرابة بعد ذلك أن تجد سيرة الفلاسفة فى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة .

نظرية المعرفة :

ومن المسائل التى تضرب فى الفلسفة إلى الصميم ، بل التى تعد جوهر الفلسفة ، هذه المسائل التى يسميها المحدثون نظرية المعرفة ، والتى سماها القدماء « العلم » . وإنما عدلنا عن لفظ « العلم » إلى « المعرفة » لأن العلم (Science) فى العصر الحاضر إصطلاح خاص يقصد به مجموعة القوانين العامة المستمرة من المشاهدات والمؤيدة بالتجارب.

ولفلاسفة الإسلام رأى فى المعرفة ، ولعلماء الكلام رأى كذلك ، حتى لقد أفرد المتأخرون منهم بابا خاصا باسم العلم ، كما هو الحال فى « المواقف » للإيجى مثلا . ولعلك تقول : وما شأن المتكلمين بالفلاسفة وكيف تخلط بين هؤلاء وأولئك ؟ كان ذلك صحيحا فى القرن الثالث وابتداء الرابع ، حتى إذا كنا فى القرنين الخامس والسادس ، اختلطت مباحث الكلام بالفلسفة ، وذلك باعتراف المتكلمين أنفسهم ، ويكفى أن تقرأ استهلال كتاب « العقائد » للنسفى الذى يقول فيه « قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسفسطائية . . . . لتحس أنك بإزاء كتاب فى الفلسفة لا فى علم الكلام. وفى رأى الكثيرين أن الغزالى يعد بسبب كتابيه المقاصد والتهافت من الفلاسفة لا من المتكلمين أو الفقهاء أو الصوفية . وهذا هو رأينا أيضا .

على أن نظرية المعرفة عند المتكلمين تلائم أغراضهم من إثبات الحقائق الدينية التى وردت فى الشرع ، أما الفلاسفة فقد نظروا إلى المعرفة نظراً حراً من كل تأثير دينى .

ما هى طرق المعرفة ؟ أهى الحواس أم العقل؟ أم يوجد طريق آخر غير الحواس والعقل ؟ وكيف نصل إلى تكوين المعانى الكلية

مكتبتنا العربية

وإلى القضايا التى نحكم فيها بمعنى على معنى ؟ وهل المعرفة كلها مكتسبة أو نظرية ، أو بعضها نظرى وبعضها الآخر مكتسب ؟ .

لقد نظر فلاسفة اليونان فى هذه المشكلات ، أو فى بعضها على الأقل ، ولكنه نظر لا يغنى . فهذا أفلاطون يحدثنا عن الجدل الصاعد من المحسوس إلى المعقول ، ثم الجدل النازل من المعقول إلى المحسوس ، ولكن رأيه شديد الغموض ، أما فلاسفة الإســـلام ، فلأنهم اشتغلوا كما ذكرنا بالعلم الرياضى والطبيعى وكانوا أطباء يعولون على المشاهدة والتجارب ، فقد تأثروا بالمنهج العلمى . ونحن نجد نواة نظرية المعرفة عند الفارابى الذى جمع بين المعلومات المكتسبة من الحواس وبين العقل . ولكن الفارابى فيلسوف مركز ، يكتب على طريقة « الفصوص » . حتى إذا جاء أبو على بن سينا بسط هـــذه النظرية فى إفاضة . فالكليات تكتسب بتجريدها من المحسوسات الجزئية ، والأحكام العامة مستفادة من التجربة مثل «أن السقمونيا مسهل للصفراء ، وذلك لمشاهدتنا ذلك كثيراً ، كما حكى الشيخ فى « النجاة » . ونحن نجد هنا أن الرأى للطبيب لا للفيلسوف . ولكن ابن سينا يحدثنا إلى جانب ذلك أن العقل البشرى فيه « أوليات » أو « بديهيات » ، مثل أن الكل أعظم من الجزء ، وأن الأشياء المساوية لشىء واحد متساوية وهذه من طبيعة العقل لا تستفاد من مشاهدة أو تجربة .

لا نود أن نعرض هنا بالتفصيل لمذهب ابن سينا ، ولكننا نشير إلى أن النجاة والشفاء قد ترجما إلى اللاتينية ، ولا نستبعد أن يكون ديكارت وكانط قد تأثرا بالشيخ الرئيس فى كثير من آرائهما ، كما بينا ذلك فى بعض مباحثنا .

ويضيف المتكلمون إلى طرق المعرفة طريقا جديداً ، هو « الخبر الصادق » ، ويذهب الفارابى إلى أن العلم إما أن يكون ربانيا وإما أن يكون إنسانيا . فالعلم الربانى يحصل بالكشف والذوق والتعلم الإنسانى يتم بالمشاهدة والتحصيل .

الأسباب والمسببات :

وهذه مسألة من أخطر المسائل الفلسفية نعنى بها نظرية السببية . وقد فتح بابها الغزالى ولا تزال المشكلة معروضة على بساط البحث حتى اليوم خاض فيها هيوم ، وكانط ، كما عرض لها المحدثون المعاصرون .

يقول الغزالى إن النار إذا اقتربت من القطن أحرقته ، فيذهب الفلاسفة إلى أن النار « علة » الإحراق . فما معنى العلة أو السبب ، أذلك فى الأشياء الطبيعية ، أم فى عقولنا ؟ فإن كانت الأسباب فى الأشياء الطبيعية فإنها عادمة للعقل وتحتاج إلى مدبر يدبرها . وإن كانت السببية فى عقولنا ، فإن مرجع ذلك إلى « العادة » التى ألفنا فيها النظر إلى تكرار وقوع الاحتراق بعد اقتراب النار من القطن . ويخلص الغزالى من ذلك كله إلى مسبب الأسباب وهو الله تعالى

وهذا الذى يقوله الغزالى يشبه إلى حد كبير ما يقوله : « مالبرانش » تلميذ ديكارت ، حين يذهب إلى أن الأسباب الظاهرة إن هى

مكتبتنا العربية

إلا « مناسبات » تبرز فيها الإرادة الإلهية .

أما هيوم ، فإنه أرجع السببية إلى قانون ارتباط المعانى فى الذهن . وكان لهدمه مبدأ السببية أثر عظيم فى فلسفة كانط ، الذى رأى فى هدم السببيه هدماً للعلم ، فذهب إلى أن السببية من جملة الصور الموجودة فى العقل البشرى والتى تفرض فرضاً على الأشياء . ولم يجد برتراند رسل فى كتابه الأخير « المعرفة الإنسانية » أدلة فلسفية يمكن أن تقطع بالاعتقاد فى السببية ، ولكنه أجازها ، لأن العلم لا يقف على قدميه إلا على هذا المبدأ . وهكذا نرى أن موقف الغزالى وبراهينه ونقده القوى ومناقشته العميقة كل ذلك لا يزال فتحاً جديدا فى عالم الفلسفة . وهذا من فضل العرب على فلسفة اليونان ، بل على الفلسفة الحديثة .

العقل والنفس :

وقد نظر فلاسفة اليونان إلى العقل والنفس . ويعد كتاب النفس لأرسطو مرجعاً فى هاتين المسألتين . وقد نقل اسحاق بن حنين هذا الكتاب إلى العربية ، وشرحه الإسكندر الأفروديسى ، وعرف العرب الأصل والشرح ولكن مقالة أرسطو فى العقل كانت أشبه بالرموز المستغلقة ، وهى إلى ذلك شديدة الإيجاز ، وأشار فيها إلى خلود العقل ، ومفارقته ، مما يتنافى مع مذهبه الطبيعى العام مما جعله يلحق علم النفس بالعلم الطبيعى .

ونحن نجد لفلاسفة الإسلام البارزين آراء فى العقل والنفس ، مثل الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد .

وأوضح هؤلاء جميعاً ، وأبعدهم أثرا فى تاريخ الفلسفة ، سواء فى الشرق أو فى الغرب . هو ابن سينا .

وقد ميز الشيخ الرئيس بين النفس والعقل ، فالنفس الإنسانية حين اتصالها بالبدن تسمى النفس ، فإذا فارقته بعد الموت تسمى العقل .

وساق ابن سينا أدلة كثيرة على وجود النفس وامتيازها عن البدن ، منها برهان « الأنا » حين تقول أنا فعلت كذا أو كذا . وبرهان الرجل الطائر الموجود فى الشفاء وبرهان الشعور بالأحوال النفسية واستمرارها . وقد تنبه المستشرقون إلى أن ديكارت متأثر فى برهانه المشهور ، « أنا أنكر ، إذن أنا موجود » ببراهين ابن سينا ، ولا سيما وقد كانت كتبه مترجمة إلى اللاتينية ومتداولة فى أوربا . وكذلك تلتقى آراء الشيخ بآراء وليم جيمس وبرجسون فى العصر الحديث .

إلا أن المسلمين بعد ابن سينا ، لم يجددوا مع الأسف فى الفلسفة ، ولم يتابعوا النهضة التى بدأها الكندى وسار على هداها الفارابى حتى انتهت إلى المعلم الثالث .

وانتقلت الفلسفة إلى أوربا ، وشقت طريقها ، وظلت تتقدم حتى اليوم .

وليس ببعيد أن نرى الفلسفة تعود مرة أخرى إلى الشرق ، فتتبوأ ما كان لها من منزلة على يد المعلمين الثانى والثالث .

أحمد فؤاد الأهوانى

مكتبتنا العربية

تدعيم الإسلام للأسرة

للدكتور على عبد الواحد وافى

تتأثر شئون المجتمع تأثراً كبيراً بمقومات الأسرة وما تعتمد عليه من دعائم. فإذا قامت الأسرة على أسس قوية سليمة استقرت أحوال المجتمع وتوطدت أركانه؛ وإذا وهنت قواعدها اضطربت حياته واختل توازنه. فالأسرات، كما يقول «أوجيست كونت» منشىء علم الاجتماع، هى الخلايا الأولى التى يتألف منها جسم المجتمع، فبصلاحها يصلح هذا الجسم، وبفسادها يدب إليه السقم والاعتلال.

ولذلك وجه الإسلام قسطاً كبيراً من عنايته نحو تدعيم نظام الأسرة، وتخليصها من شوائب الضعف، وإحاطتها بما يكفل لها الصلاح والاستقرار. فلم يغادر أية ناحية من نواحيها إلا أقامها على نظم رشيدة، وقضى على ما كانت تسير عليه عند العرب وغيرهم من طرائق معوجة فاسدة. ذلك كان موقفه فى شئون الخطبة، واختيار الزوج لزوجه، ومراعاة الكفاءة بين الزوجين، ونظام المهور، وإجراءات عقد الزواج وإشهاره، وما أضفاه على هذا الميثاق من قدسية وجلال، وما قرره فى حقوق كل من الرجل والمرأة والأولاد والأقرباء وواجباتهم بعضهم حيال بعض، وتنظيمه لاقتصاديات الأسرة وتوزيع وظائفها وأعبائها بين أفرادها، وتحديد الشخصية المدنية لكل منهم، ومبلغ ما يتمتع به من حرية فى التملك والتعاقد والالتزام، ومدى مسئوليته عن تصرفاته وأعماله وعن أعمال غيره من بقية أفراد أسرته الخاصة وأسرتيه العامتين وهما عاقلته أو عصبته وذوو أرحامه أو أقرباؤه من جهة الأب ومن جهة الأم، والنظم الحكيمة التى قررها بصدد الأرقاء والموالى من الجنسين وعلاقتهم بأسيادهم وحقوقهم وواجباتهم وشئون أسراتهم الخاصة والعلاقة بين السيد ورقيقاته وأولاد الجوارى من أسيادهم ومن غيرهم، والأسس التى أقام عليها شئون البنوة والقرابة والنفقة والرضاع والحضانة وتعدد الزوجات والصلح بين الزوجين والتحكيم فيما ينجم بينهما من خلاف والطلاق والميراث والوصية.. وهلم جرا.

وغنى عن البيان أن المقام لا يتسع للكلام على ما جاء به الإسلام من نظم فى جميع هذه الشئون. هذا إلى أن معظمها قد قتله العلماء بحثاً فى مؤلفات الفقه والشريعة المقارنة وتاريخ النظم الإسلامية، وأصبح الكلام فيه من نافلة القول. ولذلك سنقتصر فى مقالنا على بيان ما جاء به الإسلام من تدعيم لنظام الأسرة فى أربعة مواقف لم يوجه إليها الباحثون من قبلنا عناية كبيرة، ولم يوفوها حقنا من الدراسة، ولم يبينوا مالها من آثار خطيرة فى هذا الصدد: وهى مواقفه حيال نظام «التبنى»، ونظام «الاعتراف بالولد»، ونظامى «الادعاء» و«الخلع» فى القرابة.

مكتبتنا العربية

١ ـ أما نظام « التبنى » فيجيز للإنسان أن يتخذ فردا غير منحدر من صلبه ولداً له ؛ فيعامل هذا الغريب معاملة أولاده أمام القانون والمجتمع وينعم بحقوقهم ، وتقع عليه أعباؤهم وواجباتهم .

وقد عمل بهذا النظام كثير من الأمم فى العصور القديمة والوسطى بشروط وأوضاع تختلف باختلاف الأمم التى أخذت به . وكان العرب فى الجاهلية يطبقونه فى نطاق واسع ؛ حتى لقد كان يندر أن نجد من بين سراتهم وأوساطهم من ليس له ولد أو أولاد بطريق التبنى . ولقد تبنى الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه قبل رسالته زيد بن حارثة ، مع أنه كان معروف الأب والأم . وذلك أن أم زيد هذا قد خرجت به لزيارة أهلها ، فسطا عليها بعض الأعراب وخطفوا منها ابنها ؛ وكان الخطف رافدا من روافد الرق فى الجاهلية . فباعوه بيع الأرقاء مع أنه معروف النسب ومن أسرة عربية عريقة . وظلّ ينتقل من يد إلى يد حتى وقع أخيرا فى يد خديجة . وقد وهبته خديجه لزوجها محمد بن عبد الله ، فأعتقه وتبناه قبل الرسالة .

ولا يخفى ما يؤدى إليه نظام التبنى من اختلاط فى الأنساب ، وتوهين لحرمة القرابة ، وإضعاف لوشائج الدم ، وإفساد لمقومات الأسرة ، وإثارة لعوامل الفتنة والضغينة ، وإضرام لنار الشقاق والنزاع بين العشائر والأسرات .

ولذلك حرمه الإسلام تحريماً قاطعاً ، وأنكره القرآن فى عبارات قوية تنمّ على شدة تعارضه مع الدعائم السليمة التى ينبغى أن يقوم عليها نظام الأسرة الإنسانية : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . . . وما جعل أدعياءكم (١) أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط (٢) عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » (٣) .

ولحرص الإسلام على القضاء على هذا النظام ، وإزالة جميع آثاره ، ولقوة تأصله فى نفوس العرب لم يكتف بإلغائه بالقول ، بل رأى أن يمحوه كذلك بطريق عملى وبفعل الرسول نفسه ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن يتزوج مطلقة زيد بن حارثة الذى كان قد تبناه قبل الرسالة ، ليبين للناس بطريق عملى أنه لا تبنى فى الإسلام ، وأن الدين الجديد قد قضى على هذه القرابة المصطنعة ، ومحا جميع آثارها ، وأحل ما كانت تحرمه ، ومن ذلك زواج الرجل بمطلقة من تبناه ، وذلك أن العرب فى الجاهلية ، لإنزالهم الدعى منزلة الابن من جميع الوجوه ، كانوا يحرمون على من تبناه أن يتزوج بمطلقته كما يحرم على الأب الزواج بمطلقة ابنه من صلبه . فجاء زواج الرسول عليه السلام بمطلقة زيد تقريرا عمليا لإلغاء هذا النظام وما يترتب عليه .

هذا ، وقد تخبط كثير من المؤرخين والمفسرين تخبطا كبيراً فى بيان الأسباب التى دعت الرسول إلى الزواج بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة

(١) المقصود بالأدعياء فى الآية : الذين كان الناس يتخذونهم أولاداً بطريق التبنى .
(٢) أعدل .
(٣) سورة الأحزاب آية ٤ ، ٥ .

مكتبتنا العربية

مع أن القرآن نفسه بيّن بصريح العبارة أن السبب فى ذلك حرص الشارع على القضاء على نظام التبنى ومحو آثاره بطريق عملى بفعل الرسول نفسه . وذلك إذ يقول : « فلما قضى زيد منها وطراً [١] زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا [٢] » ولتوكيد هذا الحكم يقول الله تعالى فى الآية التى بين فيها من يحرم الزواج بهن : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت .. وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » [٣] : أى إن الأبناء الذين يحرم على الآباء الزواج بمطلقاتهم هم الأبناء الذين ينحدرون من أصلابهم لا الذين يجيئون عن طريق الادعاء والتبنى الذى قضى عليه الإسلام .

ولم تستثن الشريعة الإسلامية من ذلك إلا حالة واحدة وهى حالة اللقيط الذى لا يعرف نسبه ؛ فتتيح أن يلتحق نسبه بمن التقطه إذا قبل أن يلتحق نسبه به أو بأى شخص آخر يدعيه إذا لم يدعه الملتقط نفسه (أما إذا ادعاه الملتقط وادعاه فى الوقت نفسه شخص آخر فالملتقط أولى به) ؛ ويصبح فى جميع هذه الأحوال من أولاد من ادعاه ، سواء أكان الملتقط أم غيره ويعامل معاملتهم من معظم الوجوه [٤] .

وقد قصد الإسلام بهذا الاستثناء أن يشجع الناس على حماية اللقطاء وأن يحقق لهؤلاء من رعاية الأسرة وألفة القرابة والتنشئة الصالحة والحقوق المدنية ما لا يمكن أن يتحقق لأمثالهم بدون هذا الإجراء .

* * *

٢ — وأما نظام « الاعتراف بالولد » فيقضى ألا يلتحق نسب الولد بأبيه الشرعى إلا إذا اعترف به اعترافاً صريحاً ورضى أن يلتحق نسبه به . وكان هذا النظام سائدا عند كثير من الأمم فى العصور القديمة والوسطى . فعند قدماء الرومان مثلا كان إذا ولد لعميد الأسرة ولد من زوجه الشرعية وجب تقديمه له ، بأن يوضع على عتبة حجرته ؛ فإذا قام وضمه إلى صدره كان ذلك اعترافا منه ببنوته ، وإذا تركه ملقى على العتبة اعتبر أجنبيا عنه وعن أسرته [١] . وكذلك كان شأن العرب فى الجاهلية . فكانت البنوة فى كثير من عشائرهم لا تثبت لمن يجىء من الزوجة الشرعية إلا باعتراف صريح من الأب .

ولا يخفى ما ينطوى عليه هذا النظام من استهانة بحرمة الزواج ، واستخفاف بميثاقه ، واستبداد بشئون الأسرة ، وإخضاعها لأهواء الأزواج ونزواتهم ، ونيل من كرامة الزوجات . وتعريض الأولاد للضياع ، وحرمانهم من أعز الحقوق الإنسانية وألزمها للحياة ، وتفرقة ظالمة بين الإخوة والأخوات ، وزلزلة عنيفة لدعائم النظام

---

(١) كناية عن طلاقه إياها .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧

(٣) سورة النساء آية ٢٣

[٤] انظر فى ذلك الميدانى على القدورى [المطبعة الأزهرية سنة ١٩٢٧] صفحة ١٩٦ وبدائع الصنائع للكاسانى [مطبعة الجمالية سنة ١٩١٠] الجزء السادس صفحة ١٩٨ .

[١] انظر فى كتابنا فى « الأسرة والمجتمع » صفحتى ١٣ ، ١٤ من الطبعة الثانية .

مكتبتنا العربية

العائلى ومقوماته على العموم .

ولذلك حارب الإسلام هذا النظام فى جميع مظاهره ، ولم يأل جهدا فى القضاء عليه فقرر أن « الولد للفراش » [١] ، أى إن من يجىء من الأولاد ثمرة لفراش صحيح قائم على عقد الزواج يلتحق نسبه بالزوج من غير حاجة إلى اعترافه به اعترافا صريحا . وأخذت الشريعة الإسلامية بهذا المبدأ حتى فى الحالات التى يبدو فيها تعذر اتصال الزوج بزوجه ، كما إذا عقد مشرقى على مغربية بدون أن يتصل أحدهما اتصالا ظاهرا بالآخر ، وظل كل منهما مقيما فى بلده ، ثم جاءت الزوجة بولد بعد انتهاء مدة الحمل الشرعية فإنه يثبت نسبه من الزوج بدون حاجة إلى اعترافه به اعترافاً صريحاً [٢] .

ولم تستثن الشريعة الإسلامية من ذلك إلا من تجىء به الرقيقة التى لم يزوجها سيدها لشخص آخر ؛ فإنه لا يثبت نسبه من سيدها ولا يعتبر ولده إلا إذا اعترف به اعترافا صريحا [٣] . والسبب فى ذلك أن صلة الجارية بمولاها ليست صلة زوجة بزوجها بل صلة مملوكة بمالكها ، وأن هذه الصلة ليست قائمة على ميثاق وتعاقد بل قائمة على ملك اليمين ، وأنه ليس مفروضا دائما أن يعاشر السيد جاريته ويستمتع بها كما هو الشأن حيال زوجته الشرعية ، بل يجوز له ذلك ، ويجوز له أن يزوجها لرقيق مثلها أو لحر [١] ، كما يجوز له أن يقصرها على شئون الخدمة والعمل . فكان من العدالة إذن ألا يلتحق نسب ولدها به إلا بادعائه أى باعترافه اعترافا صريحا بمعاشرته إياها وبأن الولد من صلبه . وقد كان السيد ملزما ديانة ، أى فيما بينه وبين ربه ، أن يعترف بالولد الذى يجىء من معاشرته لرقيقته .

* * *

٣ ، ٤ - وأما نظاما « الادعاء » و « الخلع » فى القرابة فيجيز أولهما لعميد العشيرة أو لمجمع شيوخها أن يضم إليها بطريق الادعاء فردا غريبا عنها فيصبح عضوا فيها ويشارك أفرادها فى مختلف حقوقهم وواجباتهم ، ويبيح له ثانيهما أن يخلع أحد أعضائها الأصليين عن ذمتها ويقطع صلاتها به ، فيصبح « خليعا » أجنبيا عنها من جميع الوجوه .

وقد أقر هذين النظامين أمم كثيرة فى العصور القديمة والوسطى بشروط وأوضاع تختلف باختلاف اتجاهاتها فى التشريع . وكان العرب فى الجاهلية يطبقونهما فى نطاق واسع . وقد شاع

---

[١] حديث نبوى ونصه « الولد للفراش وللعاهر الحجر » وقد ورد فى خطبة الوداع للرسول عليه السلام . ومعنى الجملة الثانية من الحديث أن من يثبت عليها الزنا بالأدلة القاطعة التى قررها الاسلام ينتفى نسب ولدها من زوجها ويجب رجمها بالحجارة .

[٢] انظر فى ذلك مقالا قيما لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت فى عدد ٤٥/١/٢ من جريدة المصرى .

[٣] انظر الميدانى على القدورى صفحة ٢٦٧ ، وبدائع الصنائع ، جزء رابع ، صفحة ١٢٥ .

[١] وفى هذا يقول الله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » [سورة النور ، آية ٣٢] والفعل فى الآية بهمزة قطع من الرباعى بمعنى زوجوهم .

مكتبتنا العربية

لديهم على الأخص نظام « الخليع » ، وكانوا يلجئون إليه فى الغالب لمجازاة أحد أفراد العشيرة لخصال أو أعمال تتعارض مع عرفها أو نظمها أو آدابها أو عقائدها فإذا وقع عليه هذا الجزاء أصبح « خليعا » غريبا عن عشيرته لا تعده من أفرادها ، فلا تؤخذ بجرائر أعماله ولا تثأر له إذا قتل . وقد طلب كفار قريش الذين ضاقوا ذرعا بمحمد عليه السلام وبدينه الجديد إلى عمه أبى طالب أن « يخلعه » حتى يستطيعوا قتله بدون أن يخشوا مطالبة بنى هاشم بثأره [1] .

وجميع ماقلناه فى مثالب نظامى « التبنى » و « الاعتراف » وآثارهما الهدامة وتقويضهما لدعائم الأسرة واعتدائهما على الكرامة والحقوق وإضرامها لنار الفتن والشقاق يصدق أكمل صدق على نظامى « الادعاء » و « الخلع » فى القرابة .

ومن أجل ذلك حرمهما الإسلام تحريماً باتاً كما حرم الظامين الأولين ، وقرر أن القرابة ليست هبة تمنح ولا رداء يخلع ، وليست خاضعة لإرادة الناس ولا لأهوائهم ، وإنما هى وشيجة دم لا يلغيها من لم تعطها له الطبيعة ، وعروة وثقى تنبعث عن لحمة النسب ولا تنفصم عمن امتزجت به .

ولم تستثن الشريعة الإسلامية من ذلك إلا حالتين ، أوجبت فى إحداهما قرابة غير قائمة على صلات الدم ، وأجازت فى الأخرى هذا النوع من القرابة ، مراعية فى هذه وتلك صالح الأفراد والصالح العام .

وأما إحداهما فتتمثل فى نظام «مولى العتق» ، وهو الذى يصبح بمقتضاه العبد بعد عتقه فى نظر الإسلام ، عضواً فى أسرة سيده يشترك مع أفرادها فى كثير من حقوقهم وواجباتهم ، حتى لقد كان يجب عليها أن تدفع عنه الدية ، إذا ارتكب جناية توجب الدية ، كما تفعل ذلك حيال أعضائها الأصليين ، وكان سيده يرثه إذا مات ولم يترك عصبة . وقد قصد الإسلام من ذلك إلى غرض إنسانى سام وهدف عمرانى نبيل ، وهو أن يكمل نعمة الحرية للعبد بعد تحريره ، فيجعله مساويا فى الحقوق والواجبات لأفراد الأسرة التى كانت تملكه ، ويجعل له من هذه الأسرة درعا تحمى حريته الطارئة وتدرأ عنه ما عسى أن يوجه إليه من عدوان ، ويسبغ عليه فوق هذا وذاك صفة من أهم الصفات الاجتماعية التى يمتاز بها الحر عن العبد إذ لا يعد الأول عضواً فى أسرة وعشيرة بينما يعد الثانى فرداً لا أسرة له ولا عشيرة . [1]

وأما الأخرى فتتمثل فى نظام «مولى الموالاة» ، وذلك أن الشريعة الإسلامية تجيز لغير العربى إذا كان مجهول النسب أن يتخذ له وليًّا من أسرة

[1] لم يذعن أبو طالب لرغبتهم هذه . ولما علموا ببيعة الأنصار له اتفقوا على أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلدا ويذهب هؤلاء الفتيان إلى محمد ويقتلونه معا ، وبذلك يتفرق دمه بين القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على محاربة جميع العرب . ولكن الله تعالى كتب لرسوله النجاة ولدينه البقاء بهجرته مع صاحبه إلى المدينة فى اليوم نفسه المحدد لتنفيذ جرمهم .

[1] أنظر فى موضوع « مولى العتق » الميدانى على القدورى ٢٧٤ - ٢٧٦ ، والبدائع الجزء الرابع ١٥٩ - ١٧٠

مكتبتنا العربية

جهود العلماء المسلمين فى ميدان العلوم

للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

الرأى عند الثقات أن العلم الإسلامى قد بلغ أوج ازدهاره فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى . وهم يدللون على ذلك بكثرة العلماء الفطاحل فى ذلك العصر وقوة الابتكار التى تظهر فى أعمالهم ، وفى تميز نتاجهم العلمى عن علوم اليونان والهند وغيرها من الأمم السالفة التى كان العرب ينقلون عنها فى مبدأ الأمر . ومعنى ذلك أن العلم الإسلامى كان قد تأصل فى بيئته وأينع وأثمر ولم يعد عالة على غيره وغدا قائما بنفسه مبدعا بذاته .

وربما يتساءل المرء عن القيمة الحقيقية للتقدم العلمى عند العرب ، وخاصة إذا قورن بالعلم الحديث ، فكلنا يعلم أن العلم الأوربى الحديث قد أنتج للبشرية الكهرباء والطائرات والراديو وأنواع العلاج الطبى والمستحدثات الزراعية والصناعية ووسائل الترفيه والتسلية وأدوات الهلاك والدمار . فلنا أن نسأل هل أنتج العلم العربى قديما ما يقارن بمستحدثات العلم الحديث ؟ والجواب بالنفى . ولكن يلزم أولا لتقدير قيمة العلم العربى الحقيقية أن نوضح الفرق بين العلم القديم والحديث .

١ - العلم قديما وحديثا :

إن العلم الحديث أشبه شىء بجبل الثلج الطافى الذى يظهر منه فوق سطح الماء جزء ويختفى منه تحت الماء تسعة أجزاء ، فالناس عامة يرون من العلم الاختراعات والابتكارات والمستحدثات التى تتصل بحياتهم اليومية أو بثقافتهم العادية وهذا هو العشر الظاهر ، أما الذى لا يظهر لهم فهو الأسس النظرية والعملية للمعرفة العلمية والجهود المضنية التى يبذلها مئات العلماء فى خلال عشرات السنين فى البحث والدرس والتنقيب وإعمال الفكر وعصر الذهن ، سعياً وراء المعرفة وتجميعاً لكل دقيق من خيوطها والعمل الأخير - وهو الأهم فى العلم - لا يقدره الناس عامة حق قدره ، لأنه غير ظاهر أمام أعينهم ، فلو قلت لهم مثلا إن عالما جليلا فى معهد علمى أجنبى قضى طيلة حياته يدرس طبائع نوع واحد من أنواع الحشرات وأنه أصبح حجة فى هذا الفرع وأنه منح لذلك أكبر الجوائز العلمية ، إذا قلت ذلك فللقارىء العادى أن يعجب من غرابة أطوار

معروفة ، يرتبط معه بعقد صريح ، فيصبح بمنزلة عضو فى أسرة هذا الولى ، يدفع عنه الولى الدية إذا ارتكب جناية توجب الدية ويرثه إذا مات ولم يترك وارثاً . ويسمى من يكتسب قرابته عن طريق هذا العقد « مولى الموالاة »[1] . - وقد قصد الإسلام من هذه الرخصة أن يحقق للمستضعفين من الناس سنداً وحماية فى المجتمع الذى يعيشون فيه . ولذلك لم يبحها إلا لشخص غير عربى مجهول النسب ، لأن العربى ليس فى حاجة إلى هذه الحماية ، لأنه محمى بعشيرته وذو النسب المعروف من غير العرب ليس فى حاجة إليها كذلك ، لأنه فى ظلال أسرته ، وانتماؤه لغيرها يؤدى إلى اختلاط الأنساب واضطراب الأسس التى يقوم عليها نظام القرابة .

على عبد الواحد وافى

---

[١] انظر فى موضوع « مولى الموالى » : الميدانى على الفدورى ٢٧٦ ، والجزء الرابع من البدائع ١٧٠ - ١٧٣ .

مكتبتنا العربية

جهود العلماء المسلمين فى ميدان العلوم

للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

الرأى عند الثقات أن العلم الإسلامى قد بلغ أوج ازدهاره فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى . وهم يدللون على ذلك بكثرة العلماء الفطاحل فى ذلك العصر وقوة الابتكار التى تظهر فى أعمالهم ، وفى تميز نتاجهم العلمى عن علوم اليونان والهند وغيرها من الأمم السالفة التى كان العرب ينقلون عنها فى مبدأ الأمر . ومعنى ذلك أن العلم الإسلامى كان قد تأصل فى بيئته وأينع وأثمر ولم يعد عالة على غيره وغدا قائما بنفسه مبدعا بذاته .

وربما يتساءل المرء عن القيمة الحقيقية للتقدم العلمى عند العرب ، وخاصة إذا قورن بالعلم الحديث ، فكلنا يعلم أن العلم الأوربى الحديث قد أنتج للبشرية الكهرباء والطائرات والراديو وأنواع العلاج الطبى والمستحدثات الزراعية والصناعية ووسائل الترفيه والتسلية وأدوات الهلاك والدمار . فلنا أن نسأل هل أنتج العلم العربى قديما ما يقارن بمستحدثات العلم الحديث ؟ والجواب بالنفى . ولكن يلزم أولا لتقدير قيمة العلم العربى الحقيقية أن نوضح الفرق بين العلم القديم والحديث .

١ - العلم قديما وحديثا :

إن العلم الحديث أشبه شىء بجبل الثلج الطافى الذى يظهر منه فوق سطح الماء جزء ويختفى منه تحت الماء تسعة أجزاء ، فالناس عامة يرون من العلم الاختراعات والابتكارات والمستحدثات التى تتصل بحياتهم اليومية أو بثقافتهم العادية وهذا هو العشر الظاهر ، أما الذى لا يظهر لهم فهو الأسس النظرية والعملية للمعرفة العلمية والجهود المضنية التى يبذلها مئات العلماء فى خلال عشرات السنين فى البحث والدرس والتنقيب وإعمال الفكر وعصر الذهن ، سعياً وراء المعرفة وتجميعاً لكل دقيق من خيوطها والعمل الأخير - وهو الأهم فى العلم - لا يقدره الناس عامة حق قدره ، لأنه غير ظاهر أمام أعينهم ، فلو قلت لهم مثلا إن عالما جليلا فى معهد علمى أجنبى قضى طيلة حياته يدرس طبائع نوع واحد من أنواع الحشرات وأنه أصبح حجة فى هذا الفرع وأنه منح لذلك أكبر الجوائز العلمية ، إذا قلت ذلك فللقارىء العادى أن يعجب من غرابة أطوار

معروفة ، يرتبط معه بعقد صريح ، فيصبح بمنزلة عضو فى أسرة هذا الولى ، يدفع عنه الولى الدية إذا ارتكب جناية توجب الدية ويرثه إذا مات ولم يترك وارثاً . ويسمى من يكتسب قرابته عن طريق هذا العقد « مولى الموالاة »[1] . - وقد قصد الإسلام من هذه الرخصة أن يحقق للمستضعفين من الناس سنداً وحماية فى المجتمع الذى يعيشون فيه . ولذلك لم يبحها إلا لشخص غير عربى مجهول النسب ، لأن العربى ليس فى حاجة إلى هذه الحماية ، لأنه محمى بعشيرته وذو النسب المعروف من غير العرب ليس فى حاجة إليها كذلك ، لأنه فى ظلال أسرته ، وانتماؤه لغيرها يؤدى إلى اختلاط الأنساب واضطراب الأسس التى يقوم عليها نظام القرابة .

على عبد الواحد وافى

---

[١] انظر فى موضوع « مولى الموالى » : الميدانى على الفدورى ٢٧٦ ، والجزء الرابع من البدائع ١٧٠ - ١٧٣ .

مكتبتنا العربية

العالم ولعله يحكم عليه بالشذوذ أو الجنون ، ولعله يأسف على ما بذل من جهد وما ضاع من مال سعياً وراء طبائع إحدى الحشرات . ولكنك إذا قلت له بعد ذلك إن تلك الحشرة عندما درست حياتها كشفت الطريق أمام الباحثين فعرفوا المبيدات الحشرية وأنقذوا محاصيل زراعية تقدر بمئات الملايين من الجنيهات ، عندئذ لا يستكثر المرء أى جهد ولا يستقل أى نتيجة يصله إليها العلماء ، فالعلم الظاهر للجمهور يسبقه ويرتبط به علم كثير لا يقدره الجمهور .

والآن نرجع إلى العلم الحديث فنقول : إنه سريع التطور والارتباط بالمجتمع ، بينما العلم القديم كان بطىء التطور ضعيف الارتباط بالمجتمع . انظر مثلا إلى (أبى سهل الكوهى) عندما يكتب إلى (أبى إسحاق الصابىء) قائلا :

« وأما مراكز الأثقال فيبقى منها شىء يسير حتى يتم ست مقالات متوالية ، أربع منها عملتها هاهنا بالبصرة ، واثنتان ببغداد . أما فى أربع المقالات التى عملتها هاهنا فقد ظهر لنا فيه أشياء عجيبة يدل كلها على نظم أفعال البارى عز وجل . منها . . . ثم يسترسل فى بيان مراكز أثقال الأشكال المسطحة والمجسمة المختلفة بنتائج بديعة إنها نتائج علمية صحيحة كانت مبتكرة فى حينها واعتبرت أساساً لكل البحوث التى أتت من بعدها إلى العصر الحديث . ولكنها بحوث لم تؤد حينئذ بذاتها إلى أى اختراع عملى ، فلم تظهر قيمتها للعامة . ولكن العلماء يقدرونها حق قدرها وهى اليوم من أسس علم الميكانيكا وتوازن الأجسام الذى هو بدوره ركن من أركان الحضارة الحديثة كلها .

فالحق يقال إن أبا سهل الكوهى قد أضاف نتائج من ابتكاره إلى حقائق علم مراكز الأثقال وإنه بذلك قد ساهم فى وضع أساس علم توازن الأجسام الحديث الذى يستعمل كل يوم فى صناعة الطائرات والسفن وكل قائم أو دائر من الآلات والمنشآت .

وهذا بيان ما نقوله بأن العلم القديم كان بطىء التطور ضعيف الرابطة بالمجتمع المعاصر له ، أما إذا نظرنا إلى العلم الحديث ، فإننا نجد مثلا أن فطر (البنسيلين) يعرف فى المخترعات العلمية وتتضح خصائصه الحيوية ، ثم لا تمضى بضعة سنوات حتى يكون منها دواء شاف يستعمله الناس تعم به الفائدة ويصير اسمه على كل لسان ، ذلك أن العلم فى المجتمع الحديث سريع التطور قوى التفاعل وثيق العرى ، ولم يكن الأمر كذلك من قبل .

فإذا تكلمنا اليوم عن العلم الإسلامى أو العلم اليونانى فنكون قد حدنا عن جادة الصواب إذا سلكنا فى تقديره سبيل البحث عن الاختراعات والابتكارات التى نتجت عنه . فالزراعة والطب والهندسة والملاحة عند العرب وهى كلها فنون عملية كانت لا تعتمد على نتائج العلم المعاصر لها فى أغلب الأمر ، إنما كانت تستمد معرفتها من العلم القديم الذى سبقها بعشرات القرون وكان قد تأصل فى المجتمع كحزمة يتوارثها أصحاب الصنائع والحرف .

وأولى بنا أن ننظر إلى علم الأقدمين لنقدر ما فيه من قدرة عقلية على الابتكار وما فيه من جهد ذهنى وتفكير صحيح .

ولما كان العلم القديم منفصلا عن التطبيق العملى إلى حد كبير ، فإنه كان يقوم إما على رغبة

مكتبتنا العربية

العلماء أنفسهم فى الانقطاع له والعكوف عليه دون انتظار جزاء أو أجر، أو كان يقوم على تشجيع الأمراء والخلفاء ونصراء العلم والمعرفة. فلم يكن الانقطاع للعلم حرفة يتكسب بها المرء عن سعة إلا إذا تلقفته أيدى السراة وأولى النفوذ من الحكام والولاة. وبذلك نشأ علم (البلاط) أى العلم الذى يتحايل به العلماء للبقاء فى حاشية الأمراء. فكان من العلماء من يدرس التطبيب ومنهم من يدرس التنجيم ومنهم من يسعى وراء إكسير الحياة أو حجر الفلاسفة، وكل هذه مباحث زائفة ولكنها محببة إلى الولاة والأمراء الذين يبغون طالعاً سعيداً أو كنوزاً من الذهب أو هبة تطيل العمر وتمد لهم فى حبل الحياة.

وهكذا اختلط العلم القديم دائماً بعلوم زائفة، فاختلط الطب الصحيح (بفوائد) سحرية وأحجبة وتمائم، واختلط علم الفلك الصحيح بالتنجيم والكشف عن الغيب ومعرفة الطالع، كما اختلط علم المعادن والكيمياء بأبحاث إكسير الحياة وحجر الفلاسفة الذى يحيل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة (*).

وخلاصة القول أن على الباحث فى علم الأقدمين أن يقدر أنه علم منفصل عن المجتمع الذى يعاصره وأنه حينما يتصل بالمجتمع يختلط به علم فاسد كثير، فإذا قدر هذا كله واستصفى ما تبقى فإنه يجد كنوزاً من المعرفة الصحيحة ودرراً من العلم فريدة. جعلت الثقات من العلماء يعترفون بلا مراء أن التراث العلمى عند العرب لهو ما تعتز به الحضارة وأنه بلغ أوج ازدهاره فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى.

٢ — العلم عند العرب:

إن العالم المبتدىء إذا رغب اليوم فى بحث موضوع يبدأ أول ما يبدأ فى الاطلاع على بحوث من سبقوه فى دراسة نفس الموضوع، فإذا حصل على ذلك زاد على علمهم وأضاف إلى نتائجهم. وهذا هو المنهج الذى تبعه علماء العرب، فقد بدأوا بالاطلاع على كتب الأقدمين، وخاصة اليونان والهنود الذين كانت لهم حضارة علمية زاهرة سابقة على عهد العرب بقرون عدة وكانت تلك المؤلفات بلغات غير اللغة العربية، ولذلك لزم ترجمتها وتعريبها، فكانت المرحلة العلمية الأولى عند العرب هى الترجمة والنقل. ولا ضير فى هذا، بل هذا هو عين الصواب. وقد تم النقل فى صور مختلفة؛ فوجدت مدارس للترجمة فى صدر الدولة العباسية وأرسلت البعوث إلى بيزنطة غرباً والهند شرقاً لتستحضر نفائس المخطوطات للتعريب.

وكانت الترجمات الأولى فى الغالب ركيكة الأسلوب، سقيمة معقدة غير واضحة، ولم يكن المترجمون أنفسهم فى العادة قادرين على استيعاب ما فيها أو مناقشته، فكثرت فيها الأغلاط ولزم إعادة ترجمتها وشرحها شرحا وافياً (*).

---

[*] ولا يحسبن المرء أن الأقدمين وحدهم هم الذين خلطوا العلم الصحيح بعلم فاسد، إذ أننا نجد فى عصرنا الحاضر حكاماً أذلوا العلم وأفسدوه أيما إفساد. وأقرب مثل على ذلك نظرية الجنس والدم الآرى الذى أوجدتها النازية على غير أساس صحيح تدعيما لمبادئها السياسية.

[*] حكى عن الفارابى أنه قرأ كتاب النفس لأرسطو مائتى مرة وذكر ابن سينا عن نفسه أنه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة أربعين مرة من غير أن يفهم ما فيه.

مكتبتنا العربية

وكان العلم عند العرب يكتب للخاصة ممن يتدارسوه، وكانت المخطوطات تنسخ وتجلد لتوضع كالنفائس والدرر فى خزائن كتب الأمراء، فراجت تجارة استجلاب المخطوطات الصحيحة والزائفة سواء بسواء، بل إن الكثيرين من الكتاب والمؤلفين كانوا يصنعون الكتب بأنفسهم وينسبونها إلى علماء من الهنود أو إلى حكماء اليونان حتى يزيد قدرها فى سوق المعرفة وتنال حظوة ويسعى إليها الساعون. والمؤلفات المنسوبة إلى هرمس الحكيم وحده دليل على ذلك.

وهكذا ضاعت معرفة كثيرة من التى نقلت نظراً لعقم الترجمة وكثرة الأخطاء، كما ضاعت معرفة كثيرة مبتكرة كان الفضل فيها للعرب بأن نسبت إلى حكماء أقدمين اكتساباً للشهرة والتجارة.

ثم انتهى دور النقل والاتباع وجاء دور الإنتاج والإبداع. فوضعت الشروح لأمهات الكتب العلمية وكانت تلك الشروح تتضمن عادة الكثير من المعرفة المبتكرة، وانتشر العلماء فى الدولة الإسلامية فكانت منهم فئة بالأندلس وأخرى بالقاهرة وثالثة بالشام ورابعة ببغداد والبصرة وأخرى فى فارس وبلاد المشرق الإسلامى، وكان العلماء يتنقلون بين كل هذه العواصم وإن الثقافة الإسلامية كانت تجمعهم معاً وكانوا يتراسلون فيما بينهم ويتطارحون المسائل العلمية ويتبادلون المؤلفات والمحفوظات فكانت وحدة إسلامية علمية على الرغم من تفكك الدولة ذاتها وانقسامها إلى خلافات متنافرة ودويلات متناصرة.

وقد بقى منار العلم مضاء فى الدولة الإسلامية خمسة قرون أو تزيد، ثم خبا نوره وتلقفه منهم الإفرنجة فى أوروبا. وقد بدأ الأوربيون نهضتهم العلمية بالطريقة التى بدأها بها العرب، أى بالنقل والترجمة عن العرب والاطلاع على الكتب القديمة. ومما يسر لهم ذلك اتخاذهم اللاتينية لغة للتخاطب فيما بينهم ودراستهم اليونانية كلغة أصلية لمصادر علمية كثيرة.

ولكن علماء أوروبا منذ أواسط القرن السابع عشر، كانوا قد انتقلوا إلى مرحلة جديدة من مراحل العلم، هى ارتباطه بمسائل المجتمع والحياة وازدياد ترابطه بها وتفاعله معها، وفى تلك المرحلة تقدم العلم تقدما كبيرا وارتقى رقيا مضطردا لا زلنا نلمس آثاره كل يوم حتى الآن.

أما العلم عند العرب فقد بلغ القمة بعد أن كانت الدولة ذاتها قد أخذت فى التدهور والانحدار وبدأ الترك والتتار فى المشرق والإفرنجة والبربر فى المغرب ينتقصون من أطراف تلك الدولة وهؤلاء لم يكونوا أصحاب ثقافة قديمة ولم تكن لهم بالعلم حاجة ولم يكنوا له من التقدير والإجلال مثلما كان يفعل الأمراء والخلفاء فى عهد الدولة الإسلامية (*) لذلك خبا نور العلم ولم يدخل فى مرحلة التطبيق العلمى والتفاعل مع المجتمع كما حدث للعلم الأوربى الحديث.

والناظر فى تاريخ المعارف اليونانية قد يجد شبيها بذلك، إذ أن العلم الإغريقى بلغ الذروة فى

---

[*] كان العلماء العرب لا يسمح لهم بالرصد إلا إذا أقسموا يمينا بأن يكونوا أمناء فيها صادقين فى إثبات المشاهدة.

مكتبتنا العربية

فى التقدم ، بعد أن كانت الدويلات الإغريقية ذاتها قد بدأت تنهار سياسياً أمام سطوة الرومان ذوى البطش والجبروت الذين عندما دانت لهم البلاد لم يساهموا هم أنفسهم بكثير أو قليل فى الحركة العلمية ذاتها وبقيت مراكز العلم القليلة قائمة فى الإسكندرية وفى جزائر البحر الأبيض وهى كلها معاقل متفرقة للمعرفة اليونانية لم تلبث طويلا حتى لحقها طوفان الرومان فعفت آثارها واندثرت من الوجود .

نذكر هذه الأمثال لنبين للقارىء أن تقدم العلوم عند العرب كان تقدما حقيقيا لا شك فيه ، وأنه كان عظيم الأثر فى تطور العلم وانتقاله إلى أوروبا وأن العلم الأوروبى الحديث عندما بدأ اتخذ عين الخطة التى انتهجها علماء العرب والإغريق من قبل وهى النقل والاستيعاب ، وأخيرا أن أهم ما يميز العلم الأوروبى الحديث عن العلم فى مراحله القديمة هو سرعة تطوره وارتباطه الوثيق العرى بواقع الحياة وتفاعله مع المجتمع . الشىء الذى لم يهيأ من قبل لا للعلم الإغريقى ولا للعلم الإسلامى .

ولكن يقتضينا واجب الإنصاف أن نزيد أن العلم العربى اتصل بالمجتمع وتفاعل معه فى بعض النواحى مثل الفلك والجبر والطب ، ففى الفلك درست مواقيت الصلاة والملاحة البحرية واستمدت العرب فى هذا العلم معرفة كانت تطبق فعلا فى أغراض عملية وكانت ضرورة تحديد المواقيت وتنظيم الأعياد فى ذاتها حافزاً للعلماء للتبحر فى هذا العلم .

أما الجبر والحساب فلعل الباحث يجد نشأته فى مسائل المواريث وهى ضرورة دينية جعلت العلماء يبتغون سبيلا إلى حل مسائلها العويصة فوجد علم الرمز ثم الجبر والمقابلة . وفى الطب استخدم العرب نباتات كثيرة لم تكن معروفة لدى الإغريق أو السريان ، ونقلوا معرفة الهند الطبية وتبحروا فى الرمد وجراحة العيون خاصة نظراً لانتشار أمراض العين فى بيئتهم الصحراوية .

وهذه الملاحظات على صحتها لا تغير مما سبق أن أوردناه من أن العلم العربى إذا قورن بالعلم الحديث يبدو منفصلا عن الحياة الاجتماعية .

٣ — أكبر علماء العرب :

ونورد فيما يلى تراجم مختصرة لأربعة من فطاحل علماء العرب فى صدر القرن الحادى عشر الميلادى الذى كان بحق العصر الزاهر للعلم العربى . وكانت الخلافة الفاطمية بمصر ، بينما قامت الدولة الإسلامية فى الأندلس ودويلات وإمارات بنى بويه والغزنويين وغيرهم فى المشرق وفارس .

(١) ابن يونس المصرى

أما من القاهرة فبزغ نجم ابن يونس الذى ولد فى مصر وتوفى فيها عام ١٠٠٩ ميلادية . وهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى . اشتغل بالفلك فى مرصد بنى له على جبل قرب الفسطاط وجهز بكل مايلزم من الآلات والأدوات ، وأمره العزيز أن يصنع زيجاً ، فبدأ به فى أواخر القرن العاشر للميلاد وأتمه فى عهد الحاكم بأمر الله وسماه

مكتبتنا العربية

(الزيج الحاكمى) وصفه ابن خلكان بأنه « زيج كبير رأيته فى أربعة مجلدات ولم أر فى الأزياج على كثرتها أطول منه » ورصد ابن يونس الخسوف والكسوف واقتران الكواكب وأثبت بالرصد تزايد حركة القمر .

وينسب إلى ابن يونس أنه أول من استعمل (الخطار) بندول الساعة الدقاقة ، وبذلك سبق غاليليو بستة قرون . وبرع فى حساب المثلثات وقد حل أعمالا صعبة فى المثلثات الكردية وحسب جداول ستينية واخترع حساب الأقواس وكذلك اخترع آلة الربع ذى الثقب .

ويقول عنه بعض معاصريه إنه كان شاذ الطباع يضع رداءه فوق عمامته إذا ركب ضحك منه الناس لسوء حاله وشذوذ لباسه ، ولكن كان له مع هذه الهيئة إصابة بديعة غريبة فى النجامة لا يشاركه فيها غيره ، وكان متفننا فى علوم كثيرة .

(٢) ابن الهيثم

هو أبو على الحسن بن الحسن بن الهيثم . ولد عام ٩٦٥ بالبصرة ، وعاش فى مصر فى خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمى (٩٩٦ - ١٠٢٠) وتوفى بالقاهرة عام ١٠٣٩ ويعتبر بلا منازع أكبر علماء الطبيعة فى الإسلام ومن أعظم الباحثين عن علم الضوء فى تاريخ البشرية جمعاء ، اعترف بالفضل له المحدثون والقدماء على السواء . قال ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء :

« كان ابن الهيثم فاضل النفس قوى الذكاء متفننا فى العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه . وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد . . . »

وجاء فى كتاب تراث الإسلام « إن علم البصريات وصل أعلى درجة من درجات التقدم بفضل ابن الهيثم » وقد درس الأستاذ مصطفى نظيف ، أخيرا حياة ابن الهيثم العلمية دراسة مستفيضة فى مجلدين نالا تقدير العلماء فى مصر والخارج ، وكشف فيها عن مقدرة ابن الهيثم العلمية ، وبحوثه المفيدة التى بقيت نبراساً لعلماء أوربا خمسة قرون متوالية .

جاء فى كتب التاريخ أنه نقل إلى حاكم مصر أن ابن الهيثم وهو فى البصرة قال « لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان . . . »

فازداد الحاكم شوقا وسير إليه سراً جملة من المال ورغبه فى الحضور ، فسافر نحو مصر ولما أتاها ودرس أحوال النيل تحقق لديه أن ما يقصده غير ممكن ففترت عزيمته وانكسرت همته « ووقف خاطره ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبلى مدينة أسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، فعاينه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يمشى على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ فيما وعد به وعاد خجلا منخذلا واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه . . . » ثم بعد ذلك أحيطت حياته بصعوبات كثيرة ، وخشى الحاكم بأمر الله الفاطمى « الذى كان مريقاً للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله . . » فتظاهر بالجنون والخبال . . ولم يزل على ذلك إلى أن تحقق من

مكتبتنا العربية

وفاة الحاكم فأظهر العقل ، وعاد سيرته الأولى وخرج من داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر مشتغلا بالتصنيف والنسخ والإفادة .

وأهم مؤلفات الحسن بن الهيثم هو كتاب المناظر، الذى درس فى أوروبا قرونا عديدة وتأثر بتعاليمه باكون وكبلر وغيرهما من كبار العلماء الأوروبيين الأوائل . وتعتبر دراسته فى تركيب العين وكيفية الإبصار أهم ما عرفته الإنسانية فى حقبة طويلة تمتد حوالى العشرين قرنا .

وقد حاول مقياس ارتفاع جو الأرض بدراسة الشفق عند الفجر وعند الغسق، وحل مسائل رياضية معقدة بطرائق مبتكرة وشرح ظاهرة قوس قزح وظواهر ضوئية كثيرة . وله دراسات فلكية فى الانكسار وأرصاد مختلفة متنوعة . وفى أواخر أيامه كان يعتكف فى قبته أيام الأزهر ينسخ كتبه ويبيع منها بما يقيم أوده ويتيسر له العيش .

(٣) البيرونى

هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيرونى الخوارزمى ولد فى خوارزم عام ٩٧٣ ميلادية ثم النحق بشمس المعالى قابوس وأصبح بعد ذلك ذا حظوة لدى بنى مأمون ملوك خوارزم، ثم ارتحل إلى الهند . ويقال إنه مكث فيها أربعين سنة . واستفاد البيرونى من فتوح الغزنويين للهند والمرجح أنه توفى فى خوارزم عام ١٠٤٨ م .

والبيرونى أقرب مثل لشخصية العلماء الباحثين الموفقين ، فقد كانت حياته كلها بحث وملاحظة وتنقيب ، اشتغل بالرياضيات والفلك وبالتاريخ وبالجغرافية وبعلم المعادن والطبيعة . وله أعمال فى التاريخ الطبيعى والجيولوجى وكانت ثقافته العلمية واسعة وقدرته عظيمة وكان يحسن السريانية والسكريتية والفارسية والعبرية عدا العربية كان حر التفكير راغباً فى المعرفة يقبل على الدراسة . سافر إلى الهند فكتب عن تاريخها وجغرافيتها ونباتها وأنهارها وأهلها ودرس الفلسفة الهندية دراسة عميقة كاملة ، فكان أول من عنى بذلك من علماء الإسلام ، فكأنه كان وحده بعثة علمية كاملة أحاطت بكل علم الهند وما فيها . فسبق بذلك نابليون عند ما قدم إلى مصر واصطحب معه بعثة من أكبر علماء فرنسا مسحت مصر وسجلت مشاهداتها العلمية فى سفر جليل عرف باسم (وصف مصر) لا زال حتى اليوم من أعظم مفاخر العلم الفرنسى ومن أهم مراجع العلم والثقافة فى مصر .

يقول سخاو العالم الألمانى : إن البيرونى أكبر عقلية عرفها التاريخ ، واعتبره سارطون أعظم العلماء فى عصره قاطبة ، ووضعه فى مركز الصدارة بين علماء القرن الحادى عشر ومن بعده الرئيس ابن سينا وابن الهيثم وابن يونس والكرخى وغيرهم ولا يتسع المجال هنا لتفصيل كل كتابات البيرونى ومؤلفاته العديدة التى يربى عددها على المائة والعشرين . وقد أوضح فيها كيف أخذ العرب الترقيم عن الهند وهى الأرقام التى عرفت عند العرب بالأرقام الهندية ، ثم انتقلت إلى أوروبا حيث تعرف حتى اليوم بالأرقام العربية تمييزاً لها عما سبقها من أرقام لاتينية كانت مستعملة قديماً .

(٤) ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو على الحسن بن عبد الله ابن سينا . ولد فى بخارى عام ٩٨٠م وتوفى فى همذان

مكتبتنا العربية

عام ١٠٣٧م . فكان معاصراً للبيرونى وكان بينهما اتصال وتراسل . ويعرف ابن سينا بأنه فيلسوف العرب الأول وأرسطو الإسلام . وهو مؤلف كتاب الشفاء الذى يقع فى ١٨ مجلداً ضخماً ، ثم يعرف بموسوعته الكبرى الطبية المعروفة باسم (القانون) وهو مؤلف ضخم فيه أكثر من مليون كلمة (أو أكثر من ٢٥٠٠ صفحة من قطع مجلة الأزهر) جمع فيه كل المعارف الطبية ونقل إلى اللغة اللاتينية وبقى مرجعا للبحث والدراسة هناك حتى القرن السابع عشر . وله مقالات عديدة وكتب فى الرياضيات وفى الفلك وفى الطبيعة والموسيقى والتقاويم وآلات الرصد وخراج الممالك وتدبير الجند وأرزاقهم (أى المالية والإدارة الحربية) وقد ضرب بسهم وافر فى كل فرع من هذه الفروع .

وكان ابن سينا فيلسوفا ينظر إلى كليات المسائل وينظمها نظما منطقياً فلسفياً ترضاه نفسه ويستريح إليه فؤاده ، فلزم أن يكون محيطاً بالمعرفة ولذلك كتب موسوعات كاملة فى الطب والفلسفة والعلوم ولكنه إذا قورن بالبيرونى فى المسائل العلمية يبدو أقل اهتماما بالتعرف على الحقائق والتنقيب عن المعارف وأكثر اتجاها إلى تقنين المعرفة وتركيبها معاً تركيباً نظامياً منطقياً . بينما كان البيرونى منقبا عن دقائق الأشياء محباً للكشف والمخاطرة شغوفا بالمسائل الفرعية يحللها تحليلا كاملا .

٤ — خاتمة

من هذا يتضح أن علماء القرن الحادى عشر الميلادى من المسلمين كانوا فى مقدمة علماء عصرهم وأنهم إذا قورنوا بفطاحل العلماء فى تاريخ العالم تكون لهم المكانة المرموقة ومركز الصدارة ، وأنهم بذكائهم واجتهادهم قد أحاطوا بالمعارف السابقة إحاطة شاملة ، ثم صنفوا التآليف المطولة المفصلة التى بقيت بعدهم مرجعاً لكل باحث وقرآناً لكل عالم خمسة قرون أو أكثر ، حتى استرجعت أوروبا فى نهضتها علم العرب والإغريق وبدأت تزيد عليه زيادات كبيرة .

فالقول بأن العرب لم يكونوا سوى نقلة للعلوم القديمة وحفظة لها من يد الضياع قول مردود . والدليل على ذلك ، تلك الإضافات والبحوث المبتكرة التى تزخر بها المؤلفات العلمية الإسلامية الكثيرة التى لم تدرس بعد كلها دراسة وافية . وما درس منها يكشف دائما عن إضافات مبتكرة وحقائق كانت خافية . ولعل واجب الأمانة أو الرغبة فى اكتساب قدسية القوم كانت تفرض على علماء العرب ألا يبخسوا القدماء حقهم من الذكر عند تحرير مؤلفاتهم ، فالمتصفح لها قد يبدو له لأول وهلة أن معظم ما فيها منقول عن السابقين والأمر فى الحقيقة بخلاف ذلك .

ويجدر بنا أن نقول : إن الإسلام كدين لم يكن عائقا أمام هؤلاء العلماء فى طريق العلم والمعرفة ، وأن الحضارة الإسلامية كانت تقبل بل وتشجع كل معرفة وثقافة ، فالذين يودون اليوم نهضة علمية فى البلاد ، لهم أن يطمئنوا إلى أن الإسلام الصحيح لا أثر فيه للرجعية فى التفكير ولا يحد العقل عن الانطلاق .

ابراهيم علمى عبد الرحمن

مكتبتنا العربية

فتوح الذوق الإسلامى فى الفنون

خصائص العمارة الإسلامية

للأستاذ حسن عبد الوهاب
المفتش الأول للآثار العربية

كانت الفتوحات الإسلامية سبباً فى نشأة العمارة الإسلامية. ولقد نجح العرب فى تعريب الأقطار التى افتتحوها حيث امتزجوا فى أهل البلاد وتعلموا منهم الزراعة والصناعة وذلك بعكس ما اتهموا به من أنهم لم يمارسوا زراعة ولا صناعة. ويدحض هذا الرأى إجابة عمرو بن العاص على سؤال عمر بن الخطاب حينما سيسأله من أين لك هذا «... وإنى أعلم أمير المؤمنين أنى بأرض السعر فيه رخيص وإنى أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج اهله».

ولا شك فى أن المسلمين فى صدر دولتهم استعانوا بعباقرة الصناعة وغيرها ممن وجدوهم فى الأقطار التى افتتحوها، كما أنه كان من بينهم عدد من ذوى الصناعات لأنهم لم يكونوا كلهم من البادية كما توهم الكثير. بل كان منهم من اليمن والشام. وهى بلاد لها حضارات عريقة.

ويبدو لى أن استعانتهم بصناعى تلك البلاد فى مستهل فتوحاتهم كان غالباً فى المنشآت المدنية. ولذلك نرى كل المساجد الجامعة عند نشأتها فى صدر الإسلام كانت مثالا للبساطة لا أثر للفن المعمارى فيها. فلا زخرف ولا حجارة ولا بياض ولا بلاط ولا محاريب. ولكنها لم تلبث طويلا حتى سايرت سنة التطور. وهذا نلمسه جلياً فيما سأذكره عن نشأة المسجد النبوى وعن جامع عمرو بن العاص وهما مثالان للمساجد الجامعة فى الأمصار عند نشأتها.

المسجد النبوى:

بنى هذا المسجد عند إنشائه باللبن على أساس من الحجارة برسقف بالجريد واتخذت عمده من جذوع النخل. وظل على بساطة هذا رغم توسيعه إلى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه فقد هدمه وأعاد بناءه بالحجارة وبيضه بالجص واتخذ له عمدا من الحجارة وسقفه بالساج وزاد فيه.

وفى سنة ٨٨ هـ ٧٠٦ م أمر الوليد بن عبد الملك بهدم المسجد وتجديده بما يتفق مع أهميته وبعث اليه بالرخام والفسيفساء مع صناع من مختلف الأقطار مصر والشام والاستانة فهدمه عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز وأعاد بناءه بالحجارة المنقوشة وكسا جدرانه بالفسيفساء والرخام. وعمل سقفه بالساج المموه بالذهب. وأقام به أربع منارات.

ثم توالت العناية على المسجد مسايرة للنهوض المعمارى حتى بلغ منتهى الروعة فى القرن الثالث وتمثلت فيه أرقى نماذج العمارة وفنونها.

جامع عمرو بن العاص بالفسطاط:

ومثله جامع عمرو بن العاص فانه لما أنشىء بمصر سنة ٢١ هـ ٦٤١ م كانت مساحته ٥٠ × ٣٠

مكتبتنا العربية

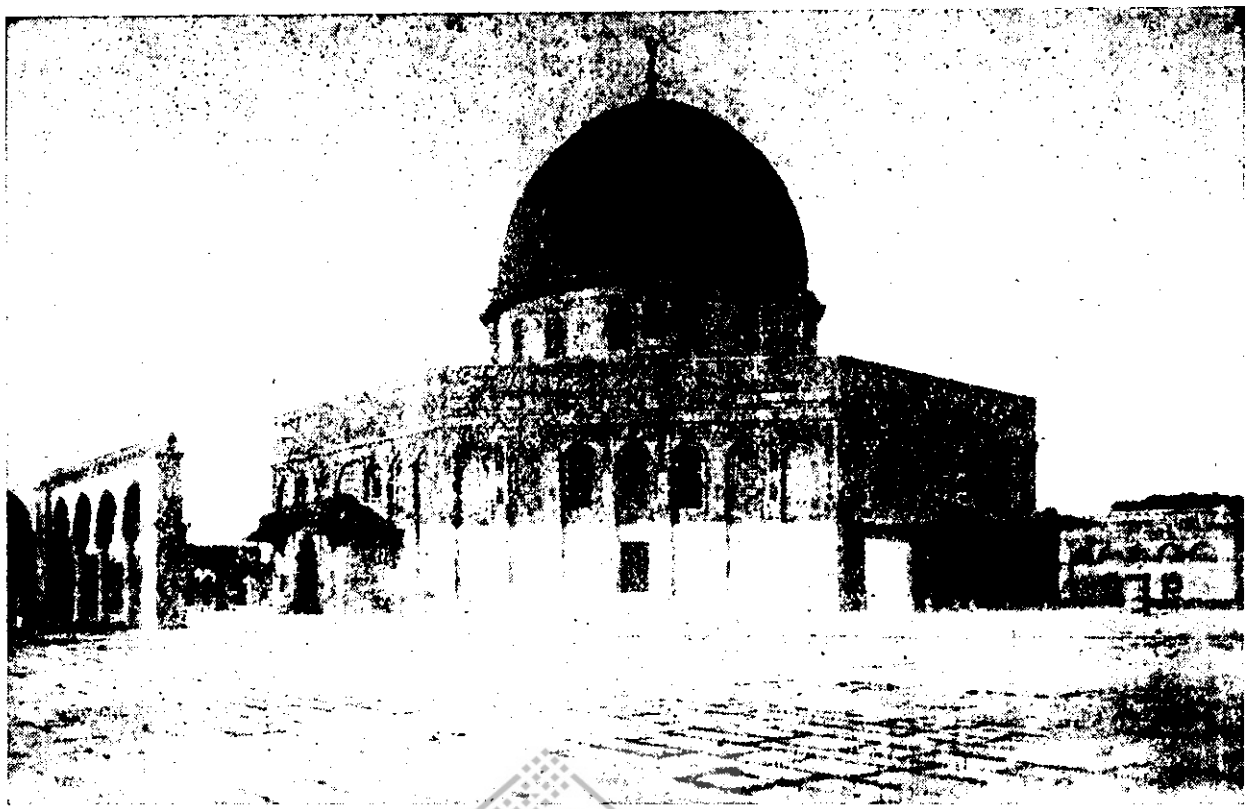

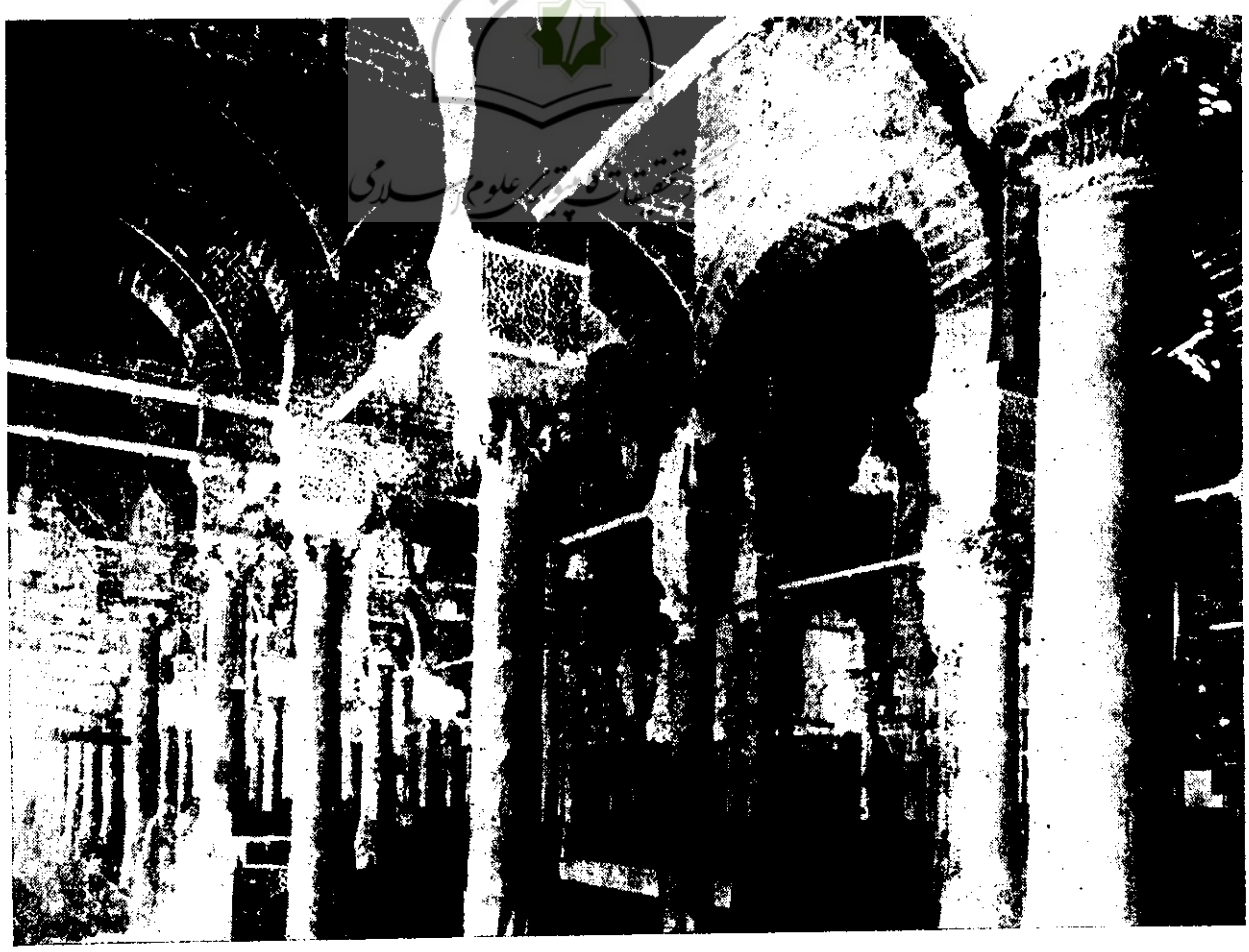

(١) قبة الصخـــرة (٢) داخل مسجد الزيتونة

مكتبتنا العربية

ذراعا فرشت أرضه بالجصاء وبنى باللبن وسقف بالجريد والطين واتخذت عمده من جذوع النخل ولم يجعل له مئذنة ولا محرابا مجوفا ولا منبراً .

ثم تدرجت أعمال الإصلاح مع الزيادة تبعا لاطراد التقدم والعمران . وهذا ما كان يبدو أثره عاما فعاما فى تلك المنشآت ، فما انتهى القرن الاول إلا وكان الجامع هدم وأعيد بناؤه أكثر من مرة مع الإضافة والتجميل ، فقد هدمه فى سنة ٩٠ هـ ٧٠٨ م قرة بن شريك والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك وأعاد بناءه وأحدث فيه المحراب المجوّف اقتداء بالمحراب الذى أحدثه بالحرم النبوى الامير عمر بن عبد العزيز سنة ٨٨ هـ ٧٠٦ م وأقام به منبراً خشبياً جديداً سنة ٩٤ هـ ٧١٢ م وأحدث فيه المقصورة ، ومن ثم سار الجامع فى درجات الكمال ومسايرة التقدم المعمارى فى زخرفة المساجد وتذهيبها وكسوتها بالرخام والفسيفساء وهذا أكبر برهان على نهوضهم بالعمارة والصناعة . فانهم ما إن تم لهم تمكين مكانهم الجديد وتوطيده ، وما إن ألقوا عصا التسيار واطمأنت بهم الدار ، حتى نشطوا للفتح الثانى وهو الفتح العلمى والصناعى ، فأتوا فى الفتحين على قصر المدة بما لم يسبق له مثيل مما أثار الإعجاب .

وكان من أثر ذلك أنهم ملكوا ناصيتى العلم والصناعة كما ملكوا ناصية العالم وأحدثوا لهم مدنية خاصة صبغوها بصبغتهم فى كل مظهر من مظاهرها ، وأبقوا لهم الأثر البين فيما نقلوه من علوم الأوائل إما بالتنقيح والتهذيب أو الزيادة والاختراع . فكان للصناعة والعمارة نصيب موفور تجلّى فى منشآتهم من مساجد وقصور وغيرها .

وخير دليل على عصبيتهم وميلهم لطبع كل شىء بطابعهم أنه ما انتهى القرن الأول الهجرى إلا والدواوين عرّبت والنقود ضربت باللغة العربية ، وأخذت الفنون والصناعات فى الازدهار والانطباع بطابعهم .

نعم إن العمارة الإسلامية فى نشأتها تأثرت بالبيئة التى نشأت فيها ، إلا أن تلك التأثيرات مع الآثار التى وقعت عليها ، زال غالبها من الوجود ، اللهم إلا بقايا تأثيرات جزئية فى الزخارف وعلى بقايا القصور فى بادية الشام وشرقى الاردن والعراق وبخاصة فى التخطيط وفى التصوير والفسيفساء . وهى تأثيرات بيزنطية وفارسية فى سوريا وساسانية فى العراق وهللينستية وبيزنطية فى مصر ، كما كانت الشام أيضاً ملتقى لتيارات مختلفة من الأساليب الفنية الهللينستية والساسانية المصرية .

وبالرغم من التأثيرات التى وقعت عليها فانها تغلبت عليها وطبعت بطابع عمارى إسلامى جديد .

ومما لا شك فيه أن للدولة الاموية فضل النهوض بالعمارة الإسلامية والوصول بها إلى مدارج الكمال بما أنشأوه من قصور فى المدن وفى البادية . وبما شيدوه وجددوه من مساجد النبوى والاموى والاقصى والصخرة والمعتبرة دعائم للفن الاسلامى .

ولا عجب فالدولة الاموية دولة بناء وتعمير

مكتبتنا العربية

كان من أهم أهدافها مناهضة الشعوب المسيحية وإقناعها بأن المسلمين على قصر مدة حكمهم قادرين على تكوين حضارة عمارية تضاهي حضارتهم ؛ وإن مساجدهم فاقت معابدهم فخامة وزخرفا حتى لا يتيهوا على المسلمين

ولذلك ينسب إلى الوليد أنه قال لأهل دمشق « إني رأيتكم تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس .

وقد تجلّى هذا الهدف السامي في مراقبة الوافدين من الأجانب لزيارة المسجد الأموي ومعرفة رأيهم في المسجد دون علمهم . وحينما نقلوا اليه آراءهم المليئة بالدهشة والإعجاب من فخامة بنائه ورخامه وفسيفسائه قال « لا أرى مسجد دمشق إلا غيظا على الكفار »

وحينما عرض عليه عمر بن عبد العزيز أن ينقل ما في محراب مسجد دمشق من ذهب كي لا يشغل المصلين . عرض عليه في هذا الوقت رأي زوار آخرين بأنهم حينما وقفوا تحت قبة المسجد سأل كبيرهم . كم للإسلام ! قالوا مائة سنة قال فكيف تصغرون أمرهم ، مابنى هذا البنيان إلا ملك عظيم ، قال : إذا غايظ العدو فدعه .

ولما زار الرحالة أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري الجامع الأموي في القرن الرابع الهجري وفتن بما رآه فيه من وزرات رخامية وفسيفساء مذهبة تكسو جدرانه وعقوده وبها صور الأشجار والأمصار والكتابات ، ومصاريع مصفحة بالنحاس وغير ذلك من روائع الصناعة قال لعمه يا عم ، لم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق . ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون لكان أصوب وأفضل ، أجابه : « يا بني إن الوليد وفق وكشف له عن أمر جليل ، ذلك أنه رأى الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد افتتن في زخارفها وانتشر ذكرها كالقيامة وبيعة لد والرها فاتخذ للمسلمين مسجداً شغلهم به عنهن وجعله أحد عجائب الدنيا . ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبة القيامة وهيأتها خشي أن تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى »

وخير دليل على أن الأمويين نهجوا في تشييد منشآتهم نهجاً عمارياً جديداً طبع بالطابع

مدرسة السلطان قايتباى

مكتبتنا العربية

الإسلامى ، تصريح الخليفة المأمون عقب زيارته للجامع الاموى « إن بنيانه على غير مثال متقدم » .

وقد نهجت الدولة العباسية سبيل المنافسة فى تشييد المنشآت العمارية من مساجد وقصور وأبدعوا فيها أيما إبداع ، وكان هدفهم أيضاً هو هدف الدولة الاموية . ذلك أن المأمون رد على من انتقد إسرافه فى بهرجة قصوره . وبعد حوار معه ألزمه فيه الحجة قال :

« هذا البناء ضرب من مكايدنا نبنيه ونتخذ الجيوش ونعد السلاح والكراع وما بنا إلى إلى أكثره حاجة » .

ومنذ القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى أخذت العمارة الإسلامية تتخلص من المؤثرات القديمة وما بقى منها بقى فى عناصر قليلة فى الزخرف حورت أيضا وأصبحت التأثيرات التى تقع على العمارة تأثيرات إسلامية جزئية بين الأقطار الإسلامية وبعضها ، تنوعت بتعاقب الدول .

ومن خصائص العمارة الإسلامية أنها هيأت منشآت عادية لمختلف الأغراض . فإنها بجانب ما أعدته من منشآت مدنية تناسب طقس كل قطر فانها أعدت بجانبها منشآت دينية كالمساجد والمشاهد والزوايا والربط . وثقافية كالمدارس والخوانق والكتاتيب ، ساعدت المساجد فى رسالتها الثقافية . ومالية بإنشاء بيوت المال فى مساجدها الجامعة ومنها ما هو موجود إلى الآن فى مسجد دمشق وحماه . واجتماعية كدور كفالة المرأة وإيواء الفقراء والمنقطعين . وصحية كالمستشفيات والحمامات . وتجارية كالوكالات والأسواق والخانات . وحربية كالأسوار بأبوابها وأبراجها والحصون . ومائية كالقناطر ومقاييس النيل والموانىء .

وكما اختلفت طرز العمارة عن بعضها فى الأقطار الإسلامية ، حتى أصبح كل طرز علما على دولته ، فانها اختلفت كذلك فى طريقة الانتفاع ببعض تلك المؤسسات ، فالمدرسة التى شيدت فى مصر لتؤدى وظيفة المسجد وإقامة الجمعة والأوقات الخمسة حيث أقيم بها منارة ومنبر أو لحق بها سبيل وكتاب ومدفن للمنشىء ومساكن للطلبة وحوض لشرب الدواب ، نراها فى فاس ومكناس وبغداد ، أنشئت كى تلقى بها الدروس فقط وتؤدى بها الأوقات الخمس دون الجمعة ، ولذلك لا نرى بها منارة ولا منبراً ولا بقية الملحقات .

وإذا كانت المدارس بمصر والعراق وشمال إفريقيا هيئت للتعليم ومنها علوم القرآن فإن سوريا امتازت بإنشاء دور القرآن لدراسة علوم القرآن خاصة ، والمنبر فى مصر والعراق والشام ثابت فى مكانه بجوار المحراب بينما هو فى كثير من بلدان شمال إفريقيا - تونس ، والجزائر ، وفاس - لا يظهر إلا يوم الجمعة حيث يخرج على عجل من الحجرة الخاصة به بجوار المحراب .

وكما عرف كل قطر بما يجلب منه من طرائف وسلع فإنه عرف كذلك بأهم عمائره بل أصبحت من أهم خصائصه وعلما عليه .

فمن خصائص دمشق المسجد الأموى ، وقبر صلاح الدين ، والمدرسة الظاهرية . وقصر الحير وحصونها . ومن خصائص الأندلس - مسجد قرطبة[1] ، وقصر الحمراء بغرناطة ، ومنارة الجامع

(١) وترى صورته من الداخل على غلاف هذا العدد .

مكتبتنا العربية

الكبير (الجيرالدا) وقصر بنى عباد بأشبيلة .

ومن خصائص القدس : المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، وقصر هشام بخربة المفجر ، والقصور الأموية فى شرق الأردن .

ومن خصائص العراق : المنارات الملوية ، وزخارف القصور فى سامرا ، وقصر الأخيضر ، والعتبات الشريفة : الكاظمية فى بغداد ، والإمام العسكرى بسر من رأى ، والإمام الحسين بكربلاء ، والإمام على بالنجف ، تلك المشاهد الغنية بأنواع الزخرف والمكسوة قبابها ومناراتها برقائق الذهب وبالقاشانى ومقرنصات البللور والزخرف المتخذ من قطع المرايا . وصناعة الطابوق (الآجر) المنقوش بشتى أنواع الزخرف . والقباب المخروطة .

ومن خصائص مصر : مقياس النيل ، والجامع الطولونى ، والجامع الأزهر ، وأبواب القاهرة ، ومدرسة السلطان حسن ، ومدرستا السلطان قايتباى والغورى .

ومن خصائص شمال أفريقيا : مسجد القرويين فى فاس ومدرسة أبو عنان وأسواقها ، ومسجد الزيتونة بتونس ، وعقبة بالقيروان ، وأبو مدين بتلمسان ، وهكذا بقية الأقطار .

ولكل قطر خصائص أيضاً فى تفاصيله المعمارية وخاصة القبة والمنارة وهما أبرز عنصر مميز لعمارة كل قطر .

ولما كانت القاهرة أغنى الأقطار الإسلامية وأسعدها حظاً فى المحافظة على تراثها المعمارى ، فإنها كذلك امتازت بخصائص لا توجد فى غيرها ، فقد تمثلت فيها الحضارات المتعاقبة عليها ممثلة فى شتى التفاصيل العمارية من جص وأحجار ورخام ونحاس وأخشاب ما بين خرط وتطعيم وتجميع وحفر وفسيفساء ونقش ، وبراعة الخطاطين وتكوينهم للعناصر الزخرفية فى الخط الكوفى ما بين نباتية وهندسية .

هذا عدا التنوع فى تصميم المسجد والمدرسة ، وفى تصميم وجهات المساجد والمدارس ، وتنوع أشكال المقرنصات والزخارف .

وثمة خاصة أخرى انفردت بها وهى تكسية الزخارف الجصية الملونة برقائق الزجاج ، ومنها أنموذج وحيد بمصر فى رباط أحمد بن سليمان .

ومن أبرز خصائصها جمال ورشاقة القبة والمنارة فكلاهما بلغ القمة فى جمال التناسق ، ودقة النقش وخاصة فى دولة المماليك الجراكسة .

وعلى ذكر القبة أذكر أن مصر لها فضل السبق فى إنشاء القبة ذات المنور ، وفى أن مهندساً مصرياً سبق برونيلسكى سنة ١٤٢٠ م الذى ينسب إليه فى وقت ما اختراع هذا النوع من القباب بمدينة البندقية .

وإذا أردنا الإشارة إلى خصائصها فى طرائف كل عصر ، فهذا ما لا يتسع له المجال ويكفى أن نفتخر بالجامع الطولونى وزخارفه المتنوعة طولونية وفاطمية ، وبالجامع الأزهر وبغيره من منشآت الدولة الفاطمية الغنية بدقائق صناعة الجص والحفر فى الخشب ومثلها الدولة الأيوبية . وبمنشآت المنصور قلاون وأفراد أسرته فى هذا العصر الزاهر الذى تركزت فيه قواعد العمارة

مكتبتنا العربية

فى مصر ، وكفاه فخراً مدرسة السلطان حسن إحدى عجائب العمارة الإسلامية فى العالم .

ومنشآت أمرائه أمثال الأمير لجماس الاسحاقى ، وأبو بكر مزهر ، ثم منشآت السلطان الغورى

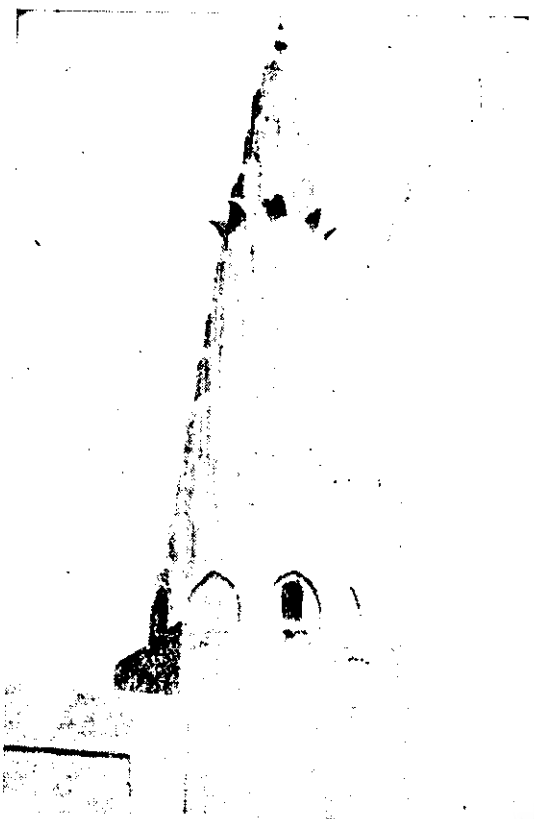

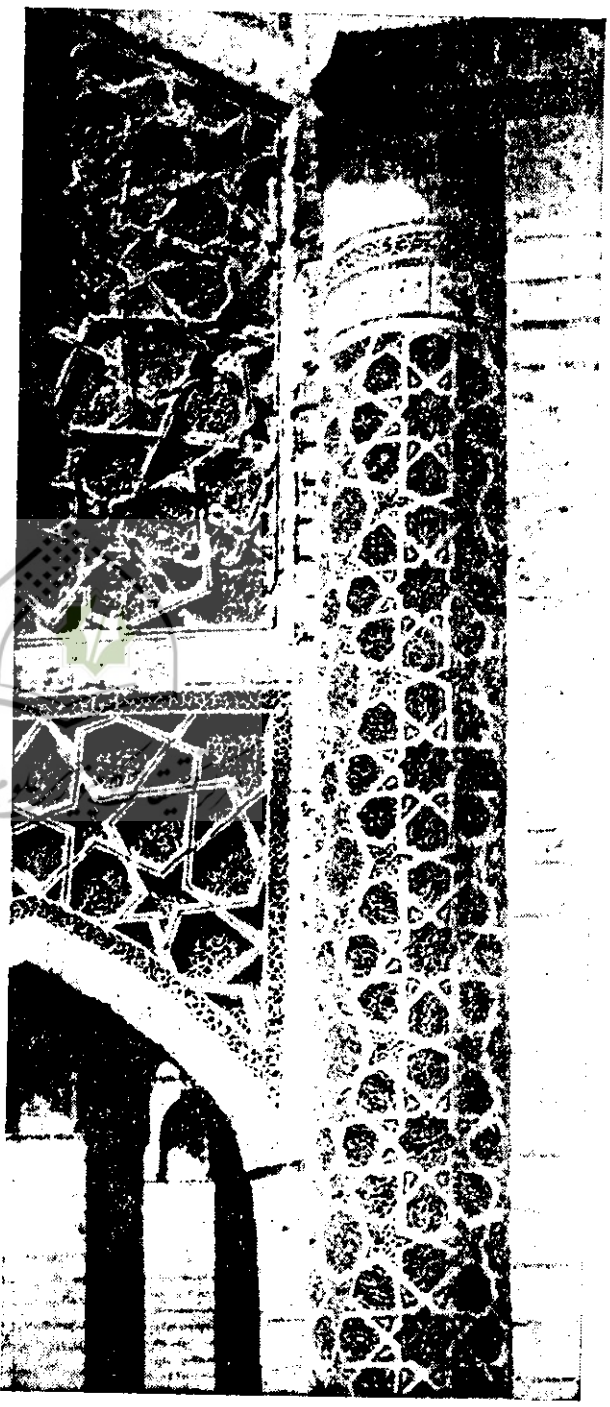

الزخارف فى الآجر بالمدرسة المستنصرية بالعراق ببغداد

ثم منشآت دولة المماليك الجراكسة ، تلك المنشآت التى أخذت زخرفها وازينت ، وكفاها فخراً منشآت السلطان قايتباى وخاصة مدرسته بالصحراء

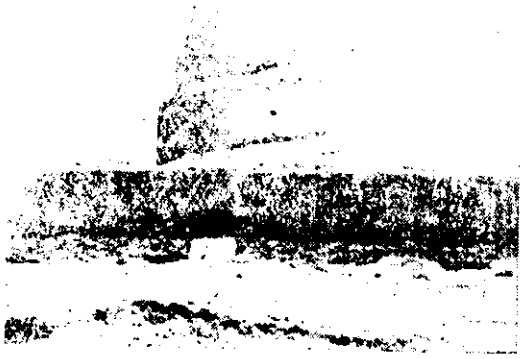

(١) قبة عمر السهروردى فى بغداد (٢) المنارة الملوية بسامرا

وهى خاتمة خصائص العمارة الإسلامية فى مصر وكانت حسن الختام .

حسن عبد الوهاب

مكتبتنا العربية

جهود المسلمين فى الموسيقى

للدكتور محمود احمد الحفنى
المراقب العام للموسيقى بوزارة المعارف

عصر صدر الاسلام :

أشرق الإسلام على الدنيا بنوره الساطع وضرب المثل العالية الرفيعة لتحقيق أسمى مبادىء الاجتماع البشرى المؤسسة على مكارم الأخلاق والرقى النفسى والكمال الإنسانى ، فكان لزاماً أن تنهض الموسيقى فى أحضانه ، وتزدهر فى ظل سلطانه ، وترقى حتى تكون ثقافة تثمر فى كنفه ، ذلك بأن الموسيقى هى الباعث للكمال الأدبى فى الإنسان بتربية طباعه وتهذيبه ، فإن سماع الأنغام يوقظ المشاعر ، ويلهب الحس ، فيدفع بالعاطفة نحو السمو ، وبالعقل نحو التفكير ، وبالخيال نحو دنيا الروح ، على حد قول أرسطو ، أثر الموسيقى أسمى من أن ينحصر فى نشوة الحواس بحلو النغم ومجرد اللهو بها ، إنما هو فى تطهير النفس والتخفيف عنها ، . وعلى الجملة فإن الموسيقى الجيدة تكبت الشهوات الجسدية فيسود العقل الراجح والعاطفة النبيلة والروح المشرقة الصافية جميع غرائز النفس ونزواتها .

وما نعدو الصواب حين نقرر أن الموسيقى فى صدر الإسلام قد لبست ثوبا دينياً ناصعاً يوم سرت تلاوة القرآن الكريم بالصوت الجميل فى أنفس الناس سريان العافية فى الجسم السقيم . وآية ذلك ما بين أيدينا من أحاديث مأثورة عن مشهورى الصحابة فى مدح قارئ القرآن إذا كان جميل الصوت لم يخرج عن حد المعقول فى القراءة والأدب الواجب للقرآن . وهنا رفع القرآن الكريم علم الموسيقى عاليا بين العرب ، ونشأ علم التجويد .

ومن إعجاز القرآن نظمه الموسيقى الرائع الذى يسيطر على مستمعيه ، ولو كانوا غير مسلمين ؛ حتى قال بعض الأجلاء « إن قوانين الموسيقى قد لحظت فى القرآن تامة مكتملة » . وكذلك الشأن فى بعض شعائر الدين الأخرى كالأذان للصلاة عامة وصلاة العيدين وتلاوة التكبيرات فيهما فى لحن موسيقى رائع ، مما يرقق حاشية الروح ، ويهيىء الناس لتلقى النفحات الإلهية فى بهجة وانشراح .

وقد اشتهر فى صدر الإسلام من المغنيات كثير من القيان ، نذكر من بينهن سيرين مولاة حسان بن ثابت ، وهى إحدى الجاريتين المصريتين اللتين أهداهما المقوقس فى العام التاسع الهجرى (عام ٦٢٠ م) إلى النبى صلى الله عليه وسلم وعنها أخذت عزة الميلاء الاستاذة الأولى لمدرسة الغناء العربى التى درج عليها من عاصرها أو جاء بعدها ، فقد حدث صاحب الأغانى أن عزة كانت تغنى من أغانى سيرين . وبهذا تكون الموسيقى المصرية القديمة قد وجدت طريقها إلى الجزيرة العربية منذ فجر الإسلام

مكتبتنا العربية

فى حنجرة سيرين وتلميذاتها ، فوضعت بذلك نواة الصلة الفنية بين مصر والموسيقى العربية .

وكان عمر بن الخطاب على الرغم مما عرف عنه من شديد زهده فى الدنيا ، راضيا عما يعفو الله عنه من الغناء . فقد نقل صاحب العقد الفريد أن عمر قال للنابغة الجعدى أسمعنى بعض ما عفا الله عنه من غنائك ، فأسمعه كلمة له ، قال وإنك لقائلها ؟ قال نعم . قال لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب .

وكان عمر يكره . من الموسيقى الغناء المخنث الذى يبعد الشعب عن الجهاد والتخشين ويسلمه إلى الرفاهية والطراوة ، وما كان ذلك من طبيعة الإسلام ، ولا من سجية عمر ، ولا مما يأذن به الخلق القويم .

وما كاد يقبل عصر عثمان رضى الله عنه حتى سجلت أخبار المدينة أن رائقة المغنية وتلميذتها الفتية عزة الميلاء وغيرهما كن يقمن فيها حفلات موسيقية يحضرها أشراف القوم وفنانوهم .

وقد كان فى اتساع الفتوحات التى تمت فى عهد عثمان وفى عهد سلفه والممالك التى دانت للإسلام والأسرى الذين قدموا إلى الديار العربية ما جعل تيار مدنيات هذه البلاد ، وبخاصة المدنيات المصرية والفارسية واليونانية ، ينتشر فى البلاد العربية . وأخذ المسلمون ينظرون إلى أمور دنياهم ، فقللوا من غلواء نظرتهم إلى الموسيقيين ، وحفلت بهم بيوت الأمراء والأشراف ، وأخذت الموسيقى مكانها فى مجالسهم بجانب الشعر والأدب .

وما كاد ينقضى عصر الخلفاء الراشدين حتى أخذت الموسيقى تسلك سبيلها إلى وجهتها الفنية الواضحة . وأورقت تلك الدوحة التى بدأت نواتها منذ قريب لتمتد ظلالها وتستكمل نضج ثمارها فى عصر بنى أمية .

عصر بنى أمية :

كان الروح العربى الموسيقى روحا فنياً رياضياً غير متعصب ولا جامد ، فما كاد ينبثق فجر الدولة الأموية ويزداد اتصالها بالمدنيات المصرية والفارسية واليونانية حتى تشرب الروح العربى تلك المدنيات ونقل غناءها إلى غناء العرب وآلاتها إلى آلات العرب .

وكان للموسيقى فى الدولة الأموية حظ العلوم والفنون الأخرى ، فازدهرت وأينعت وظهر من مشهورى المغنين والمغنيات من يجدر بنا أن نطلق عليهم وعلى فنهم : المدرسة الحديثة .

ويعتبر سائب خاثر نواة النهضة الموسيقية فى البلاد العربية ، وأول من نقل الغناء الفارسى وأسبغ عليه الطابع العربى وعرف بعد ذلك بالغناء « المتقن » . وهذا النوع المستحدث يقابل غناء « الركبان » الذى يمثل روح العصر الجاهلى وطابع البادية . ولقد كان من عادة المغنين من العرب حتى ذلك الوقت أن يستعملوا فى غنائهم القضيب ، وكان سائب خاثر يستعمله كذلك ، إلى أن رأى نشيطاً الفارسى يستعمل فى غنائه العود فاستعمله هو أيضاً فى أغانيه ، فكان أول من غنى فى المدينة مستعملا العود . ونبغ ممن أخذ الغناء عن سائب خاثر أربعة عدوا أعلام الغناء وهم : عزة الميلاء وجميلة زعيمتا النهضة

مكتبتنا العربية

الموسيقية العربية ، وابن سريج ومعبد .

وكان ابن مسجح - وهو أحد فحول المغنين فى العصر الأموى - أول من نقل غناء الفرس إلى غناء العرب بمكة فى حداثته . وقد أتقن محاسن النغمات فحذقها وأصبح له فى الغناء مذهب خاص وطريقة تبعها الناس بعده . وقد أخذ عنه ابن محرز ومعبد وابن سريج والغريض .

وإنا لنرى الموسيقيين يرتفع مقامهم شيئا فشيئا ويصبحون موضع الاحترام والتقدير ، ويسلكون نهجهم رويداً حتى يصلوا إلى قصور الخلفاء وينالوا الحظوة عندهم ، فلا نكاد نذكر خلفاء بنى أمية فى أول عهدهم بالحكم حتى نرى الخليفة عبدالملك بن مروان يشجع أهل هذه الصناعة ، بل نراه هو نفسه موسيقيا وملحنا ، عارفا بأنواع الغناء ، يسأل ابن مسجح وهو فى حضرته : هل يغنى غناء « الركبان » وهل يغنى الغناء « المتقن » ؟

وكان سليمان بن عبد الملك يجرى المسابقات بين المغنين ويجزل لهم العطاء . وبلغ من تقدير يزيد بن عبد الملك للموسيقى أنه ما كاد يتولى الخلافة حتى اشترى حبابة المغنية بأربعة آلاف دينار ، وظلت موضع إكرامه حتى وفاتها .

ورأينا الوليد بن يزيد يعظم الرعاية للموسيقى وأهلها ، وقد بلغ من إكرامه لمعبد ، أنه عند ما مرض تولى أمره وآواه فى قصره ، فلما مات شيعه بنفسه إلى مثواه . بل كان الوليد كذلك عالما بصناعة تأليف الألحان ، وله فيها أصوات مشهورة ، كما كان يضرب بالعود ويوقع بالطبل والدف .

ولم تقتصر معاضدة أهل هذه الصناعة على الخلفاء بل سرت إلى الأشراف والنبلاء والسراة . وقد كان لعبد الله بن جعفر مجالس طرب عظيمة يدعو إليها مشهورى المغنين ، وكان سائب خاثر ونشيط منقطعين إليه ، كما كانت السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما ترتاح إلى سماع الموسيقى ، وكان الغريض المغنى المشهور فى خدمتها منقطعاً لها منشداً مراثى أهل البيت ونائحاً عليهم ، وكانت عند ما يجتمع عندها المغنون تأذن للناس فى دخول بيتها إذنا عاما .

ولقد وضح من أنباء المغنين والمغنيات اطراد ظهور أثر الموسيقى الفارسية فى موسيقى العرب ، حتى دخل فى اللغة العربية كثير من الألفاظ ، والمصطلحات الفارسية مما كان دليلا على عظم هذا الأثر . كذلك تأثرت الموسيقى العربية بنظريات الموسيقى اليونانية تأثراً كبيراً . وكثيراً ما كان يرد ذكر علماء هذا الفن من اليونان فى مصنفات العرب وكتبهم . غير أنه مما يجب الإقرار به أن فلاسفة العرب ومغنيهم وإن أخذوا العلوم الموسيقية وفنونها عن اليونان والفرس ومصر ، فقد احتفظوا فيها إلى حد كبير بطابعهم العربى الذى ميز موسيقاهم وجعل لها صبغة خاصة .

ومما يذكر بالفخر لذلك العصر أنه بدىء فيه بوضع أول تصانيف عربية فى أخبار الموسيقى والغناء ، فقد وضع يونس الكاتب « كتاب النغم » و « كتاب القيان » فكانا نواة لما صنف بعد ذلك فى هذا الباب .

مكتبتنا العربية

عصر الدولة العباسية :

جاء العصر العباسى فدخلت الموسيقى العربية فى عصرها الذهبى وخطت خطوات سريعة نحو الكمال ، حتى بلغت أوج مجدها وذروة علاها . وزادت المقامات وطرائق الإيقاع حتى تعددت فى اللحن الواحد . وكثرت الآلات وتنوعت وشاع استعمالها حتى عزفت مائة قينة معا . وسما قدر أهل الموسيقى حتى اتخذ الخليفة منهم مسامراً له وجليسا .

ولقد بدت فى العصر ظاهرة جديدة ، فلم يعد العرب ينظرون إلى الموسيقى بشطر العين ، أو يتأبون احترافها بل إن من أبناء أشرافهم من دخل فى زمرة أهل هذه الصناعة ، فمن أساطينها ابن جامع الذى يتصل نسبه بقريش . بل لقد زاول هذه الصناعة بعض أمرائهم ، كإبراهيم ابن المهدى .

كذلك كان الخليفة الواثق موسيقيا من كبار الموسيقيين ومن أعلم الخلفاء بالغناء . بلغت صنيعته فيه مائة صوت (لحن) . وروى أنه كان أحذق من غنى وضرب على العود ، وكان كثير التقدير للموسيقى وأهلها ، وإن قوله فى إسحق الموصلى لدليل على ما يكنه خلفاء هذا العصر من احترام هذه الصناعة وأهلها إذ قال :

« ما غناني إسحق قط إلا ظننت أنه قد زيد لى فى ملكى ، وإن إسحق لنعمة من نعم الملك التى لم يحظ بمثلها ، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى » .

ولقد أعطى الخليفة الهادى إبراهيم الموصلى مائة وخمسين ألف دينار فى يوم واحد حتى قال : « لو عاش الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة » .

ولقد أسست فى العصر أول جامعة عربية لدراسة العلوم والفنون ، بناها المأمون فى بغداد وأسماها « بيت الحكمة » فاشتغل فيها فطاحل العلماء ، ومنهم يحيى بن منصور وبنو موسى وغيرهم ، بترجمة علوم اليونان التى كان من بينها العلوم الموسيقية . ونسج الخلفاء بعده على منواله فشجعوا الفلاسفة والعلماء لاستقراء كنوز العلوم اليونانية والوقوف على أسرارها وترجمة عيون مصنفاتها .

ومما يسجل لهذا العصر بالفخر ، أنه ظهرت فيه عناية خاصة بإثبات قواعد الموسيقى ونظرياتها . فكان الخليل بن أحمد أول من عنى بهذه الناحية بعد يونس الكاتب الاموى ، الذى سبقت الإشارة إليه ، فوضع « كتاب النغم » و« كتاب الإيقاع » فكانا بحق أول مؤلفات علمية فى الدولة العباسية واستكمل إسحق الموصلى هذه المؤلفات . ثم جاء بعدهما من برّهما فى هذا النوع من التأليف وهو إسحق بن يعقوب الكندى فكتب ما يربى على سبعة مؤلفات فى العلوم الموسيقية ونظرياتها . وجاء بعده أبو نصر محمد الفارابى ، فكان من أكبر فلاسفة العرب دراية بعلوم اليونان ، وكان موسيقيا خليما يجيد العزف بالعود ، وقد وضع كثيراً من الكتب فى هذا الفن . أما الرئيس ابن سينا فقد جال فى علوم الموسيقى حتى صار إمام عصره فيها مشرقا ومغرباً . وقد احتوت

مكتبتنا العربية

موسوعتاه « الشفاء » و « النجاة » على تصنيف موسيقى مبتكر .

ومن أساطين من اشتهروا من الموسيقيين فى ذلك العصر : حكم الوادى وإبرهيم الموصلى وزلزل وفليح بن أبى العوراء ومخارق ، ومن المغنيات : بذل ودنانير ومتيم الهشامية .

وقد نسب بعض علماء الموسيقى إلى العرب إهمالهم تدوين ألحانهم ، غير أن هذا مخالف للواقع فإن دقة الكندى فى تدوين الموسيقى بالحروف فى كتابه « رسالة فى خبر تأليف الألحان » وما أورده صفى الدين عبدالمؤمن الأرموى من طرائق التدوين فى كتابيه « الشرفية » و « الأدوار » لأكبر دليل على عناية كتاب العرب بهذه الناحية واسبقيتهم لمعاصريهم .

وفى ذلك العصر الذهبى انتخبت مائة الصوت المختارة ، فقد كلف هارون الرشيد إبرهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفليح بن أبى العوراء أن يختاروا له من ألحان العرب كلها مائة صوت ، ثم أمرهم أن يختاروا عشرة منها ، ثم أمرهم أن يختاروا ثلاثة من العشرة فكانت تلك الأصوات الثلاثة لحناً لمعبد ، ولحناً لابن سريج ، ولحناً لابن محرز .

عصر الأندلس :

انبثق فجر المدنية فى بلاد الأندلس عند ما فتحها بنو أمية ، وسطر العرب لها على صفحات التاريخ آيات مجد ظلت مضرب الأمثال ، وتوجت رأس العلوم والفنون بأفخر تيجان الرقى . وظلت عندئذ تفيض بنورها على أوربا التى لم تكن بعد قد أفاقت من سباتها العميق ، فكانت قرطبة حاضرة الأندلس موطناً لأساطين العلماء ، كما كانت إشبيلية أعظم مركز للموسيقى والشعر وصناعة الآلات الموسيقية . قال ابن خلدون « حينما كان يموت عالم فى إشبيلية ويراد أن تباع كتبه بثمن عظيم ترسل إلى قرطبة ، وإن مات موسيقى فى عاصمة الأندلس كانوا يرسلون آلاته الموسيقية ومخطوطاته إلى إشبيلية التى نمت فيها الموسيقى وولع بها أهلها أشد الولع » .

وكان اهتمام خلفاء الأندلس بالثقافة عظيما وكلفهم بالعلوم شديداً ، حتى إن الحكم الثانى جمع فى عهد خلافته من البلاد العربية ما يربى على أربعمائة ألف مجلد . ولقد كانت الموسيقى فى طليعة هذه العلوم والفنون التى عنى بها خلفاء الأندلس فارتفعت وذاع انتشارها ، حتى إنها لم تعد مقصورة على فئة خاصة بل غدت ثقافة عامة يشترك فيها جميع طبقات الشعب .

ونقل العرب إلى الأندلس كل ما سبق لهم معرفته من الآلات الموسيقية ، ثم افتنوا فيها وزادوا عليها ، فأصبح لديهم منها عدد جم ، إذ استعملت الأندلس من الآلات الوترية : العود القديم ذا الأوتار الأربعة ، والعود الكامل ذا الأوتار الخمسة ، والشهرود ، وهو نوع من العود ، والطنبور ، والقيثارة ، والمزهر ، والكنارة ، والقانون ، والنزهة ، والرباب ، والكمنجة ، والشقرة (أو المشقر) . ومن آلات النفخ المزمار ، والسرنا (السرناى) والناى ، والشبابة والبراع ، والزمارة ، والقصبة ، والموصول ، والصفارة . ومن الآلات النحاسية : البوق ،

مكتبتنا العربية

والنفير . ومن آلات النقر : الدفوف ، والغربال والبندير ، والصنوج ، والكاسات ، والمصفقات ، والقضيب ، والنقارة ، والقصعة ، والطبل .

ولم يكن افتنان العرب فى الأندلس مقصوراً فى الموسيقى على آلاتها بل افتنوا كذلك فى التأليف الموسيقى وأنواعه ، وسايروا بها ارتقاءهم فى مدارج المدنية ، فاستحدثوا الجديد فيها . من ذلك « النوبة » وهى أهم أنواع الموسيقى والغناء فى الأندلس . كذلك ابتدعوا الزجل والموشحات خدمة الموسيقى واستجابة إلى دواعى حاجتها إلى أوزان جديدة مبتكرة . وانتقلت هذه الأنواع إلى بلاد المغرب وإلى مصر فبلاد العرب ، وأخذ الأبناء يتناقلونها عن الآباء .

وكان من أقدم السابقين إلى ابتداع فن الموشحات فى الأندلس مقدم بن معافر ، ثم تبعه أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، ثم عبادة القزاز شاعر المعتصم صاحب المرية من ملوك الطوائف . وكذلك الأعمى الطليطلى . وأول المحسنين فى هذا الفن من المشارقة : ابن سناء الملك .

ومن أهم من اشتهر من الموسيقيين فى الأندلس زرياب وابن باجة الطبيب وعبد الوهاب بن جعفر الحاجب وولادة بنت المستكفى . ومن القيان عازفة وفضل ومتعة وهند جارية أبى محمد عبد الله.

ولقد ظلت الأندلس زهرة أوربا اليانعة طوال خمسة قرون تنشر عليها أريجها من كل علم وفن . وأرسلت أوربا إلى جامعاتها بالبعوث لارتشاف العلوم العربية ودراستها على أئمة العرب وأساطين علمائها . وكانت الموسيقى أولى هذه العلوم التى وفدت البعوث لدراستها وترجمة كتبها . ومن اشتهروا من أعضاء البعوث إلى بلاد الإسلام وصاروا أعلاماً فى أوربا بعد عودتهم إليها : جربرت وهرمان كنتراكت وجين الإشبيلى وقسطندى الإفريقى وقد تعلم فى تونس ومصر وبغداد . وقد نقل هؤلاء وزملاؤهم الكثير من كتب العرب فى الموسيقى كمؤلفات الكندى وثابت بن قره وزكريا الرازى والفارابى وإخوان الصفا وابن سينا وابن باجة .

وقد انتشرت فى ممالك أوربا ولا سيما البلاد الجنوبية منها آلات الموسيقى العربية ، وكثير من هذه الآلات قد انتقل إليها بأسمائه التى تنم فى اشتقاقها عن أصل عربى كالعود والقيثارة والنقارة والرباب والطنبور . والواقع أن أوربا ظلت تحت تأثير غزو الموسيقى العربية عدة قرون طويلة حتى بعد عصر الإصلاح .

عصر الدولة الفاطمية :

وكذلك تدرجت الموسيقى العربية فى مصر فى مدارج الرقى منذ أن فتحها العرب فى عهد الخلفاء الراشدين وتعاقبت عليها المدنيات العربية المختلفة حتى بلغت عصر الفاطميين ، فكانت حضارتها فيه حلقة من حلقات تلك الحضارات الزاهرة اليانعة ، بل صارت مصر حتى منتصف القرن الثالث عشر ملتقى المدنيتين العربيتين الشرقية والغربية (الأندلسية) تربطهما وتوحد بينهما .

وكان المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين ، ومنشىء القاهرة ، مشغوفا بالفنون الجميلة عظيم

مكتبتنا العربية

الرعاية للموسيقى ، كما كان ابنه وخليفته العزيز مولعاً بها ، بل لقد كانت الموسيقى موضع عناية خلفاء تلك الدولة حتى المتصوفين منهم ، فإن الحاكم بأمر الله برغم تشدده كان يشجع علماء الموسيقى على التأليف فى علومها وجمع أغانيها . ورعايته لابن الهيثم الموسيقار الرياضى دليل على ذلك ، فقد شجعه على وضع كثير من الكتب القيمة صنف منها فى الموسيقى كتابه « رسالة فى تأثير اللحون الموسيقية فى النفوس الحيوانية » . وكان للمسيحى أحد كتاب الحاكم وولاته المقربين مجموعة فى « مختار الاغانى ومعانيها » .

وكذلك كان الخليفة الظاهر بن الحاكم من هواة الموسيقى ، كما كان الخليفة المنتصر والآمر وباقى من تبعهم من خلفاء الدولة الفاطمية يبذلون الطائل من الاموال فى سبيلها ويجزلون العطاء للمغنين .

وكان أبو الصلت أمية ، وهو من أكبر فلاسفة هذا العصر وأساطين علمائه ، واسع الدراية بالعلوم الموسيقية ، مجيداً للعزف بالعود ، وكان بين مصنفاته ، رسالة فى الموسيقى ، وكذلك كان ابن أبى القاسم من أعلام صعيد مصر فى أوائل القرن الثانى عشر معنيا بالعلوم الموسيقية ، ومن أكبر معاصريه ابن القفطى المؤرخ الكبير الذى يعد مرجعاً لحياة الموسيقيين .

* * *

هذه هى جهود المسلمين فى عصور الرقى والازهار ، وفى الممالك التى تجلت بها مدنية الإسلام فكانت ذات تاريخ مشرق الصفحات .

وإذا كانت هذه جهودهم فى الحجاز وفى دمشق وبغداد ، والأندلس ومصر ، فليس معنى ذلك أن تلك الجهود كانت مقصورة على ما ذكرنا من جهات أو من عصور . فلقد كان للمسلمين جهود مثمرة سمحت بها الموسيقى واتسعت آفاقها فى الشعوب الهندية والفارسية ، وما وراء النهر وتركيا ، فى أزمنة تناولتها عوامل المد والجزر والتقدم والتخلف ... وكذلك مصر أيضا وقد حملت العبء الأكبر فى نهضتها الحديثة وقامت للموسيقى بأعظم دور إنشائى جعلها تقف على قدم المساواة مع بقية العلوم والفنون .

كل ذلك حق لا ريب فيه . ولكن المجال لا يستوفيه مقال ، وقد أغنى عن التفصيل هذا الإجمال . وفى هذه الصحيفة من التاريخ وتلك الصورة من الوقائع والحوادث والأطوار التى اجتازت الموسيقى العربية مراحلها ، فكرة وإن تكن موجزة فهى سجل شرف وفخار لجهود المسلمين فى خدمة الموسيقى تصنيفاً فى فنونها وابتكاراً فى أنغامها وتجديداً فى آلاتها وتبويبا لمختلف مناحيها وتدوينا لشتى مآثرها .

والأمل عظيم والرجاء وطيد فى أن تكون هذه الصحائف باعثة لعزائمنا ولهمم الاجيال من بعدنا على إضافة صحائف أخرى إلى سجل جهود الأمم الإسلامية فى الموسيقى ، تكون أعظم إنشاء وتجديداً وأسمى فى الزمان بقاء وتخليدا ؟

دكتور محمود أحمد الحفنى

مكتبتنا العربية

أثر الإسلام في الفنون الزخرفية

للأستاذ الدكتور أحمد موسى

كان العرب فى جاهليتهم أهل بداوة وأمية ، يسكن أكثرهم الخيام ، ويترحلون فى طلب الماء والعشب ، ويغير بعضهم على بعض ، ومن هنا كثر بينهم الفرسان والخطباء والشعراء ، فى حين لم يكن لهم شأن يستحق الذكر فى العلوم والفنون .

وبقى العرب وهذا شأن السواد الأعظم منهم حتى ظهر الإسلام فى بلادهم فأخذ بأيديهم إلى ماوراء الصحراء من أمصار ومدائن بلغت شأواً بعيداً من الحضارة والعمران ، فملكوها وبسطوا عليها سلطانهم ، وانتفعوا ونفعوا العالم أجمع بما أخذوه عنها من مختلف العلوم والفنون بعد أن طبعوها بطابعهم الخاص .

على أن الطابع المميز للفنون العربية الإسلامية لم يبلغ غايته ويجمع تحت لوائه مختلف الأساليب والمدارس الفنية المحلية فى البلاد التى فتحها العرب المسلمون إلا بعد أجيال عدة ، استمرت طيلة القرن السابع الميلادى وشطراً كبيراً من القرن الذى تلاه .

ولا مندوحة لنا عن التنبيه إلى اتجاه الفنون الإسلامية منذ البداية إلى الزخرفة والنقش على اختلاف أنواعهما ، مع تجنب النحت وتصوير الكائنات الحية ، نظراً إلى ما ساد من اعتقاد أن الإسلام وقد حطم الأصنام ونهى عن عبادة الصور وما إليها[1] يحرم إقامة التماثيل والتصوير ، وعلى هذا خلت المساجد وهى أهم مظاهر العمارة الإسلامية مما حفلت به المعابد القديمة والكنائس من التماثيل والصور التى تفسر الأحداث الدينية ، وتركزت عناية الفنانين المسلمين فى تجويد الزخارف والنقوش ، فأتوا فيها بالأعاجيب ، سواء أكانت على الجدران والسقف ، أم كانت على الأوانى المعدنية والخزف والزجاج والخشب والجلود .

وغنى عن البيان أن هذا الاتجاه قيد الفنان المسلم وضيق من الدائرة التى يعمل فيها ، فلم يتح له ما أتيح للفنانين الغربيين من الانطلاق فى سبيل محاكاة الطبيعة وإبراز معالم الحسن والروعة

---

[1] (أ) حدثنا آدم (قال) حدثنا ابن أبى ذئب عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبى عباس عن أبى طلحة رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير .

(ب) حدثنا الحميدى (قال) حدثنا سفيان قال حدثنا الأعمش عن مسلم قال : كنا مع مسروق فى دار يسار ابن نمير فرأى فى صفته تماثيل ، فقال سمعت عبد الله قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون .

(جـ) حدثنا ابراهيم بن المنذر (قال) حدثنا أنس ابن عياض عن عبيد الله عن نافع أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ماخلقتم . [صحيح البخارى ، الجزء السابع ص ٦٠ ، ٦١ طبعة بولاق سنة ١٢٩٦ هـ] .

مكتبتنا العربية

فى المرئيات المجسمة ، وخلت منتجاته الفنية من آثار الابتكار والإبداع الصادر من أعماق نفسه والمعبر عن مشاعره .

وكذلك كان هذا الاتجاه نفسه مما اضطر كثيراً من الفنانين المسلمين إلى الإعادة والتكرار فيما ينتج من أشكال زخرفية لملء فراغ المساحات المراد زخرفتها .

وأيا ما كان الأمر ، فلا مشاحة فى أن الفن الإسلامى أوسع الفنون انتشاراً وأطولها عمراً ، فهو قد امتد عبر الامبراطورية الإسلامية الكبرى من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غرباً ، ومن آسيا الوسطى شمالا إلى صحارى السودان والمحيط الهندى جنوباً وما زال قائماً منذ القرن السابع الميلادى حتى الآن ولو بقسط .

على أن العصر الذهبى للفن الإسلامى هو العصر الذى بلغ فيه أوج مجده فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، سواء فى العمائر الفخمة الضخمة وما اشتملت عليه من زخرفة هندسية ونقوش وكتابات تسترعى الإعجاب ، أم فيما اتخذ لتزيين الأدوات المنزلية والمنسوجات والكتب وغيرها .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الفنون الإسلامية وإن اتخذت طابعاً واحداً مميزاً عرفت به على اختلاف العصور والأمصار ، كانت تختلف من حيث طرزها وأساليبها من عصر إلى عصر ، وطبقا لخصائص الإقليم التى هى فيه ، غير أنه ليس من الميسور تحديد تاريخ دقيق لنشأة طراز بعينه من تلك الطرز أو لزواله ، ذلك لأنها كانت فى تطورها المستمر تتداخل وتمتزج ويقتبس بعضها من بعض ، دون أن يكون لأحدها استقلال تام لوقت طويل .

وليس ثمة من شك فى أن الطرز الإيرانية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

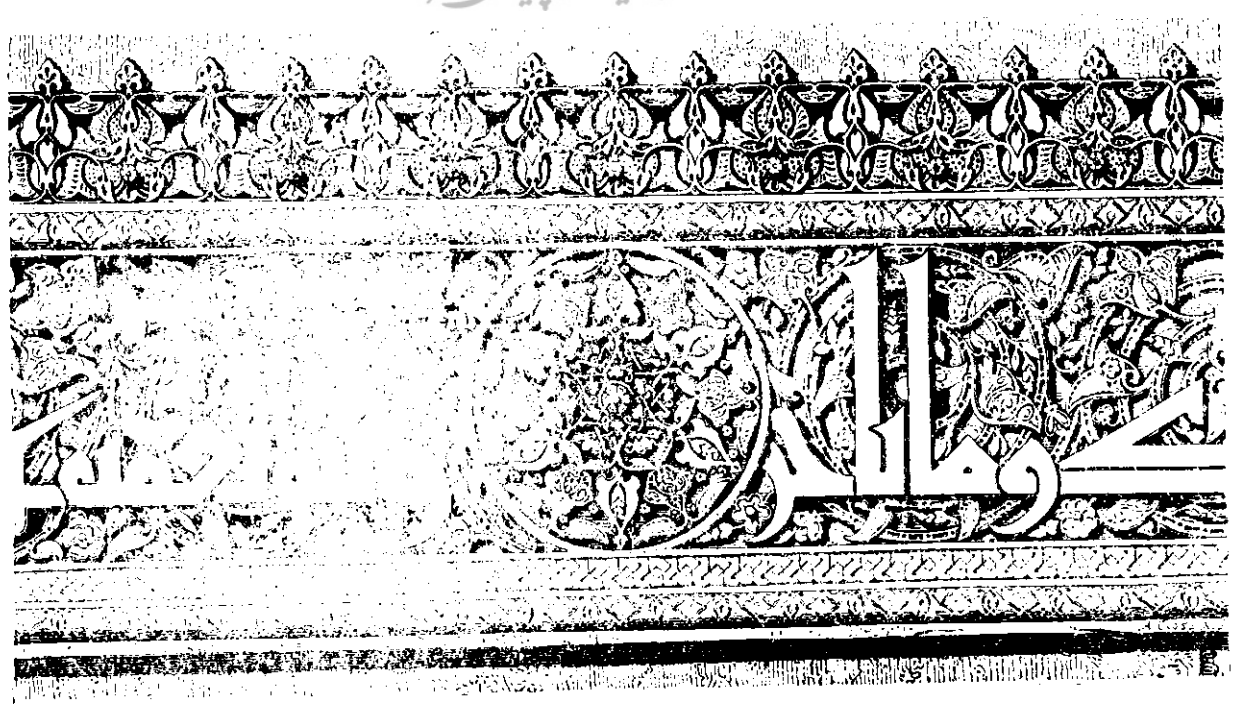

كتابة كوفية مزخرفة على أرضيته بزخارف نباتية هندسية من جامع السلطان حسن بالقاهرة

مكتبتنا العربية

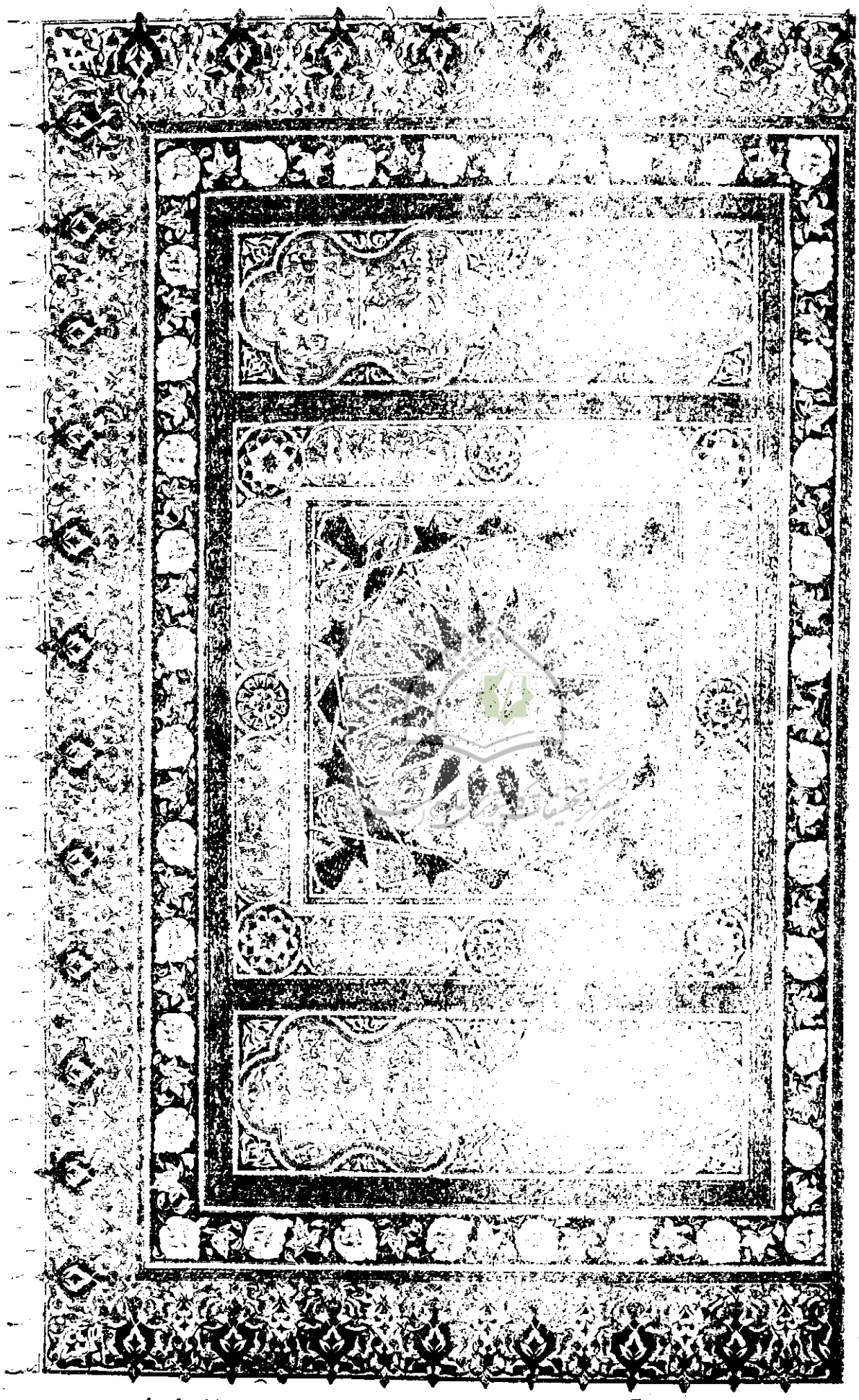

صفحة من القرآن الكريم - عصر السلطان شعبان مقسمة على مناطق يتوسطها شكل نجمى
ويحيط بها شريط من زخارف نباتية ثم إطار حافل بالزخارف

مكتبتنا العربية

للفنون الإسلامية قد امتازت بالتنوع وتناول الكائنات الحية بالتسجيل ، ولكن الطرز التى ازدهرت فى مصر والشام لهذه الفنون تعد أعظم قدراً لما امتازت به من بساطة محببة هى أولى قوانين النجاح الفنى إلى جانب الذوق الخالص الرفيع .

ويُعد الخط العربى فى مقدمة الفنون الإسلامية الرائعة ، وقد بدأ بسيطاً خالياً من التحلية ، ثم تدرج وتطور على تعاقب العصور حتى بلغ مرتبة فنية سامية لم يبلغها أى خط آخر سواه . وكان لليونة حروفه ومطاوعتها واختلاف رسومها وأشكالها من تقوس وانبساط واستقامة عمودية أو أفقية خير معوان للفنان على جعله عنصراً من عناصر الزخرفة والتجميل . ولا تزال الكتابات الزخرفية العربية التى ازدانت بها واجهات المساجد والأضرحة الإسلامية من أبرز معالم الفنون التى امتاز بها العرب والمسلمون وأحفلها بالروعة والإبداع باعتراف أهل الفن من غربيين وشرقيين .

ولهذه الكتابات العربية الزخرفية عدا ذلك فوائد ومزايا عديدة ، من بينها أنها تسجل تاريخ ما نقشت عليه من بنايات أو أدوات ، وتحدد الأسلوب الفنى للعصر أو الإقليم الذى وُجدت فيه ، كما أنها كانت وسيلة إلى تجنب الفنان المسلم ذلك التكرار الممل الذى كان مضطراً إليه فيما يرسم من وحدات زخرفية ، بحكم عدم استطاعته ملء فراغ المساحات التى لديه بصور الأحياء .

هذا إلى أن الخط العربى كان يفصح بطريقة كتابته عن البلد الذى نشأ فيه [١] فتجد خطاً مكياً وآخر مدنياً إلى جانب خط الأنبار والحيرة [٢] والكوفة [٣] . وكانت النتيجة المحتومة لهذا أن الفنانين من الخطاطين الذين بدأوا خطهم فى معظم الأحوال بالحفر على الحجر أو الخشب أخذوا يكثرون من استعمال الخطوط المستقيمة والتقليل من الخطوط المقوسة ، وبذلك أصبح الخط العربى فى أول أمره كثير التضليع يابسا جافا ، فجاء « هندسيا » كما هو الحال فى أول أنواع الخط الكوفى الذى انتشر فى العالم الإسلامى كله .

إناء بنقوش عربية من وضع هانس هولباين فى سنة ١٥٣٧م عن كوفل

[١] انتشار الخط العربى فى العالم الشرقى والعالم الغربى لعبد الفتاح عبادة ، القاهرة ١٩١٥

[٢] تاريخ أدب اللغة العربية لحفنى ناصف ، القاهرة (ج ٢ ص ١٢٤ وما بعدها) .

[٣] تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان (ج ٣ ص ٥٤) .

مكتبتنا العربية

ثم كان من أثر كثرة المكاتبات فى المعاملات والمراسلات تبعاً لتقدم الحياة الإسلامية وتطورها، أن تحرر الخط العربى من جفاف تلك الخطوط المستقيمة، وصارت الكتابة العربية مدورة لينة مرنة. ولا يمكن اعتبار هذا الاتجاه ضعفاً فنياً أو تخلصاً مما يطلبه فن الكتابة الكوفية من جهد ووقت، ذلك لأن الطرازين: طراز للكتابة الفنية الكوفية وطراز الكتابة المدنية السريعة، عاشا وأقاما وانتشرا جنباً إلى جنب منذ بداية التمدن الإسلامى.

وهنا نذكر ما للقرآن الكريم من فضل عظيم على الفن الإسلامى والفنانين المسلمين، فإن الاشتغال بكتابة المصاحف مع التفانى فى إظهارها بمظهر فاخر باهر، يتناسب مع جلالها ومكانتها العظيمة، كان منبعاً فياضاً ومجالاً فسيحاً لإبراز المقدرة الفنية فى رسم الخط العربى وتجويده وزخرفته.

وكذلك كان لكتب الأدب ودواوين الشعر فضل مشكور فى تقدم فن الكتابة الزخرفية، كما يمكن القول بأن كثيراً من الفضل فى عناية الفنانين من الخطاطين بذلك التجويد يرجع إلى ما جرت به العادة من تسجيل كل منهم اسمه تحت ما يكتبه، مما لم يعهد فى غير الخط من الفنون إلا نادراً.

وقد ظهرت فى الآفق الفنى أساليب جديدة فى كتابة الخط العربى سميت بالخط النسخى والثلث والريحانى والتعليق ثم جاء بعدها خط الرقعة والخط الديوانى وغيرهما مما لا يتسع المجال للإفاضة فى الحديث عنه [١].

ولئن كانت الفنون القديمة السابقة للفنون الإسلامية، قد عرفت كثيراً من الرسوم والنقوش الهندسية أو الزخرفية، فالواقع أن استعمالها فى تلك الفنون القديمة لم يكن مقصوداً لذاته، بل كان من قبيل الاستعانة بها على تكملة الموضوع، أى أنها كانت شيئاً ثانوياً وليست فى صميم الفن وجوهره، كما هو شأنها فى الفنون الإسلامية حيث تكون العنصر الأساسى فيها جميعاً بلا استثناء.

ومن أجل ذلك كان طبيعياً أن امتاز فن الزخرفة الإسلامية بما وضع له من أصول وقواعد، وبما عُنى به أساطين البحوث الفنية من تحليل هذه الزخرفة وإرجاع خطوطها ومعالمها

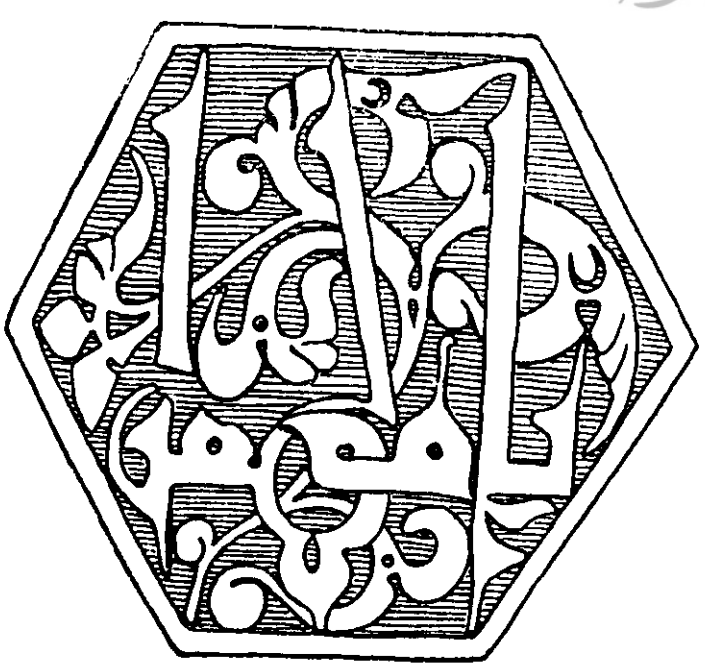

كتابة كوفية مزخرفة من إيران - القرن الثانى عشر - عن كوفل

[١] فنون الاسلام للدكتور زكى محمد حسن ص ٢٢٧ وما بعدها.

مكتبتنا العربية

المركبة إلى أصولها البسيطة أو إلى الخطوط والأشكال الهندسية الأولية التى تألفت منها .

وقد أثبتت هذه البحوث التحليلية الفنية بما لا يدع مجالاً للشك أن الفنانين المسلمين بلغوا درجة عظيمة لم يبلغها غيرهم من حيث الخبرة التامة بالرسم الآلى الهندسى وتقسيم الدوائر واستعمال الفرجار .

ويمكن القول بأن هذه الرسوم الهندسية العربية استمر تطورها وتقدمها على مر العصور حتى بلغت قمة الإبداع والروعة فى مصر أثناء حكم المماليك ، حيث كانت تستخدم لزخرفة المصنوعات الخشبية والمعدنية ولتحلية المصاحف والكتب فضلا عن استخدامها فى تزيين المساجد والأضرحة والمدارس وما إليها من البنايات الدينية والمدنية .

ويبلغ من إعجاب الفنانين الغربيين بالفنون الزخرفية الإسلامية وما اشتملت عليه من بدائع الرسوم والأشكال الهندسية أن تأثر بها كثير من أساطين الفن عندهم ؛ فجاءت بعض لوحات « ليوناردو دافينشى » الفنان الإيطالى الكبير مشتملة على زخارف إسلامية ، كما وجد بعض هذه الزخارف مسجلاً طبق الأصل فى بعض ما أنتجه الفنان العظيم « هانس هولباين » ، كما ثبت اقتباس كثير من الزخارف الإسلامية فى اللوحات النحاسية التى كان يحفرها الفنانون الألمان بأيديهم فى منتصف القرن السادس عشر .

بقى أن نشير إلى ميزة أخرى لفن الزخرفة الإسلامية ، وتلك هى ما يلاحظ آثارها الماثلة للعيان حتى الآن من توافر الوحدات النباتية دون التقيد بالطبيعة أو تقليدها تقليداً تاماً ، فنى كثير من هذه الآثار نجد منتجيها من الفنانين المسلمين قد استخدموا فى الزخرفة أجزاء يسيرة من المرئيات الطبيعية كجذوع الأشجار وأوراقها وثمارها ، ثم اتخذوا منها نماذج أو وحدات كرروها لملء فراغ المساحات التى يزخرفونها

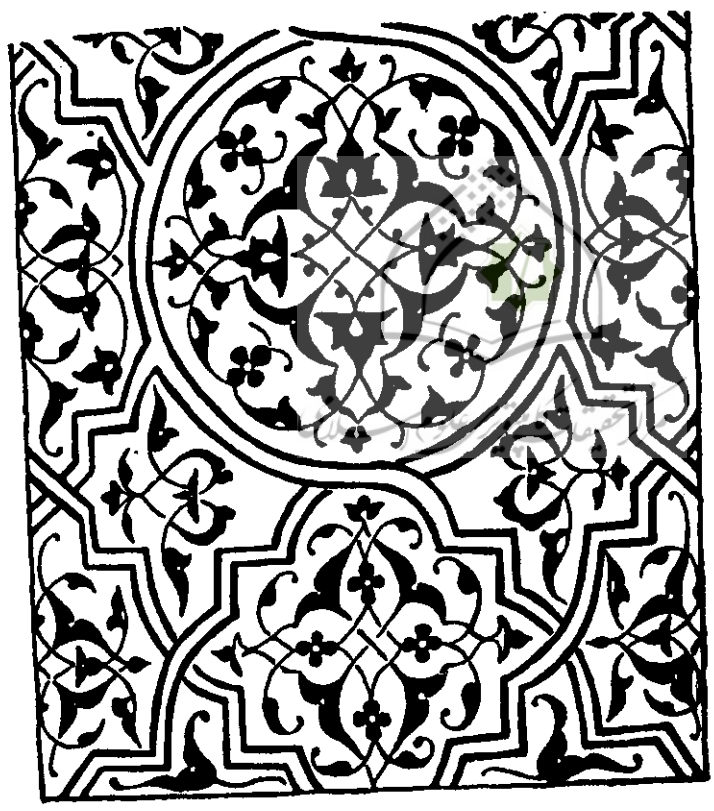

زخارف نباتية من كتاب بليجرينو فى سنة ١٥٢٠ عن كوفل

مع التفنن فى هذا التكرار ، بوضعها متقابلة أو متناظرة تارة ، ووضعها متجاورة أو متعاكسة تارة أخرى ... وهلم جرا .

ومن هنا نشأ ما أطلق عليه الأوربيون اسم « أرابسك » منذ عصر النهضة الإيطالية ، وأطلق

مكتبتنا العربية

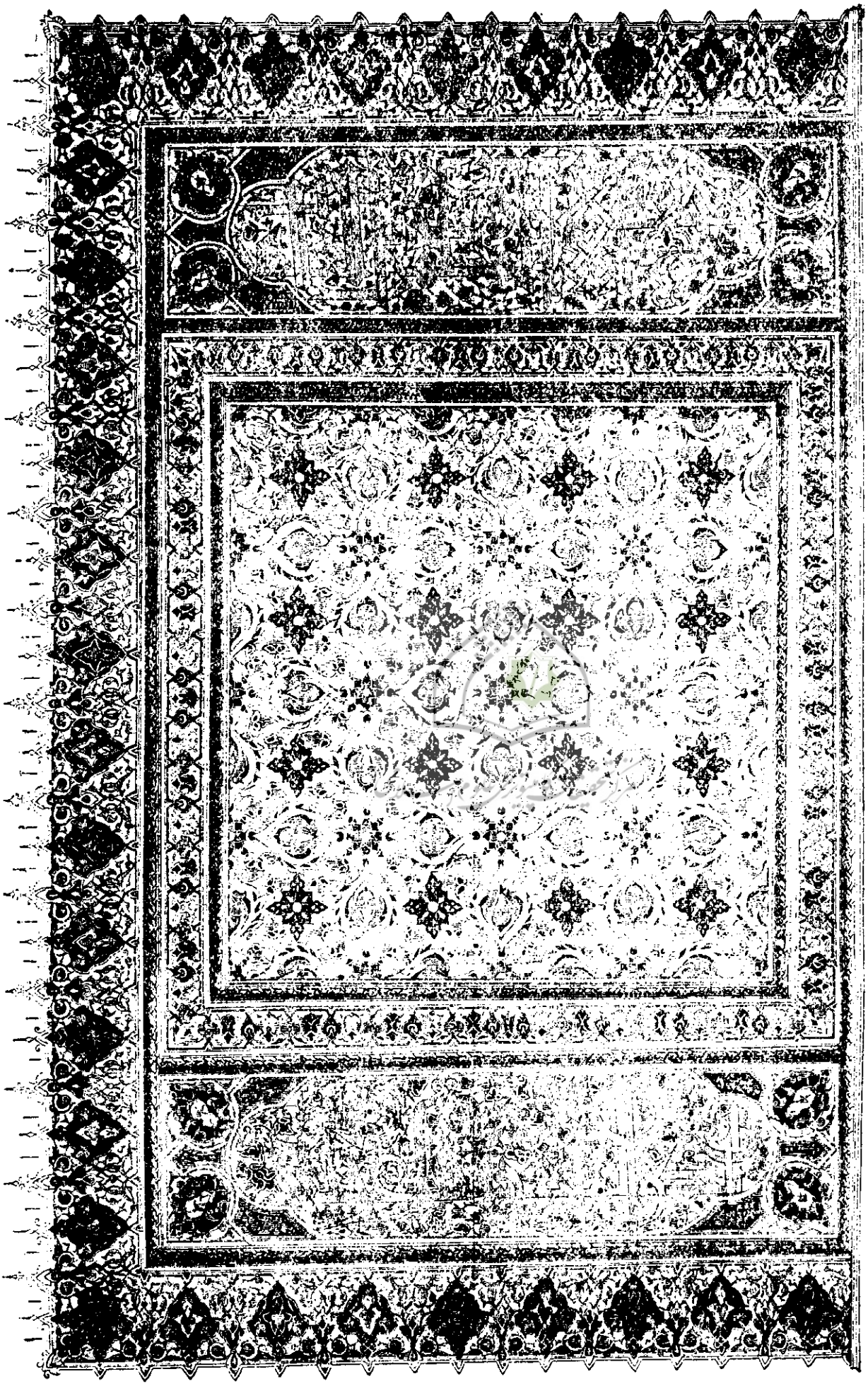

إحدى صفحات المصحف الشريف من عصر السلطان المؤيد

مكتبتنا العربية

آراء وأحاديث

مجلة الازهر

للاستاذ عبد الله أمين

صدر العدد الأول من مجلة الأزهر فى عهدها الجديد ، فى غرة شهر رمضان لسنة ١٣٧١ هـ ، فإذا به فى ورقه وغلافه وطبعه وضخامته ، فى الذروة العليا من المجلات التى تصدر بالعربية فى مصر وغيرها ، وإذا حُقق رجاؤها - ونرجو أن يحقق - فستكون فى الأعداد التالية أجمل وأجود.

أما كتّاب هذا العدد فهم الصفوة المختارة من رجال العلم والأدب ، فى العالم العربى كله ، ومنهم من ملأت شهرتهم المشارق والمغارب، وهؤلاء أنفسهم هم الذين تهافت عليهم جميع المجلات والصحف المصرية لتظفر من أحدهم بمقال تزين به جيدها ، وتضمن به تهافت القراء عليها ورواجها .

وأما ما كتبه كل منهم فى هذا العدد فهو من خير ما كتب ، ومن خير ما تزدان به المجلات والصحف ، وحسب هذا العدد مقال حضرة الأستاذ مدير المجلة ورئيس تحريرها الأستاذ أحمد حسن الزيات وهو (عهد جديد) ، فهو جدير بأن يوزن العدد كله من أجله بالجواهر . إنه من أجود الكلام معانى ومبانى وترتيباً .

لا شك أن هذا العدد غزير المعانى ، جليل القدر ، منقطع النظير ، والمأمول فى همة مدير المجلة ورئيس تحريرها ، ولباقته وخبرته أن يطّرد تقدمها على يديه ، حتى تبلغ ما يرجى لها من كمال ، ولن تبلغ هذا الكمال المرجو بدون أن تفسح صدرها للنقد .

ولهذا أقول : إن ما يشعر به القارىء حين يطلع على هذا العدد لأول نظرة أنه يسابق المجلات المصرية فى ميدان واحد ، وإن كان هو المجلى فيه ، فكتابه هم كتابها ، وإن اجتمع فيه منهم من لم يجتمع فى عدد آخر من المجلات الأخر، وأساليبهم ومعانيهم ومناحيهم هى هى ، مع شىء من العناية اللائقة بمجلة الأزهر، وإذا أردنا أن نرى فى هذا العدد صورة يعينها ، رأينا صورة لجامعة

عليه الألمان منذ عصر نهضتهم الفنية اسم «ماريسك» Maureske وجعلوه علماً على كل الزخارف المألفة من الفروع النباتية المتشابكة وما إليها .

وإلى جانب هذه الوحدات النباتية التى استخدمها الفنانون المسلمون فى الزخرفة ، استخدم بعضهم أيضاً رسوم بعض أنواع الحيوان والوحوش والطير والحشرات ، كالأسود والفهود والظباء والأرانب والحمائم ، ولعل هؤلاء الفنانين المسلمين قد اقتبسوا هذه الرسوم من البلاد الشرقية التى دخلها الإسلام كالصين وإيران وغيرهما حيث كان الفنانون هناك يرسمون صور الحيوانات خرافية مثل الشين أو البراق (فرس له وجه آدمى) . وقد استخدم رسم البراق هذا كثيراً فى زخرفة القصص المكتوبة عن المعراج ، كما رسموا بعض الأفاعى والحيات والعقارب تحت أقدام بعض الواصلين من المشايخ .

أحمد موسى

مكتبتنا العربية

آراء وأحاديث

مجلة الازهر

للاستاذ عبد الله أمين

صدر العدد الأول من مجلة الأزهر فى عهدها الجديد ، فى غرة شهر رمضان لسنة ١٣٧١ هـ ، فإذا به فى ورقه وغلافه وطبعه وضخامته ، فى الذروة العليا من المجلات التى تصدر بالعربية فى مصر وغيرها ، وإذا حُقق رجاؤها - ونرجو أن يحقق - فستكون فى الأعداد التالية أجمل وأجود.

أما كتّاب هذا العدد فهم الصفوة المختارة من رجال العلم والأدب ، فى العالم العربى كله ، ومنهم من ملأت شهرتهم المشارق والمغارب، وهؤلاء أنفسهم هم الذين تهافت عليهم جميع المجلات والصحف المصرية لتظفر من أحدهم بمقال تزين به جيدها ، وتضمن به تهافت القراء عليها ورواجها .

وأما ما كتبه كل منهم فى هذا العدد فهو من خير ما كتب ، ومن خير ما تزدان به المجلات والصحف ، وحسب هذا العدد مقال حضرة الأستاذ مدير المجلة ورئيس تحريرها الأستاذ أحمد حسن الزيات وهو (عهد جديد) ، فهو جدير بأن يوزن العدد كله من أجله بالجواهر . إنه من أجود الكلام معانى ومبانى وترتيباً .

لا شك أن هذا العدد غزير المعانى ، جليل القدر ، منقطع النظير ، والمأمول فى همة مدير المجلة ورئيس تحريرها ، ولباقته وخبرته أن يطّرد تقدمها على يديه ، حتى تبلغ ما يرجى لها من كمال ، ولن تبلغ هذا الكمال المرجو بدون أن تفسح صدرها للنقد .

ولهذا أقول : إن ما يشعر به القارىء حين يطلع على هذا العدد لأول نظرة أنه يسابق المجلات المصرية فى ميدان واحد ، وإن كان هو المجلى فيه ، فكتابه هم كتابها ، وإن اجتمع فيه منهم من لم يجتمع فى عدد آخر من المجلات الأخر، وأساليبهم ومعانيهم ومناحيهم هى هى ، مع شىء من العناية اللائقة بمجلة الأزهر، وإذا أردنا أن نرى فى هذا العدد صورة يعينها ، رأينا صورة لجامعة

عليه الألمان منذ عصر نهضتهم الفنية اسم «ماريسك» Maureske وجعلوه علماً على كل الزخارف المألفة من الفروع النباتية المتشابكة وما إليها .

وإلى جانب هذه الوحدات النباتية التى استخدمها الفنانون المسلمون فى الزخرفة ، استخدم بعضهم أيضاً رسوم بعض أنواع الحيوان والوحوش والطير والحشرات ، كالأسود والفهود والظباء والأرانب والحمائم ، ولعل هؤلاء الفنانين المسلمين قد اقتبسوا هذه الرسوم من البلاد الشرقية التى دخلها الإسلام كالصين وإيران وغيرهما حيث كان الفنانون هناك يرسمون صور الحيوانات خرافية مثل الشين أو البراق (فرس له وجه آدمى) . وقد استخدم رسم البراق هذا كثيراً فى زخرفة القصص المكتوبة عن المعراج ، كما رسموا بعض الأفاعى والحيات والعقارب تحت أقدام بعض الواصلين من المشايخ .

أحمد موسى

مكتبتنا العربية

من الجامعات المدنية أو لغيرها، أما الجامعة الأزهرية التى صَدَر عنها و باسمها فلا يمكن أن يكون مرآة صادقة لها تتجلى فيها صورتها على حقيقتها .

إنما تكون مجلة الأزهر مرآة صادقة للأزهر ، حين يكون جميع محرريها من أبناء الأزهر لحماً ودماً وروحاً ، أى ممن تعلموا فيه وأصبحوا معلمين فيه ، ووقفوا كل حياتهم وجهودهم على تفهم رسالته والعمل بها ، وعلى تأدية هذه الرسالة ، وحين يكون كل ما يكتب فيها ، فى هذه الرسالة نفسها ، ولا ينقض هذا وذاك ، أن تنشر المجلة لبعض النابهين من غير أبناء الأزهر ، من أمثال كتاب هذا العدد شيئا ما فى هذه الرسالة أو فيما يتصل بها من قرب أو من بعد .

وما رسالة الأزهر التى يجب أن تكون القبلة التى يتوجه إليها جميع طلابه وأساتذته، وألا تتحول عنها أبصارهم وقلوبهم ونفوسهم قيد شعرة ؟ إنى لا أبالغ ولا أتجنى إذا قلت : إن هذه الرسالة غير محدودة . وبعبارة أخرى غير واضحة المعالم . ولقد آن الأوان لوضع حدودها ، وتبين معالمها ، فى هذا العصر الذى تكاثرت فيه وقويت عوامل الإلحاد والإباحة ، والتحرر من قيود الأديان واشتدت فيه حاجة البشر إلى الدين النظيف الخالص الذى يستولى على عقولهم وقلوبهم ، وينقذهم مما هم مشرفون عليه من الشقاء والدمار .

إن رسالة الأزهر هى رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت هذه الرسالة الحكيمة الرحيمة الفذة ، وتحتوى بلا شك على أقسام الدين الأربعة وهى :

١ ـ العقائد ، وهى الإيمان بالله ورسله وبعالم الغيب ، من الملائكة والجن والحياة الآخرة .

٢ ـ العبادات ، وهى الصلاة والصوم والزكاة والحج .

٣ ـ الفضائل والآداب، ويجمعها تزويد الجسوم والنفوس والعقول بما ينميها ويقويها ويزينها ويطهرها مما يشينها .

٤ ـ المعاملات ، وتجمع كل الأمور القضائية ، والسياسية ، والإدارية ، والحربية ، والصحية ، وغيرها من الأمور التى تنظم حياة الجماعات .

غير أن الجزء الأكبر من عناية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن جهوده ، إن لم تكن كلها كانت ، موجهة فى عهد الرسالة كلها وهو ثلاث وعشرون سنة ، إلى تحرير العقائد والعبادات ، من عقائد الشرك وعباداته . وذلك لأن العقائد والعبادات هى الدين المحض ، فهما كما جاء فى مجلة المنار الإسلامى يكملان أمور الإنسان الروحية وينظمان علاقته بربه ، ويفضيان به إلى سعادة الدار الآخرة ، وفيهما مع ذلك ناحية دنيوية ؛ لأنهما يحرران العقول من الأوهام والخرافات ، والنفوس من الرذائل والضلالات ، وفى ذلك التحرير سعادة البشر فى الدنيا أيضاً .

وهما اللذان قال فيهما سبحانه وتعالى « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » ولذلك يجب أن تلتزم فيهما الحدود التى حدها الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول والعمل ، وجرى عليها الصدر الأول من الصحابة ، بلا زيادة ولا نقص ، لا بقياس ،

مكتبتنا العربية

ولا بدعوى إجماع لمن بعدهم ، ولا لمصلحة ، ولا لغير مصلحة ، ولا لغير ذلك من العلل والأسباب .

هكذا كان هم الرسول صلى الله عليه وسلم ، مصروفا كله إلى تصحيح العقائد والعبادات ؛ لأنهما الدين المحض ، ولأن المشركين كانوا منغمسين إلى الأذقان فى الشرك وفيما يتفرع منه من الأوهام والخرافات، والرذائل والضلالات ، وهذه وتلك المصدر الأكبر الأول لشقاء البشر وتعاسته فى الدنيا والآخرة جميعاً ، ولن يستقيم له أمر فيهما ما لم يرد إلى العقائد والعبادات النظيفة ، وهى الإسلامية حقا .

وما حال المسلمين والمشركين الآن ، وغداً وبعد غد ، وإلى أن تقوم الساعة ، فى مشارق الارض ومغاربها ، ومنها مصر العزيزة مقر الأزهر الشريف ، بأحسن من حال المشركين حين الرسالة : فالناس هم الناس فى كل زمان ومكان ، إنهم عبيد التراث القديم الذى ورثوه منذ آلاف السنين عن الآباء والأجداد ، وعما أحاطهم من ملابسات ومؤثرات ودرجوا عليه وطبعوا بطابعه . إنه ملىء دائماً بالجهالة والضلالة لا يتحررون من فساد العقيدة ، ولا من فساد العبادات ، وهما أصل شقائهم ومصدر بلائهم . فهم دائماً فى حاجة ملحة إلى حرب عنيفة شعواء واسعة النطاق ضد عقائد الشرك وعباداته ، وأصل هذا الفساد كله دعاء غير الله الواحد القهار ، فى الحديث الصحيح : « الدعاء مخ العبادة » .

فلا يمكن أن يعد الأزهر حاملا لواء الرسالة المحمدية العليا ، إذا لم يرفع علم هذه الحرب عالياً خفاقا ضد البدع والخرافات ، والأوهام والضلالات ، فى كل مكان ، وفى مجلة الأزهر .

فمتى يعلنُ هذه الحرب ؟ إن جميع الأحوال الآن تدل دلالة قاطعة على أن وقتنا هذا هو الوقت الملائم لشن هذه الحرب ؛ فالبلاد الإسلامية وفى مقدمتها مصر تسابق الريح بل الأمواج الكهربية ، طائعة أو مكرهة ، فى سبيل الأخذ بأسباب المدنية الحديثة التى تكاد تقضى على الأديان كلها ، وفى الأزهر الآن نخبة من العلماء الذين يؤمنون بالدين الخالص ، ويعتقدون أن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ، ويمقتون هذه البدع أشد المقت .

وفى مقدمة هؤلاء : الحبيب العزيز القديم حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر ، بقية السلف الصالح ، وإذا تم فى عهده الميمون إنشاء المعهد الحديث للدعوة الإسلامية - ونرجو أن يتم إنشاؤه قريباً إن شاء الله تعالى - كان إنشاؤه الخطوة الأولى التى لا بد منها لتحرير العقائد والعبادات ، وهما الدين المحض ، مما علق بهما .

فلا نزاع أن أساس الدراسات فى هذا المعهد ستكون الدين الخالص ، والفصل بينه وبين غيره من الأديان ، ومما أضافته إليه الأمم من عقائد الشرك وعباداته ، وأن العلماء الذين يتمون الدراسة فيه سيقفون جنبا إلى جنب مع العلماء الذين أتموا الدراسة فى قسم الوعظ والإرشاد وغيرهم من العلماء الذين يجيدون الوعظ والإرشاد ، فيكتمل للأزهر بهؤلاء وهؤلاء القيام بالرسالة كلها ؛ فإن رسالة

مكتبتنا العربية

الوعظ والإرشاد ، الدعوة إلى : (١) الفضائل والآداب (٢) تقويم المعاملات بين الناس فهى تحيى القسمين الثالث والرابع من أقسام الدين .

وهذان القسمان كما جاء فى مجلة المنار الإسلامى دنيويان ؛ لأنهما مدنيان اجتماعيان منظمان لشؤون الإنسان فى الدنيا ، وعلاقته بأهـــله وبقومه وبغيرهما من خلق الله سبحانه ، فيسعد بهما هو ومن يتصل به فى الدنيا .

وفيهما مع ذلك ناحية دينية ؛ لما ورد فيها من نصوص فى الحلال والحرام تجب طاعتها والعمل بها ، وفى هذه الطاعة ، وفى هذا العمل زلفى إلى الله سبحانه وحسن مآب ؛ لما فيهما من نفع ، وتربية للنفس ، وفى عصيانهما ومخالفتهما بعد من الله وسوء مآب ، وفى إحلال حرامهما ، وتحريم حلالهما عمداً كفر . وهذا ما يؤيد أنهما دينيان من ناحية .

وهنا فى هذين القسمين مجال للزيادة بالقياس وبالإجماع فيما لم يرد فيه نص فيهما ، وهذا موكول لأولى الأمر ، وفى أولى الأمر كلام يطلب فى مواضعه .

فللأزهر رسالة أخذ بالشطر الثانى منها ، وأعد لها عدتها وقام ويقوم بها ، أما الشطر الأول من هذه الرسالة فهو يتهيأ له الآن ، ونطالبه به . إن هذا الشطر الأكبر الأول بل الأزهر كله أمانة للإسلام والمسلمين بين يدى حكيم خبير من أبناء الأزهر ، هو شيخه الإمام الجليل ، ومجلة الأزهر هى الأخرى أمانة للأزهر بين يدى أجدر الصحفيين بحمل هذه الأمانة ، وهو حضرة الأستاذ مديرها ورئيس تحريرها أحمد حسن الزيات ، ووفاؤه بهذه الأمانة لا يكون إلا بأن يعمل جاهداً على إحلال أبناء الأزهر من العلماء المؤمنين بالرسالة على النحو الذى شرحته هنا فى تحرير المجلة محل المختارين لتحريرها من غيرهم وذلك بالتدريج فى مدة لا تتجاوز بضع سنين على أن يكون هو آخر من يتخلى عن المجلة ويدع إدارتها ورياسة تحريرها لمن يختاره هو منهم لها - والله ولى التوفيق - بعد كتابة هذا المقال صدر عدد شوال سنة ١٣٧١ من المجلة فإذا به كعدد رمضان .

عبد الله أمين

تعقيب :

وافق الأستاذ على جملة قوله ، ولا أعقب إلا على رأيه فى تحرير المجلة .

المسألة ياسيدى الأستاذ واحدة من ثلاث : إما أن تخرج المجلة بيضاء ؛ وإما أن أكتبها كلها بقلمى ؛ وإما أن استكتب لها الكتاب . فالأولى غير معقولة ، والثانية غير مقبولة ، والثالثة فيها كلام .

توليت إدارة هذه المجلة وليس فيها محرر ولا مترجم ولا موظف يعين على التحرير والترجمة . فلم أجد بدا من الاستعانة بالكتاب الذين حملوا أمانة العلم وفهموا ثقافة الإسلام . وكان من أول هؤلاء وأولاهم كتاب الأزهر ، ولكن معرفتى بأكثرهم قليلة . وهم لم يتكرموا بالتعارف ولم يتقدموا بالمعونة ، فلجأت إلى من أعرف من الأزهريين والجامعيين والمجمعيين . وخرج عدد رمضان على النحو الذى عرفت . ولم تتغير الحال فى عدد شوال فصدر على الوضع الذى رأيت .

مكتبتنا العربية

الفتـــــح المبين

حديث من أحاديث الاذاعة المصرية ألقاه صاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت فى ذكرى الفتح ، فرأينا أن ننشره فى هذا العدد الخاص بالفتوح استزادة من صحائف المجد واستفادة من أدب الأستاذ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا ».

فى السنة السادسة من الهجرة رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين ، محلقين رءوسهم ومقصرين . وأخبر المسلمين بهذه الرؤيا . وثقة بما أراه ربه - وهو لا يريه إلا حقاً - توجهت نفسه إلى تحقيق هذه الرؤيا ، فاستنفر أصحابه واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه ، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، اعتذروا وتعللوا ، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار معلنا أنه لا يريد حربا ، وإنما يريد عمرة ونسكا . وعلى الرغم من ذلك جاءته الأنباء بأن قريشاً أجمعوا على منعه من دخول مكة وصده عن المسجد الحرام وأنهم تجهزوا فعلا لقتاله ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ، تفاديا للقتال الذى لا يريده ، غير طريقه الذى ترصدوا له فيه ، وتحول بأصحابه إلى جهة تعرف باسم الحديبية ، قريبة من مكة . وفى هذا المكان جاءه سفير من قريش يتحدث معه فيما يريد ، واتصلت المفاوضة بينه وبين قريش حتى بعث إليهم عثمان بن عفان يوضح لهم مقصده ، وأنه لا يريد قتالا . ولما أبطأ عثمان ابن عفان فى مكة ، شاع فيما بين المسلمين أن قريشا قتلته ، وهنا قال الرسول : لا نبرح حتى

وفى عدد المحرم الذى بين يديك اختلف الأمر بعض الاختلاف . لم أجد بعد ثلاثة أشهر مسوغا لانتظار التعارف أو التعاون ، ففزعت إلى لجنة من صفوة العلماء الأصدقاء فى الأزهر ومعى خطة لهذا العدد الخاص مبينة المعانى معينة الأغراض ، وسألتهم أن يختاروا لهذه الموضوعات كتابها من رجال الأزهر ، فاختاروا طائفة من أعيانهم كتبت إلى كل منهم رسالة بموضوعه وموعده . ثم انتظرت ونظرت فإذا الأساتذة جميعـــاً لا يكتبون ولا يعتذرون ، ما عدا الأستاذ الشيخ محمد عرفه ، وكان الوقت قد ضاق عن استكتاب غيرهم ممن يكتبون أو يعتذرون فنزلنا مضطرين على حكم الواقع ، فإذا رأيت يا سيدى الأستاذ فى هذا العدد خللا لم يسد وفجوة لم تملأ ، فأرجع هذا إلى ذاك .

ورأيى قبل هذا أن الأزهر فكرة ؛ فكل من أخذ بها وعبر عنها ودعا إليها فهو أزهرى وإن لم يخرجه الأزهر . أما رأيى بعد هذا ، فهو أن العبء باهظ والجو خانق والعدة ضعيفـــة والمعاونة قليلة والسن متقدمة والصحة متأخرة . وما أطعت فضيلة الشيخ الأكبر الإمام عبد المجيد سليم فى تولى هذه المجلة إلا لأرسم الخطة وأضع النموذج . وفى اعتقادى أن فى الأعداد الثلاثة التى صدرت على علاتها ما يكفى .

ولك يا سيدى الأستاذ أجزل الشكر على جميل رأيك وحسن ظنك .

مدير المجلة

مكتبتنا العربية

الفتـــــح المبين

حديث من أحاديث الاذاعة المصرية ألقاه صاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت فى ذكرى الفتح ، فرأينا أن ننشره فى هذا العدد الخاص بالفتوح استزادة من صحائف المجد واستفادة من أدب الأستاذ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا ».

فى السنة السادسة من الهجرة رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين ، محلقين رءوسهم ومقصرين . وأخبر المسلمين بهذه الرؤيا . وثقة بما أراه ربه - وهو لا يريه إلا حقاً - توجهت نفسه إلى تحقيق هذه الرؤيا ، فاستنفر أصحابه واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه ، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، اعتذروا وتعللوا ، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار معلنا أنه لا يريد حربا ، وإنما يريد عمرة ونسكا . وعلى الرغم من ذلك جاءته الأنباء بأن قريشاً أجمعوا على منعه من دخول مكة وصده عن المسجد الحرام وأنهم تجهزوا فعلا لقتاله ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ، تفاديا للقتال الذى لا يريده ، غير طريقه الذى ترصدوا له فيه ، وتحول بأصحابه إلى جهة تعرف باسم الحديبية ، قريبة من مكة . وفى هذا المكان جاءه سفير من قريش يتحدث معه فيما يريد ، واتصلت المفاوضة بينه وبين قريش حتى بعث إليهم عثمان بن عفان يوضح لهم مقصده ، وأنه لا يريد قتالا . ولما أبطأ عثمان ابن عفان فى مكة ، شاع فيما بين المسلمين أن قريشا قتلته ، وهنا قال الرسول : لا نبرح حتى

وفى عدد المحرم الذى بين يديك اختلف الأمر بعض الاختلاف . لم أجد بعد ثلاثة أشهر مسوغا لانتظار التعارف أو التعاون ، ففزعت إلى لجنة من صفوة العلماء الأصدقاء فى الأزهر ومعى خطة لهذا العدد الخاص مبينة المعانى معينة الأغراض ، وسألتهم أن يختاروا لهذه الموضوعات كتابها من رجال الأزهر ، فاختاروا طائفة من أعيانهم كتبت إلى كل منهم رسالة بموضوعه وموعده . ثم انتظرت ونظرت فإذا الأساتذة جميعـــاً لا يكتبون ولا يعتذرون ، ما عدا الأستاذ الشيخ محمد عرفه ، وكان الوقت قد ضاق عن استكتاب غيرهم ممن يكتبون أو يعتذرون فنزلنا مضطرين على حكم الواقع ، فإذا رأيت يا سيدى الأستاذ فى هذا العدد خللا لم يسد وفجوة لم تملأ ، فأرجع هذا إلى ذاك .

ورأيى قبل هذا أن الأزهر فكرة ؛ فكل من أخذ بها وعبر عنها ودعا إليها فهو أزهرى وإن لم يخرجه الأزهر . أما رأيى بعد هذا ، فهو أن العبء باهظ والجو خانق والعدة ضعيفـــة والمعاونة قليلة والسن متقدمة والصحة متأخرة . وما أطعت فضيلة الشيخ الأكبر الإمام عبد المجيد سليم فى تولى هذه المجلة إلا لأرسم الخطة وأضع النموذج . وفى اعتقادى أن فى الأعداد الثلاثة التى صدرت على علاتها ما يكفى .

ولك يا سيدى الأستاذ أجزل الشكر على جميل رأيك وحسن ظنك .

مدير المجلة

مكتبتنا العربية

تناجزهم الحرب . ودعا أصحابه للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك ، عرفت بشجرة الرضوان . ولما ذاع نبأ تلك البيعة ، ووصل قريشاً أمرها ، وهم يعرفون قيمة البيعة عند المؤمنين ، لجأوا إلى المسالمة ، وأرسلوا إلى الرسول عليه السلام من يعرض عليه الصلح . وقد تم الصلح بشروط قبلها النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأى فيها بعض أصحابه غبناً شديداً على المسلمين ، فتلكأوا به بعض الوقت فى تنفيذ ما أمرهم به النبي من التحلل والرجوع ، ثم سارعوا إلى الامتثال حينما رأوه يباشر فعلا عملية التحلل بالنحر والحلق ، فتحللوا ورجعوا إلى المدينة وفى قلوبهم ما فيها من آلام الموقف . ولكن الله العليم بخير هذا الصلح على المسلمين وما يثمره من الثمرات الطيبة فى نشر الدعوة بادرهم بإنزال تلك السورة العظيمة وهم فى طريقهم إلى المدينة ليكشف لهم الغطاء عما لم يدركوا من أسرار توجيهه النبي عليه السلام وأكد لهم أن ما حصل ليس كما يظنون « غبنا ودنية » .

وإنما هو فتح ، وفتح مبين : فتح للعقول لتدرك سمو الإسلام ، وفتح للقلوب لتخالطها بشاشة الإيمان ، وفتح لمكة وغيرها من القرى والمدن التى ستعلو فيها كلمة الحق والعدل ، ويندك بها صرح الباطل والظلم ، وأنه بهذا الفتح سيطهر قلب النبي صلى الله عليه وسلم من الحرج واستبطاء نصر الله له الذى كان يحسه فى مواقف الشدة ، ويظفر بإتمام نعمة الله عليه وإكمال دينه بالتشريع والبيان ، وبهدايته هداية عملية واقعية ، إلى صراطه المستقيم ، وبالنصر الذى لا تعتريه هزيمة ، ولا يلحقه غلب « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزا » .

ثم يمتن الله فى السورة على المؤمنين بموقفهم فى الانقياد للنبي صلى الله عليه وسلم وأمره إياهم بالرجوع معه إلى المدينة ، وأن ذلك لم يكن إلا بطمأنينة ملأ الله بها قلوبهم « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » . وأن الله تعالى كان قادرا على أن يشرد بأعدائهم - بما له من جنود السموات والأرض - دون أن يكون للمؤمنين دخل فى هزيمتهم ، وتمزيق قوتهم ، ولكنه سبحانه رتب الأمر هكذا وجعله بأيدى المؤمنين لينالوا ما أعد لهم من نعيم ، ولينكشف المنافقون والمشركون ، وينزل بهم ما يستحقون من جحيم ، وقد نوهت السورة بعد ذلك بالمبايعة التى حصلت تحت الشجرة ، « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا » . كما فضحت أسرار المنافقين الذين لم يخرجوا معه . وفى ذلك يقول « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » . « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ، ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل » . وفى بيان الحكمة فى قبول الصلح وعدم القتال ، وأن ذلك

مكتبتنا العربية

لم يكن ضعفا ولا عجزا من المؤمنين ، تقول السورة « ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا » . وتقول « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم» وتقول « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم » .

ولقد كان من بركة هذا الموقف أن اعترفت قريش للمؤمنين بدولة ، لها كيانها ، ولها سفراؤها ، ولها قوتها ، وأنه مهد لكثير من العرب : قريش وغيرها ، أن يختلطوا بالمسلمين فيعرفوا عن كثب حقيقة الإسلام ، وما يدعو إليه من فضائل وأخلاق ، وقد مهد كل هذا للفتح الأكبر الذى به سقطت دولة الظلم ، وتحطمت أصنامه ، وبه تحققت رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم . وفتح المسلمون مكة ، ودخلوا المسجد الحرام « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا»

ثم أكدت السورة ضمان حسن العاقبة للرسول ، وأن الله سيظهر دينه على الدين كله ، وذكرت أصحابه عليه السلام بالتراحم فيما بينهم ، والإخلاص لله ، وذكرتهم بالشدة على الكفار والغيرة على الحق « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » .

ثم سجلت لهم ، ولكل من سار على نهجهم فى قوة الإيمان والعمل الصالح ، هذا الوعد الكريم « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

هذا هو الفتح المبين ، وهذه هى سورة الفتح ، ومن العبر التى توحى بها هذه السورة الكريمة والتى يجب علينا أن نستخلصها لننتفع بها فى حياتنا الراهنة ، أن القائد لابد لنجاحه فى تكوين أمته ، وتركيز قوى الخير فيها ، من أن يبذل جهده فى تعرف جانب الحكمة والسداد فى الرأى ، وأن يعتمد على من عرف إخلاصهم ، وصدق إيمانهم ، وأن الجيش المظفر هو الجيش الذى يطهر نفسه من عناصر التخذيل والضعف ، وأرباب الغايات المادية الفانية ، التى لا تتصل بشرف الذمة ومجدها ، وأنه يجب تنحية المنافقين الذين لا يقصدون من القتال سوى تلك الغنائم المادية.

وبسداد الرأى ، وقوة العزيمة ، وصدق الإيمان ، وطهر الجيش ، وسمو هدفه ، يكون النجاح والظفر ، وتكون العزة والمناعة .

نسألك اللهم أن تكلل عمل المجاهدين المخلصين بالنصر والتأييد ؟

محمود شلتوت

مكتبتنا العربية

ماقيل عن الإسلام

رأينا أن نختار لهذا العدد من مجلة الأزهر ما يلائم فكرته ، ولذلك لم نقتصر على مايقوله المعاصرون فى صحفهم ومؤلفاتهم .

* * *

بعض ما يقوله المؤرخ الانجليزى جيبون

تعرض هذا المؤرخ الشهير لظهور الإسلام فى كتابه الضخم « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » الذى طبع سنة ١٧٨٨ ، ولقد كان متأثراً فيما كتب عن الإسلام بما كان يسود أوربا يومئذ من التعصب والسخط على هـذا الدين ، ولكنه كان ينسى تعصبه أحيانا إذ تتغلب عليه نزعة المؤرخ : قال يصف جانبا من حياة الرسول صلوات الله عليه « إن سمو إحساس محمد جعله يحتقر بهرج الملك ؛ وكان رسول الله يخضع نفسه لما تتطلبه حياة الأسرة من عمل ، فقد أوقد النار وكنس المنزل وحلب الشاة ، وخصف بيديه نعليه ورتق ثوبه ، ولقد كان قانعا يأكل كما يأكل العربى والجندى ؛ وكان فى مناسبات قليلة يولم لرفاقه فى سعة ، ولكن الأسابيع الكثيرة كانت تنقضى ولا يوقد فى بيته نار لطعام ؛ وكان يحرم الخمر كما يقضى بذلك الدين ؛ وكثيرا ما كان يخفف وطأة الجوع بكسرة من خبز الشعير » .

وقال هـذا المؤرخ يصف جهاد المسلمين فى غزوة مؤتة « أعطى لواء المعركة لزيد ، فإذا مات خلفه جعفر ، وإذا مات جعفر خلفه عبدالله ، وبعد ذلك يختار المسلمون من يقودهم ؛ ولقد مات القواد الثلاثة فى معركة مؤتة أول المعارك التى امتحن فيها حماس المسلمين أمام عدو أجنبى ؛ أما زيد فقد سقط كما يسقط الجندى فى مقدمة الصفوف ، وأما جعفر فقد مات موتة البطل ، فقد قطعت يمناه ، فأمسك اللواء بيسراه ، فذهبت يسراه فاحتضن اللواء بعضديه النازفين ، ثم سقط وفى جسده خمسون جرحا مشرفا ؛ ونادى عبد الله وقد التقط اللواء : تقدموا فإما النصر وإما الجنة ، فأردته حربة رومانية فتقدم خالدفاتح مكة ، فرفع اللواء وقد تكسرت فى يده عشرة سيوف ؛ ومكنته بسالته من الوقوف وحده فى وجه مكاثريه من العدو بل وردهم » .

* * *

ه . ج . ولز ومحاسن الاسلام

كتب ولز فى كتابه « مختصر تاريخ العالم » إن المؤرخ المتنبىء فى أوائل القرن السابع الميلادى

مكتبتنا العربية

كان يستطيع أن يقول بحق إنه ما هى إلا قرون ثم يغزو العالم المغول فيحكمون ما بين المحيط الهادى والطونة وذلك لأن الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية كانتا تعانيان الانحلال ، وكانت الهند مقسمة ، وكانت الصين تمتد فى رقعتها الفسيحة ، وكانت الشعوب التركية فى وسط آسيا تفعل مثلما تفعل الصين .

ثم يقول هذا المؤرخ الإنجليزى والقصص الذائع الصيت ، إنه إذا كان ثمة من خطأ يقع فيه ذلك المتنبىء فصدر هذا الخطأ هو الصحراء العربية ، فإن بلاد العرب كانت تبدو له كما هى حالها من زمن سحيق موطناً لقبائل صغيرة من البدو الرعاة .... ولكن هؤلاء البدو انبعثوا فجأة ، وبلغوا فى قرن قصير غاية الرفاهية ، فلقد نشروا حكمهم ولغتهم مابين أسبانيا وبلاد الصين . ولقد أمدوا العالم بثقافة جديدة ، وخلقوا دينا لايزال حتى اليوم قوة من أهم القوى الحيوية فى هذه الدنيا ، ثم لخص ولز حياة الرسول وقال عن دينه ، إن فى ذلك الدين الذى نشره محمد فى العرب كثيراً من أسباب القوى والوحى ، ومن أبرز خصائصه ، الوحدانية المطلقة التى لا تعرف هوادة . وعقيدته السهلة المتحمسة فى الله وحكمه ؛ وخلوه من التعقيد المذهبى . والتحرر المطلق من الرهبنة والمعبد ، وثمة عنصر هام من عناصر القوة فى الإسلام ذلك هو تأكيده الإخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله مهما تكن ألوانهم وأجناسهم وأوضاعهم .... تلك هى الخصائص التى جعلت للإسلام قوة فى شؤون هذه الدنيا » .

جيته والاسلام

للشاعر الألمانى العظيم جيته كلمات طيبات عن الإسلام تتناثر فى أحاديثه وكتاباته ، وإعجاب روحى يظهر فى بعض أعماله الفنية مثل « الديوان الشرقى » ؛ ومن أشهر ما قاله جيته عن الإسلام عبارته « إذا كان المراد من الإسلام أن يسلم المرء وجهه لله ، فإنا على الإسلام نحيا جميعا ونموت جميعا » .

ولقد قال جيته لصديقه المستشار فون ملر سنة ١٨١٩ « إن الإذعان والاستسلام هما فى كل دين القاعدتان الحقيقيتان ؛ أعنى الخضوع لإرادة عليا مهيمنه على كل شىء ، لا تستطيع عقولنا إدراكها لأنها فوق مداركنا ، وفى هذا يعظم الشبه بين الإسلام والبروتستنتية » .

ويجعل جيته التقوى والإسلام شيئا واحدا فيقول « إننا حين تطهر أرواحنا نحس رغبته قوية متأججة فى أن نسلم أنفسنا طوعا لموجود لا ندركه أعلى وأطهر منا نحمده ونشكره ، وبهذا نصور لأنفسنا هذا الأزلى الذى لا تدركه العقول ، وتلك هى التقوى ، وإذا كان الإسلام هو هذا التسليم فكلنا مسلمون » .

الكونت هنرى دى كاسترى وخواطره عن الاسلام

ألف الكونت كتابه سنة ١٨٩٦ ؛ وقد عربه المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا ؛ ومن آراء المؤلف فى سر انتشار الإسلام قوله « جند

مكتبتنا العربية

الإسلام قسما عظيما من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها فى خمس صلوات فى كل يوم ، وبما اشتمل عليه من الرفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئا مما يشتهون ؛ وأعظم عامل فى انتشار الإسلام وبخاصة بين الأمم البدائية ، بساطة مذهبه وسهولة تعاليمه وهو سبب موجود فى القرآن نفسه فهو بذلك يلائم طباع الذين لم يعرفوا دينا من قبل ؛ إنه دين لا أسرار فيه وكلمته أو كلمة الشهادة يعتاض عنها عند الاختصار بإشارة تدل عليها كرفع السبابة إلى السماء إشارة إلى وحدانية الله تعالى ، فكلما وجد الرجل الجاهلى أمامه دينين متحدين فى حقيقتين : وحدانية الله ، وخلود الروح . وهما الإسلام ودين عيسى ، يختار الدين الذى لا يزيد شيئا عن تينك الحقيقتين ، ويعتنق الاسلام بلا محالة ؛ وهى قوة يفضل بها الإسلام المسيحية فى الانتشار » .

وقال المؤلف « ولانتشار الإسلام وخضوع الأمم لسلطانه سبب آخر فى آسيا وأفريقيا الشمالية هو استبداد القسطنطينية فإنه كان قد بلغ منتهى العسف ، ووصل جور الحكام إلى درجة أزهقت النفوس ، فلما جاء الإسلام تراموا إليه هربا من الضرائب الفادحة واستلاب الأموال لأنه كلما أسلمت عشيرة رفع عنها أثقال المغارم ، ورد إليها مالها المسلوب ، ومن لم يقبل شريعة القرآن عومل هذه المعاملة عينها بلا قيد غير أداء الجزية ، وكانت شيئا يسيراً أو جزءاً من اثنى عشر . وبذلك أمنوا فى ظل الدين الجديد ، ولم يتعرض إليهم أحد من دعاته فى دينهم ولم يفرق بين أصلى فى المسيحية ومنشق عنها وهذه المعاملة هى التى جاء بها القرآن وجرى عليها الخلفاء الأولون ، فكان اليهود والمسيحيون يسمون ذميين » .

وقال عن الأندلس : « ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الأندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين . ويقول (دوزى) إن هذا الفتح لم يكن مضرا بالأندلس ، وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة الإسلامية المطلقة فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش ، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين ... ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً إلا وأعملوا السيف فى يهودها ومسلميها ، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيراً فى الإسلام ، فإن كانت لهم بقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم لا إلى مايوجد بين الاثنين من الجامعة فى الأصل والجنس واللغة والدين ... ولم يطلب المسلمون من مسيحى الأندلس إلا ما فرضوه على غيرهم وهو الجزية » .

مكتبتنا العربية

كارليل يشيد بالإسلام

كتب الفيلسوف كارليل فصلا عن محمد فى كتابة « الأبطال وعبادة البطولة » ، وقد اختار نبى الإسلام للبطل فى صورة نبى ، وقد اختتم هذا الفصل البليغ بقوله عن الإسلام « لقد ظل الإسلام مدة اثنى عشر قرنا دينا وهاديا فى الحياة لخمس الجنس البشرى كله ، ولقد كان فوق كل شىء دينا مصدقا من أعماق القلوب ؛ إن هؤلاء العرب يصدقون بدينهم ويعيشون به ؛ ولم يكن ثمة من مسيحيين منذ العصور الأولى ، أو منذ البيوريتان الإنجليز فى الأزمنة الحديثة آمنوا بدينهم كما يؤمن المسلمون بالإسلام ... الله أكبر! هذا ما يهز به الإسلام أرواح هؤلاء الملايين وما يملأ به حياتهم اليومية ...

لقد كان الإسلام للأمة العربية بمثابة الميلاد: الخروج من الظلمة إلى النور ؛ كانوا قبائل فقيرة من الرعاة يتنقلون فى جزيرتهم لا يعلم بهم أحد ، فأرسل إليهم بطل نبى بكلمة استطاعوا أن يصدقوها ؛ فانظر إلى أولئك المجهولين يلفتون أنظار الدنيا ، وإلى تلك القلة تعظم حتى تملأ العالم ؛ لقد أصبحت بلاد العرب فى قرن تمتد إلى غرناطة من ناحية وإلى دلهى من الناحية الأخرى . هؤلاء العرب وهذا النبى محمد وهذا القرن من الزمان ! أليس ذلك كما لو نزلت شعلة ، شعلة واحدة على عالم يبدو رمالا مجهولة سوداء ؛ ولكن ها هو ذا الرمل يصبح مادة متفجرة ثم يتوهج مطاولا السماء من غرناطة إلى دلهى !

لقد قلت إن الرجل العظيم كان أبدا كالبرق ينبعث من السماء ، وإن بقية الناس إنما ينتظرونه كالوقود وعندئذ تراهم كذلك يشتعلون » .

* * *

المستشرق جب ورسالة الإسلام

يقول المستشرق الأستاذ جب فى كتاب «وجهة الإسلام» الذى عربه الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة سنة ١٩٣٣ : « لا يزال الإسلام فى العالم العربى يسلك سبيلا وسطا بين المتناقضات الشديدة ؛ وهو على معارضته لفوضى القومية الأوربية وللنظام العسكرى لروسيا الشيوعية ، لم يقع بعد فريسة للهجمات الاقتصادية الملحة التى تمتاز بها أوربا وروسيا » وقد لخص الأستاذ ماسينيون الأخلاق الاجتماعية فى الإسلام تلخيصا يدعو إلى الاعجاب حيث قال « للإسلام الفضل فى أنه يمثل لنا فكرة عادلة عما يقوم به كل فرد من أبناء الوطن بدفع عشر ريع الأرض للخزانة العامة ؛ إنه يشن الغارة على المبادلة المطلقة ورأسمالية المصارف وقروض الدولة والضرائب غير المباشرة على الأشياء ذات الأهمية الجوهرية ؛ ثم هو يؤكد حقوق الأب والزوج والملكية الفردية ورأس المال التجارى ، ونراه هنا يقف مرة أخرى فى مكان وسط بين الرأسمالية البرجوازية وبين الشيوعية البولشفية » .

مكتبتنا العربية

ولكن لا تزال للإسلام رسالة يؤديها من أجل الإنسانية ؛ إنه يقف برغم كل شيء أقرب من أوربا إلى الشرق ، وله ماض مجيد من تفاهم الأجناس وتعاونها ، ولا يوجد مجتمع سجل له من النجاح فى أن يجمع بين كثير من الأجناس المختلفة وأن يسوى بينهم فى العمل والمكانة وتهيئة الفرص كما سجل للإسلام . وإن الجماعات الإسلامية العظيمة فى أفريقية والهند وإندونسيا والجماعات الإسلامية الصغيرة فى الصين والجماعة الصغرى فى اليابان لتبين جميعاً أنه لا تزال للإسلام القوة على أن يتألف العناصر التى لا سبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والتقاليد ؛ وإذا لم يكن بد من أن يحل التعاون محل الشقاق بين المجتمعات العظيمة فى الشرق والغرب ، فإن وساطة الإسلام شرط لا بد منه ، لأن فى يده إلى حد كبير حل المشكلة التى تواجه أوربا فى علاقاتها مع الشرق ؛ وإن اتحدا زاد الأمل زيادة لا حد لها فى بلوغ نتيجة سلمية ؛ أما إذا قذفت أوربا بالإسلام بين أذرع خصومها ورفضت التعاون معه ، فلا بد أن تكون النتيجة كارثة للجانبين » .

* * *

رأى آخر للمستشرق جب :

وتحدث هذا المستشرق فى كتاب حديث له هو « النزعات الحديثة فى الإسلام » ، وهو بصدد الكلام عن الإسلام اليوم فى العالم ، فتعرض لعلماء الدين الإسلامى ، وعن عدم مجاراتهم العصر فى تفكيرهم وفى لغتهم وصيغ أفكارهم ؛ وقال إن هذا قد يعطى حجة للذين يرمون الدين الإسلامى بأنه دين تحجر ؛ ورد جب على هذه التهمة بقوله : « ولكن هذه التهمة باطلة فإن الإسلام دين حى يبعث الحيوية ، تستجيب له قلوب عشرات ومئات الملايين وعقولهم وضمائرهم ؛ ويمدهم بالمثل الذى يريهم كيف يعيشون به عيشة الأمانة والوقار والتقوى » ، ويختتم جب هذا الفصل بقوله « إنه لواجب على المسلمين أنفسهم أن يرسموا أساليب تفكيرهم وتصرفهم العملى المترتب على ذلك . وهذا عمل لن يتم إلا فى عدة أجيال وربما احتاج إلى صراع . إن الحق ينبغى أن يكافح أبدا عن وجوده ، وليس من المقدر دائماً أن يظفر فى الجولة القصيرة » .

من الادارة

بهذا العدد الخاص بالفتوح الإسلامية تفتتح المجلة عامها الرابع والعشرين . وهى بهذه المناسبة تقدم إلى العالم الإسلامى أخلص التهنئات وأصدق الأمانى ، وترجو من مشتركيها ومتعهديها أن يجددوا الإشتراك ويسددوا المتأخر ولهم الشكر ؟

مكتبتنا العربية

الكتب

مخطوط فريد :

كشف جديد فى تاريخ الدعوة العباسية

للأستاذ عبد الفتاح السمنجاوى

عثرت فى خزانة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ببغداد على مخطوط يقع فى ٢٠٤ ورقة من القطع الكبير ، فى موضوع له أهميته الكبيرة فى مجرى التاريخ الإسلامى ، هو حركة الدعوة العباسية ، ومذ عرفت هذا المخطوط وأنا عاكف حتى اليوم على دراسته وتصحيح أخطائه وتعليق حواشيه حتى صار شغلى الشاغل فى السنوات الثلاث الماضية ، وكنت قد انتسخت لنفسى نسخة من الكتاب ساعدنى على انتساخها زميلى السيد ناجى معروف ووعدنى بالمعاونة فى التعليق على الكتاب .

وقد لاحظت أن هذا الكتاب لم يقسم إلى أبواب وفصول وإنما جعلت عناوين الموضوعات

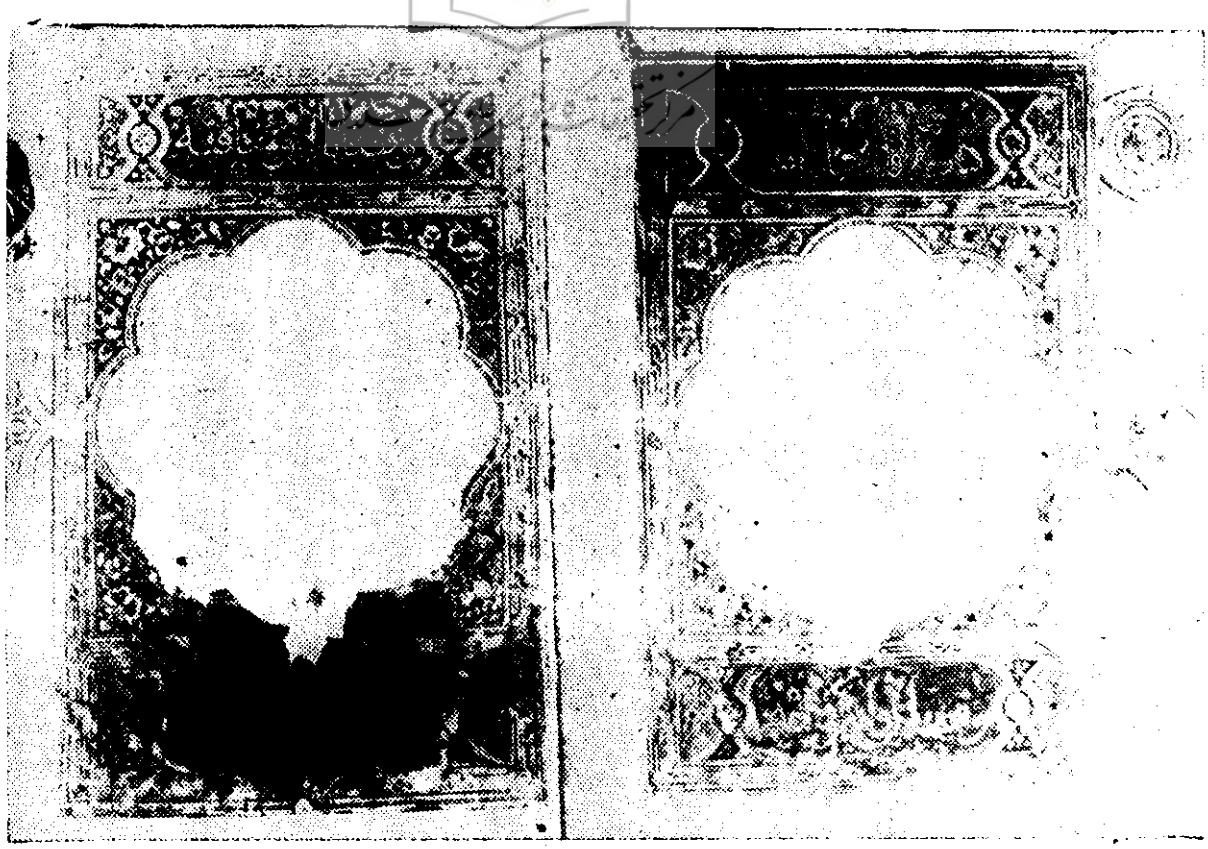

مكتبتنا العربية

يتلو بعضها بعضاً ، وهى مكتوبة بالخط النسخ المذهّب ، وأول عنوان يصادفك «موت العباس» وهذا جعل الكتاب يعرف فى قوائم الخزانة بهذا الاسم ، وبقى كذلك حتى استطعنا كشف اسم آخر للكتاب يعرف به الآن فى بغداد .

واستطعت بعد اختبار وتمحيص طويلين أن أتأكد من أن المخطوط غير منقوص من آخره ، أما من أوله فقد ضاعت ثلاث كراسات أى ثلاثون ورقة كانت قد جعلت لتتبّع الأصل الأول للدولة العباسية والكلام عن حياة العباس بن عبد المطلب .

ومن الغريب أن الصحيفتين الأولى والثانية من الكراسة الأولى المفقودة ، وعليهما زخارف هندسية ونباتية مذهّبة ومنوّنة لا تزالان فى صدر المخطوط الحالى ، وأقصد بذلك أن مقتنى المخطوط وجد هاتين الصحيفتين قد تآكلت من أطرافهما ووسطيهما فهذب هذه الأطراف المتآكلة وقص وسطيهما ولم يُبق إلا الزخارف ثم لصقهما على ورقتين متقابلتين فى صدر الجزء الباقى من المخطوط ، وهاتان الصحيفتان لهما أهمية أثرية عظيمة ، وهما بحق جديرتان بالبقاء لدقة نقوشهما ذات الألوان الزاهية الجميلة ، ولأنهما يساعدان على تعيين

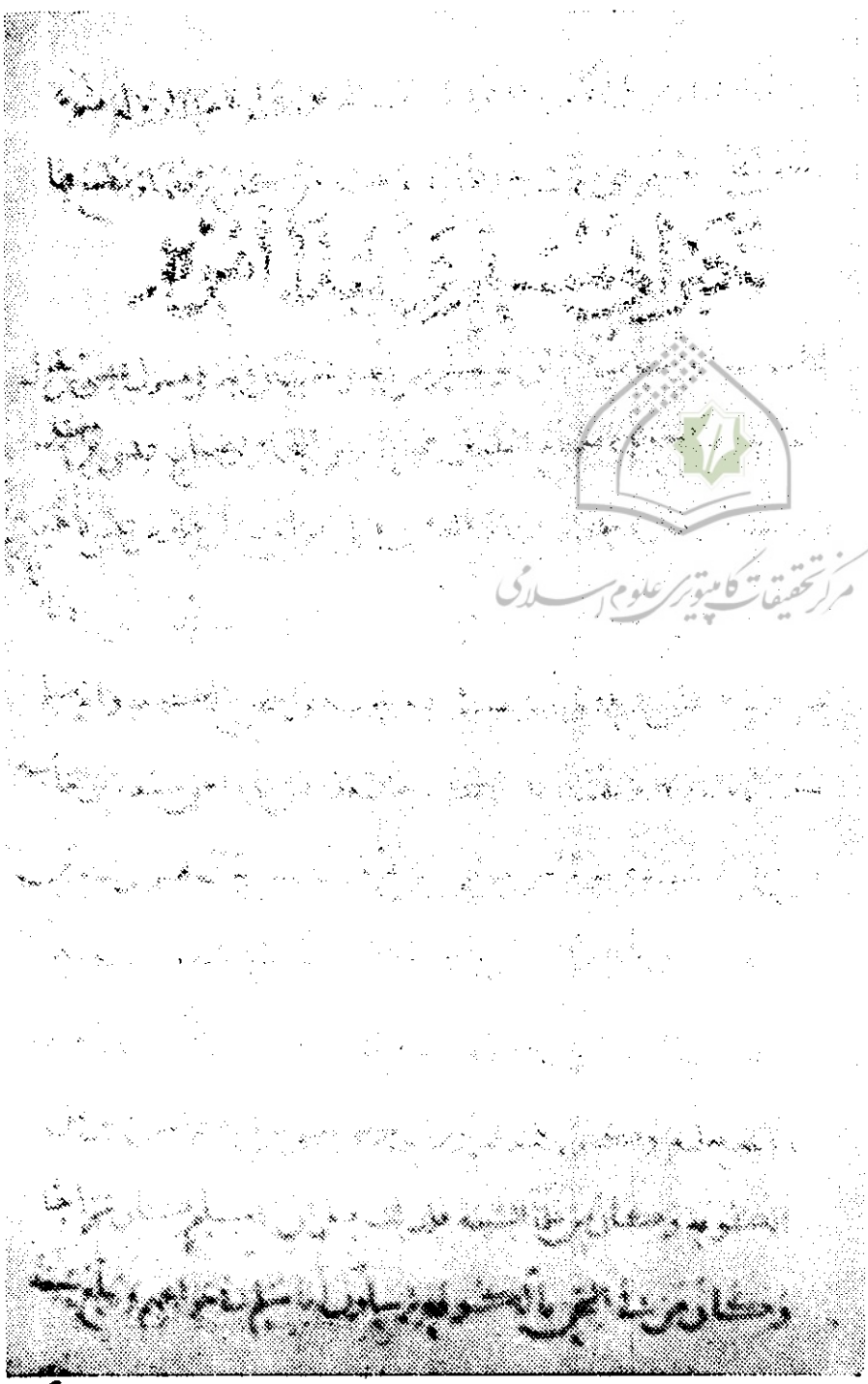

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مكتبتنا العربية

عصر هذه النسخة تعيينا واضحاً من حيث الخط والموضوعات الزخرفية ، ولعل أهم ما فيهما من حيث الدلالة على موضوع المخطوط ما كتب فى أعلى الصحيفة الأولى وسط الزخارف المذهبة الملونة بالخط النسخ الجميل ، واستمر فى رأس الصحيفة الثانية ثم انتقل إلى أسفل الصحيفة الأولى فالثانية وهذا نصه :

« كتاب فيه أخبار العباس وفضائله ومناقبه وفضائل ولده ومناقبهم ومآثرهم رضى الله عنهم أجمعين »

إلى هنا لم نعرف اسم الكتاب الحقيقى ، لأن موضعه الأول كان فى الدائرتين المزخرفتين اللتين قص وسطاهما وألصقتا على ورق جديد (شكل ١) وبقى الوسط فى كلتيهما خلواً من الكتابة إلى الآن ، وقرأت الكتاب كله فلم أجد فيه مايدل على اسمه أو اسم مؤلفه وأخيراً وجدت على الحافة العليا للكتاب آثار كتابة لا تكاد تبين قرأتها بعد جهد فإذا هى :

المرائع الأنسية
فى أخبار الدولة العباسية

فهل هذا هو الاسم الحقيقى الأول للكتاب ؟ وإذا كان كذلك ، فلماذا لم يكتبه مقتنى الكتاب فى هاتين الدائرتين فى صدر المخطوط ؟

هل كانت الكتابة التى قصها من الوسط هى عنوان الكتاب فقرأها واكتفى بكتابتها على حافة المخطوط العليا ؟ ولماذا لانذهب مذهباً آخر هو أنه لم يستطع تبين هذه الكتابة فأغفلها ولم يستطع معرفة اسم الكتاب فوضع له هذا

مكتبتنا العربية

الاسم وكتبه على الحافة العليا ليعرف به الكتاب ويسهل عليه إخراجه من بين الكتب الأخرى. - ومما يجعلني أفترض هذا - ولو أنني لا أجزم به - أن المخطوط لم يتناول تاريخ الدولة العباسية، وإنما تناول تاريخ الدعوة وحدها ووصل بها إلى موت إبراهيم الإمام ووصول وصيته إلى أبي العباس الذي خرج بمن معه قاصداً الكوفة. وهنا ينتهي الكتاب دون أن يجاوز هذا إلى إجلاس أبي العباس على عرش الخلافة، فكيف يكون هذا في أخبار الدولة العباسية؟ الحق أن اسم الكتاب ما زال يخامرني فيه شيء من التردد، وعلى الجملة فقد عرف هذا المخطوط الآن بهذا الاسم في بغداد بعد أن تهيأ لنا كشفه وإذاعته.

أما عصر المخطوط، فقد وجدت في آخره نصاً صريحاً يدل على أنه يرجع إلى القرن الثامن الهجري، ذلك أن الورقات الثلاث الأخيرة رقم ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤ من المخطوط فيها قوائم بتسمية وتواريخ الخلفاء من بني أمية وبني العباس، فإذا وصلنا في سياق التسمية إلى المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد، جاءت أسماء الخلفاء من بني العباس في مصر حتى خلافة الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله محمد في سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وهنا تذكر العبارة الآتية:

« فسح الله في أجله وهو الخليفة القوّام بعصرنا هذا أدام الله أيامه ». (شكل ٣)

وهي تدل دلالة صريحة على أن المخطوط يرجع إلى هذا التاريخ، ولكن هل يرجع إلى هذا التاريخ في انتساخه أو في تأليفه؟ هذه مشكلة أخرى أفردت لها بحثاً عن تاريخ الكتاب معتمداً على أسلوب الكتابة ورجال السند وعناصر أخرى في منهج البحث العلمي.

بقيت مسألة أخرى: هل لهذه النسخة من الكتاب نظيرة أو نظيرات؟ لقد استقصيت في هذا الأمر وأنا أدور آفاق العراق حيث زرت كثيراً من ألوية الشمال مثل: السليمانية وأربيل وكركوك، وأخيراً علمت أن في البصرة خزانتين للمخطوطات القيمة: إحداهما خزانة آل باش أعيان العباسية. والثانية خزانة المحامي محمد أحمد، فلما زرت البصرة انتسخت نسخة لقوائم الكتب الخطية في الخزانتين بمساعدة الأستاذ محمد ناصر الصانع مدير المعارف في منطقة البصرة جزاه الله أحسن الجزاء.

وفي بغداد خبير حجة في شئون المخطوطات هو الأستاذ عباس العزاوي المحامي، جمعتني به ندوة علمية تقام في بيت السيد إبراهيم الواعظ رئيس محكمة استئناف بغداد، فسألته عن هذا المخطوط وهل توجد منه نسخة في خزانته أو أية خزانة يعرفها؟ وبحثت في مكتبات مصر، وتهيأت لي زيارة طهران فوجدت بها مكتبة حافلة بالمخطوطات الفارسية والعربية في جميع الفنون، هي (كتابخانه مجلس شوراى ملى) وطلبت الاطلاع على فهارس المخطوطات فسارع مدير المكتبة إلى إهدائي المجلد الثالث من الفهرست وهو خاص بالمخطوطات ويقع في ٨١٤ صحيفة رتبه ابن يوسف شيرازي وفرغت مطبعة المجلس من طبعه في سنة ١٣٦٠ هـ فلم أجد بين دفتيه اسم مخطوطنا هذا، كذلك بحثت بنفسي في مكتبات أصفهان وقم وغيرهما من مدن إيران، وكنت

مكتبتنا العربية

أود زيارة استانبول فى الربيع الماضى والبحث فى مكتباتها ولكن عدتنى العوادى عن إتمام ذلك ، ولا يزال يحدونى الأمل فى أن أجد هدى فى أمر هذا المخطوط القيم ، وإلى وقت كتابة هذه السطور أستطيع القول فى هذه الحدود بأن المخطوط فريد لا نظير له ، وهذا يجعل له أهمية كبيرة. وفقنى الله إلى إذاعة البحوث الأخرى عن عصر المخطوط وقيمته من الناحية العلمية .

التفسير الواضح

للأستاذ محمد محمود حجازى

المدرس بمعهد الزقازيق

تفسير يصور المعنى أمام القارىء بأوضح أسلوب وأجلى بيان ، فهو يرشد إلى تفهم كلام الله من أقرب الطرق بغير عناء ولا إجهاد .

قد اشتمل على بحث المفردات وتوضيح الغريب منها بالمألوف من الألفاظ .

قد ربط الآيات ، وذكر المناسبات ، بما يجعل القرآن الكريم عقداً أحكم نظامه ، وأبدع تنسيقه.

قد امتاز بالعنوان المناسب لكل موضوع ، مع تحديد الغرض ، وما تشير إليه الآية الكريمة .

وقد عنى هذا التفسير بالآيات التى تعالج أمراضنا ، وتصف أدواءنا عناية خاصة تظهر فيها حاجة الفرد والجماعة إلى هذا العلاج .

وأما الأحكام الفقهية فعرضت عرضا مناسبا مع بيان حكمة التشريع ، وأنها ضرورية للأمة .

وهو تفسير تستفيد منه العامة والخاصة .

وقد نفدت الطبعة الأولى للأجزاء الأربعة الأول وأعيد طبع الجزء الأول والثانى ، وقد ظهر منه إلى الآن ثمانية أجزاء .

كتب إفرنجية

تعالج موضوعات إسلامية وشرقية

****

تطور مصر من ١٩٢٤ الى ١٩٥٠

L'Evolution de L'Egypte, 1924-50

تأليف مارسيل كولومب

من نشر دار (ميزون نونو) بباريس .

حاول المؤلف فى هذا الكتاب النافع أن يدون تاريخ مصر الحديث تدوينا يشمل الأحداث التى مرت بها خلال العشرين عاما الأخيرة .

والمؤلف معروف ببحوثه عن العرب والإسلام وقد تولى منصب الأمين العام لمعهد الدراسات الإسلامية بباريس .

ويعترف المؤلف بأن معالجته لتاريخ مصر الحديث لا تكتفى بمؤلف واحد ، وإنما تحتاج إلى مجلدات .

ومع أن هذا المؤلف الفرنسى يغمط الحركة القومية المصرية حقها فى بعض الحالات والحوادث إلا أنه يحاول أن يدين السياسة الإنجليزية فى مصر ويلزمها تبعة بعض التطورات العنيفة التى مر بها الشعب المصرى منذ أزمة نوفمبر عام ١٩٢٤ .

ومن مزايا هذا الكتاب أنه لا يقتصر على تسجيل الحوادث والتطورات السياسية ، وإنما يخصص بعض الفصول لتسجيل التطور الفكرى فى الثقافة العربية إجمالا ممثلة فى مصر زعيمة الفكر العربى . ولا يترك المؤلف مشاكل مصر الاجتماعية دون أن يلقى عليها بعض الضوء .

مكتبتنا العربية

وفى ذيل الكتاب فهارس وافية وسجل للوزارات التى تتابعت على حكم مصر خلال العشرين عاما الماضية ، وقائمة بأسماء المراجع العلمية عن مصر .

****

العراق المستقل :

Inqependent Iraq

من تأليف الأستاذ مجيد خضورى

من نشر مطبعة جامعة اكسفورد

٢٩١ صفحة والثمن ٢١ شلنا .

السيد مجيدى خضورى أديب عراقى اختار الإقامة فى أمريكا ويشتغل بالتعليم فى جامعتها عن شؤون الشرق العرب .

وقد ظهر له فى المجلات العلمية الغربية بحوث عديدة عن حاضر العالم الإسلامى عامة والشرق العربى بصورة خاصة .

ولعل الرغبة فى إرضاء القارئ الأوربى والأمريكى هى التى دفعت الأستاذ خضورى لان يفسر تاريخ العرب والإسلام المعاصر تفسيرا يتمشى مع الصور الخاطئة التى يحملها الغرب عن هذا الجزء من العالم ؛ صور تحمل فى ثنايا هامن بجامن الخوف والاستهتار فى التطورات الفكرية والسياسية التى ألمت ولا تزال تكتنف بلاد العروبة والإسلام .

وكتاب السيد خضورى الجديد عن حاضر العراق سجل واف للتطورات السياسية والتشريعية والفكرية التى مر بها العراق منذ أن انتزع استقلاله الداخلى من اليد البريطانية .

وفائدة هذا الكتاب للقارئ العربى أهم من فائدته للقارئ الغربى ، وذلك لان الأستاذ خضورى أستعان بالمراجع العربية التى لا تتوفر للناس فى أوروبا وأمريكا .

****

الأفغان - دراسة فى التطور السياسى فى آسيا الوسطى :

Afganistan : Astudy in Political Developmnt Central Asia.

المؤلف : و . ك . فريز - تايلور

الناشر : مطبعة جامعة اكسفورد

الثمن : ٥ دولارات

هذه دراسة طيبة وضعها وزير بريطانيا المفوض فى كابول سابقا . واستعرض فيها تاريخ الأفغان فى مختلف عصوره . وخص المؤلف حاضر الأفغان بجزء واف من الكتاب .

ويعتقد هذا المؤلف بأن الأوساط الدولية مغفلة للقيمة الاستراتيجية التى تحتلها الأفغان فى ميزان القوى العسكرية فى آسيا الوسطى . وأهمية الأفغان الاستراتيجية لا تعود إلى قوة جيشها أو وفرة مواردها الطبيعة ، وإنما تعود إلى الموقع الجغرافى الممتاز التى تحتله كنقطة حياد بين الاتحاد السوفيتى ومناطق النفوذ الانجلوسكسونى فى جنوبى آسيا الوسطى .

وفى الكتاب فصل عن العلاقات بين الأفغان والباكستان يشرح المشاكل التى أدت إلى نوع

مكتبتنا العربية

من القطيعة السياسية بين هـذين البلدين الإسلاميين ، والتى خفت حدتها فى الآزمنة الأخيرة بعد أن تدخل المؤتمر الإسلامى العالمى بين الدولتين الشقيقتين .

****

الرحلة العربية ورحلات صحراوية أخرى:

Arabian Journey and other desert travels.

من تأليف الكولونيل جرالد دى جورى

الناشر : دار هاراب بلندن .

الثمن ١٢½ شلنا .

مؤلف هذه الرحلة أحد العملاء الإنجليزيين الذين اعتادوا التجوال فى الجزيرة العربية متخطين آثار لورنس، الداهية الإنجليزى المعروف.

والكولونيل دى جورى ضابط فى الجيش البريطانى أنفق سنوات عديدة فى الجزيرة العربية يعالج مشاكل القبائل بالتعاون مع السلطات البريطانية فى المحميات .

ويصف الكاتب رحلاته العديدة التى قام بها إلى نجد وعسير ضيفا على جلالة الملك عبد العزيز آل سعود.

وبالإضافة إلى الناحية الفنية فى الكتاب فإنه طافح بمعلومات عن حاضر بلاد العرب قلّ أن تجد لها مثيلا فى المكتبة العربية .

****

صاحب الجلالة البترول

Sa Majesté le petrole

من تأليف جورج لو فيفر .

ومن نشر دار هاشيت بباريس .

هذا بحث طريف صدر بالفرنسية واختص الشرق الأوسط بجزء واف ، فقد أصبح البترول علماً على الشرق الأوسط فى الأيام الأخيرة .

وهذا الكتاب لا يتعمد الدراسة التحليلية بقدر ما يرمى إلى وصف الأوضاع فى مناطق البترول فى قالب طريف ظريف لا يحسنه إلا الفرنسيون .

وفى صفحات الكتاب عدد من الطرائف والأقاصيص الفكهة التى عكس فيها المؤلف ما ألم بالشرق الأوسط من تطورات ، بعد أن طغى النفط على الصحارى والقفار وقلب الأوضاع الاجتماعية للسكان الوطنيين رأسا على عقب .

****

استعراض للأوضاع الاقتصادية فى الشرق الأوسط

Review of economic conditions in the Middle east.

من منشورات الأمم المتحدة .

فى ١٠٠ صفحة من الحجم الكبير (خرائط وبيانات إحصائية) .

تنشر دائرة الشئون الاقتصادية التابعة للأمانة العامة لهيئة الأمم فى كل عام دراسة مسهبة عن الأوضاع الاقتصادية فى مختلف مناطق العالم ومنها الشرق الأوسط .

ومن مزايا هذه الدراسة أنها تشمل كثيرا من الإحصاءات والمعلومات التى لا تتوفر للباحث الاقتصادى فى دور العلم وبيوت النشر التجارية .

وتحصل دائرة الشؤون الاقتصادية فى هيئة الأمم على معلومات من الحكومات ومن مصادر أخرى .

مكتبتنا العربية

العيد الفضى للجزيرة العربية

Arabian Jubilee

نشر دار Robert Hale بلندن والثمن ٣٠ شلنا

الحاج عبد الله فيلبي (واسمه بالإنجليزية هـ . القديس حنا فيلبي) شخصية معروفة فى أوساط الرياض ومكة والطائف وشبه الجزيرة العربية إجمالا . وقد سبق لفيلبي أن خدم فى السلك الحكومى البريطانى كمبعوث إخصائى فى الأوضاع العربية فى الحجاز ونجد وخليج العجم . وهو الآن فى سن الشيخوخة وله نشاط فى أعمال الحفريات فى الربع الخالى . وله بعض النشاط التجارى المحض. ولفيلبي مؤلفات كثيرة عن العرب وجزيرتهم . والكتاب الذى نراجعه هنا هو فى معظمه ترجمة لعاهل الجزيرة جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود، وتسجيل للتطور الحديث الذى ألم بالجزيرة العربية فى عهد جلالته . وفيلبي لا يبخل بعاطر الثناء والمديح على جلالة العاهل السعودى ويسجل له طرائف وحوادث تزيد من المجموعة التى يحفظها الناس عن جلالة ملك نجد والحجاز وملحقاتهما . وقد وضع فيلبي هذا الكتاب ليوافق العيد الفضى لتأسيس العهد السعودى فى نجد والحجاز . فهو إذن قصيدة مدح لآل سعود ولمليكهم العظيم .

وقد تطرف فيلبي فى كتابه إلى دراسة بعض الأوضاع الناجمة عن تلاقى الحياة الصناعة (فى منشآت البترول) مع الحياة البسيطة التى يعيش عليها المجتمع النجدى خاصة والمجتمع العربى فى شبه الجزيرة عامة . ويبدو أن فيلبي يلمس بعض السوء فى سرعة التطور واحتكاك الصناعة الغربية بنماذج السلوك التقليدى المحافظ فى شبه الجزيرة ، وقد عالج فيلبي هذا الاحتكاك فى نظرة قاتمة إلا من إيمان بمقدرة العقلية العربية على أن تتلاءم مع التطور فى المراحل النهائية مهما كانت طبيعة هذا التطور وعوامل هذا الاحتكاك .

الأديان العالمية وآمال العالم :

World religions and the hope for peace

تأليف : W. D. R. Williams.

الناشر مطبعة بيكون . بيوسطن (الولايات المتحدة) .

الثمن دولاران وثلاثة أرباع الدولار .

هدف هذا الكتاب دراسة الأديان السماوية ودراسة مقارنة عن طرائق الأنبياء الذين بشروا بها . وللرسول العربى عليه الصلاة والسلام مكانة ملحوظة فى هذه الدراسة . ولمؤلف هذا الكتاب هدف آخر ، وهو الدلالة على أن فى الأديان السماوية قوى دافعة إذا أحسن توجيهها استطاعت أن تتغلب على شذوذ السياسة وجنون الحرب بإذكاء العناصر الروحية السامية التى تعيش فى المرء حيث يخلص لعقيدته الدينية إخلاصا ينزهها عن الأهواء .

وجدير بالذكر أن مؤلف الكتاب لاهوتى مسيحى يؤمن بالنظرة الحرة إلى الأديان السماوية ولا يتقيد بالتفسير المسيحى لها .

والواقع أن القارىء المسلم لهذا الكتاب لا يسعه أن يقبل تصنيف « الأنبياء » على النحو

مكتبتنا العربية

الذى صنفه المؤلف ، فتحت هذا التصنيف شخصيات ليس لها فى الأديان السماوية التوحيدية ذكر أو صلة ، أمثال غاندى والقديسة فرنسيس مؤسسة رهبنة السالبزيات ، وبعض القديسيين الكاثوليك الآخرين ، وطائفة من كبار أتباع فلسفة كنفيوشوس الصينية . حتى كارل ماركس الشيوعى له فى هذا التصنيف مكانة ؛ وإن كانت هذه المكانة مدرجة فى مستوى الشر لا مستوى الخير . والفصل الخاص بالإسلام فى هذا الكتاب لا يتعدى مجرد استعراض تاريخى وتحليل سطحى للتعاليم الإسلامية . ومن الطريف أن هذه المعالجة للأديان من لاهوتى مسيحى الأسلوب والتفكير له فى الثقافات الانجلو سكسونية تلامذة وأتباع .

ولعل هذا ما يفسر البلبلة الروحية التى تعترى اللاهوتى المسيحى (والبروتستانتى على وجه الخصوص) حين يحاول أن يستعيد القوة على توجيه المجتمع توجيها روحيا يتغلب على أزمة النفس والعقل والروح فى العالم الغربى المعاصر .

دم وزيت ورمال :

Blood, oil and sand

من تأليف : راى بروك

من نشر World publishing Co

٢٤٦ صفحة والثمن ٣½ دولارات

مؤلف هذا الكتاب مراسل عاش فى الشرق الأوسط سنوات الحرب العالمية الأخيرة ، ثم عاد إليه فى الآونة الأخيرة لينقل إلى قرائه الأمريكان بعض ما يعترى المجتمع الإسلامى من انفعالات إزاء العالم الغربى .

والكتاب لا يعالج التيارات الثقافية والفكرية فى العالم الإسلامى وإنما يكتفى بتسجيل الاتجاهات والانفعالات السياسية والتقلبات الاقتصادية التى أحدثتها الثورات الصناعية التى ألمت ببعض أجزاء الشرق الإسلامى من جراء انتشار صناعة البترول وحركات التصنيع فى مصر وسوريا .

وفى الكتاب صرخة مداوية للحكومة والشعب الأمريكى الاهتمام بمشاكل العالم الإسلامى ، الذى يلتهب بنار الغضب والاستياء من غباوة الأمريكان وتجاهلهم حقيقة المصالح فى الشرق الأوسط .

ويعتقد مؤلف الكتاب بأن الحكومة السوفيتية تتبع فى سياستها إزاء الشرق الأوسط أسلوبا جديداً يشجع القوميات العنيفة فى الشرق الإسلامى ويجعل من عدائها للاستعمار الغربى غذاء لأوربا جديدا يرمى إلى القضاء على البقية الباقية من سمعة الأمريكان والبريطانيين والفرنسيين فى هذا الجزء الهام من العالم .

ولما كان هذا الكتاب موجها للقارىء الأمريكى فإن التحيز فيه لليهود تحيز سافر .

المسألة السودانية :

The Sodanese Question

تأليف السيد مكى عباس

الناشر Fader aqn Fader بلندن

٢٠١ صفحة والثمن ٢١ شلنا

مؤلف هذا الكتاب سودانى من خريجى كلية غوردون وجامعة أكسفورد ومن رجال البعثات

مكتبتنا العربية

الحكومية القليلة العدد التى ترسلها الإدارة البريطانية فى السودان إلى معاهد العلم البريطانية لتجعل منها نواة للعهد « الاستقلالى » الذى تحاول تنفيذه فى السودان معرضة عن وحدة شطرى الوادى ، وهذه الروابط الدينية واللغوية والطبيعية التى تؤكد وحدته .

وقد أعلنت الدار البريطانية التى نشرت هذا الكتاب بأنه عرض لوجهة النظر السودانية فى النزاع المصرى ـ البريطانى والصواب أنه عرض لوجهة نظر فريق معروف من السودانيين عرفت كيف تدربهم كلية غوردون والإدارة البريطانية فى السودان على تفهم الاستقلال وحدود الحكم الذاتى . ويبدو أن البرودة البريطانية لم تجد تربة صالحة فى هذا المؤلف السودانى ، وأن لغته الإكسفوردية لم تسعفه فى تفادى بعض الانفعالات العاطفية التى تشوب طابع الكتاب برغم أن مؤلفه قد راعى الناحية العلمية فى التأليف واستند إلى عدد طيب من المصـــادر العربية والأجنبية والبريطانية بوجه خاص ، ولجأ إلى أسلوب الكتابة البريطانى الذى يحاول أن يحمل الجملة أكثر من معنى واحد .

وقد تعمد المؤلف أن يتجاهل وجهة النظر المصرية القديمة التى أدت إلى فشل المفاوضات حول مستقبل السودان ، هذه المفاوضات التى جرت منذ أكثر من ثلاثين عاما .

ويحاول السيد عباس أن يبرز جوهر الخلاف بين وجهتى النظر البريطانية والمصرية وأثره على شعور السودانيين ، أو بالأحرى ذلك النفر من السودانيين الذين يطالبون بالاستقلال الداخلى دون أن يتقيدوا بالوحدة السياسية والاقتصادية التى ربط بها النيل شطرى واديه .

ومن أمثلة التحليل التى يعالج بها المؤلف وجهة النظر المصرية ، ما أشار إليه عند تبريره مناورات بريطانيا الانفراد بالحكم وإقصاء المصريين عن السودان بعد أن أرغمت القوات المصرية على الجلاء فى عام ١٨٨٤ ، فيقول : « عند ما تتم الشركة بين طرفين فى مشروع من المشروعات فإن من الصعب تقدير نصيب كل منهما فى إدارة المشروع والنتائج المتولدة عنه » ؛ وبمعنى آخر فإن صاحبنا على رغم ثقافته الإكسفوردية يضرب بالاتفاقات الثنائية والمواثيق القانونية عرض الحائط

وفى رأى السيد عباس أن الرشوة والإغراءات المادية تلعب دورا كبيرا فى النزاع المصرى ـ البريطانى حول السودان وموقف السودانيين أنفسهم منه . ويؤكد بأن النقود تتكلم بلغة أقوى وأصلح من لغة السياسة والأحزاب . وسيقدر لها أن تلعب دورا فاصلا فى مستقبل هذا الجزء من الوادى وموقف السودانيين من علاقاتهم بمصر حكومة وشعباً .

وفى للكتاب لون من النقد الخفيف لبعض مساوىء الحكم البريطانى فى السودان . والمؤلف لا يصفع وإنما يمس السلوك البريطانى فى السودان مسا رقيقا شبيها بمداعبة الغانية لمعشوقها فى حالة من حالات الانفعال الطارىء ؛ فهى لا تضربه بالمسدس وإنما ترميه بمروحتها الرقيقة التى تلطف بها حرارة الجو .

دكتور عمر حليق

مكتبتنا العربية

الأدب والعلوم في شهر

الدراسات الإسلامية في كندا :

أنشأت جامعة « ماك جيل » كبرى جامعات كندا معهداً جديدا للدراسات الإسلامية أسندت رياسته إلى الدكتور « ويلفرد سميث » أحد خبراء الثقافة الإسلامية في كندا .

وستتألف هيئة التدريس في هذا المعهد من أساتذة هم : البرفسور « هوارد ريد » والدكتور « إسحق موسى الحسيني » والبرفسور « فضل الرحمن » والدكتور « نيازي بركس » .

أما البرفسور « ريد » فهو نجل المستشرق الأمريكي المعروف « كاس ارثر ريد » رئيس الكلية العالمية في أزمير وهي إحدى مؤسسات التبشير البروتستانية . وقد خدم البرفسور ريد كضابط استخبارات مع الأسطول الأمريكي خلال الحرب العالمية الأخيرة .

والدكتور « إسحق موسى الحسيني » أديب فلسطيني معروف وكان قبيل التحاقه بمعهد جامعة « ماك جيل » الكندية يقوم بتدريس اللغة العربية في جامعة بيروت الأمريكية ، وقد اشتغل الدكتور الحسيني بالتدريس في معاهد فلسطين قبل الكارثة التي حاقت بهذا البلد الإسلامي .

والبرفسور « فضل الرحمن » عالم باكستاني اشتغل بتدريس الثقافة الإسلامية في جامعات بريطانيا والبنجاب .

أما الدكتور « بركس » فهو أستاذ تركي في جامعة أنقرة .

وقد وضع المعهد الجديد في جامعة « ماك جيل » برنامجاً لدراسة « الإسلام في حاضر العالم » يستغرق تدريسه ٥ سنوات .

اليونسكو وثروة العالم الثقافية :

تقدم اليونسكو (مؤسسة التربية والعلوم والثقافة العالمية) بإعداد مشروع اتفاقية دولية لتنظيم وسائل حماية الثروات الثقافية في مختلف مناطق العالم . وكان المؤتمر العام لمؤسسة اليونسكو عام ١٩٥١ قد أقر توصيات تقضي بأن تقوم كل دولة على حدة باتخاذ الإجراءات الكفيلة بصون منشآتها الثقافية ، كما أوصى المؤتمر - بناء على اقتراح قدمته حكومة إيطاليا - بأن تذيع كل دولة إعلانا خاصاً بها يؤكد حمايتها لمرافقها الثقافية .

وقد أعلنت حكومة العراق مؤخراً تعهدها بتنفيذ هذا القرار والامتثال لهذه التوصية .

مكتبتنا العربية

وقد أرسلت العراق نص هذا التعهد إلى المركز العام لمؤسسة اليونسكو بباريس .

علم النفس الاجتماعى ومشاكل السلم والحرب

عقدت فى باريس فى أواخر شهر أغسطس حلقة علمية تحت إشراف اليونسكو مكونة من ١٣ عالماً من أساتذة علم النفس الاجتماعى لدراسة المساهمة الجدية التى يمكن لعلم النفس الاجتماعى أن يعين بهـا صناع السياسة الدبلوماسيين والحكومات والأوساط الشعبية الواعية للتغلب على الاتجاهات العنيفة التى يبدو أنها تقود العالم إلى حرب عالمية جديدة .

وقد سبق لهؤلاء العلماء فى العام المنصرم أن اجتمعوا فى « ستوكهولم » عاصمة السويد ودرسوا هـذا الموضوع وقرروا عرضه على مؤسسة اليونسكو للإشراف على دعوة حلقة لدراسته المفصلة يكون لها الطابع الدولى الذى تتمتع به اليونسكو . وهذه هى مواضيع البحث فى هـذه الحلقة :

١ - ما هى الصورة (الخاطئة أو الصادقة) التى يحملها شعب ما عن الشعوب الأخرى التى تشاركه فى العائلة الإنسانية .

٢ - النواحى النفسية فى التطور الفنى الذى يلم بالمجتمعات التقليدية والمجتمعات التى لم يكتمل نموها الاجتماعى .

٣ - التوتر الداخلى فى دولة ما ، وعلاقته بسياستها الخارجية خاصة ، والتوتر الذى يعترى العلاقات الدولية عامة .

٤ - العوامل النفسية فى سياسة الوساطة ، والمفاوضات السلمية ، والعلاقات الدبلوماسية .

وجدير بالذكر أن هذه الموضوعات تتخطى الفائدة العلمية وتتصل اتصالا مباشراً بالناحية العملية والتطبيقية فى السلوك السياسى فى نطاقه الدولى .

طباعة الكتب الروسية فى أمريكا :

خصصت مؤسسة فورد الخيرية (صاحب مصانع السيارات المعروفة بهذا الاسم) مبلغاً كبيراً من المال لطباعة أمهات الكتب الروسية الأدبية والعلمية باللغة الروسية فى المطابع الأمريكية ، لتوزيعها على المتخصصين بدراسة الشؤون والثقافة الروسية فى الجامعات وألسنة الرأى العام ، ولكى توزع هـذه الكتب على المهاجرين الروس الذين يعيشون خارج الاتحاد السوفييتى .

النقد الأدبى قديما وحديثا :

أصدرت جامعة شيكاغو فى الولايات المتحدة الأمريكية مجموعة جديدة لبحوث عميقة بأقلام عدة من أقطاب الأدب الأمريكى ، يعالجون فيها فلسفة النقد الأدبى وتطوره فى تاريخ الأدب

مكتبتنا العربية

القديم والحديث . والغاية من هذا المؤلف الجديد هو توجيه الناشئين من النقاد بحيث يتفادون الأخطاء التى ينزلق إليها كل من آنس فى نفسه مقدرة على التطرف إلى النقد الأدبى ، غير مدرك لمسؤوليته وأثره فى الإنتاج الأدبى وفى النمو الثقافى للشعوب الحية .

ويكاد يجمع هؤلاء الأقطاب الذين اشتركوا فى وضع هذه المجموعة على الحط من القيمة الفنية للكثرة من النقاد المعاصرين الذين أغراهم اتساع تجارة الكتب والمجلات إلى معالجة الإنتاج الأدبى دون استعداد عقلى وثقافى لهذه المهمة .

ذكرى جوركى الكاتب الروسى المعروف :

أقام سكان مدينة « جوركى » الروسية احتفالا تذكاريا لهذا الكاتب الروسى الشهير وأصدرت المطابع الروسية سجلا لهذا الاحتفال .

وهذه المدينة حديثة العهد إذ أن الحكومة السوفيتية قد أنشأتها تخليداً لذكرى هذا الأديب الذى سبق الحركة الشيوعية الروسية فى انتقاد مساوئ الحكم وفقدان العدالة الاقتصادية ، والاجتماعية فى المجتمع الروسى . وجوركى من الأدباء الروس القلائل الذين أبقت الحكومة الروسية على ذكراهم بعد أن توطد الأمر للحزب الشيوعى فى السيطرة على مقومات الحكم والحياة فى البلاد الروسية .

ذكرى انقضاء ١٦٠ عاماً

على ميلاد « شللى » الشاعر الإنجليزى

احتفلت الأوساط الأدبية فى كثير من بقاع العالم بذكرى انقضاء ١٦٠ عاماً على ميلاد الشاعر الإنجليزى العبقرى « برسى شللى » وتراث هذا الشاعر يمتاز بالروح الحرة الطلعة الوثابة ، التى ثارت على الأوضاع القاسية فى المجتمع وصاغت هذه الثورة فى عقد من القصيد الرقيق . وكان المقدر لهذا الشاعر الإنجليزى أن يزيد من تراث الشعر العالمى أضعاف ما خلفه فى حياته القصيرة فقد مات شللى فى عنفوان الشباب .

الإخلاص والمقدرة

على التعبير عن الحقائق فى أدب التراجم

عالج الكاتب الهنغارى « مانس سبربر » أدب التراجم الشخصية فى عدد ٦ يولية سنة ١٩٥٢ فى الملحق الأدبى لجريدة نيويورك تايمس بمناسبة الظاهرة الطارئة على الإنتاج الأدبى فى أمريكا وأوربا الغربية فى الإكثار من أدب التراجم و « الاعترافات » التى أغرم بها الكتاب مؤخرا والتى تقبلتها الأسواق الأدبية قبولا حسناً .

ويعتقد المسيو سبربر أن أدب التراجم يروج فى الفترات التاريخية التى تكثر فيها الحروب ويزداد فيها القلق ، وتنتشر فيها الانقلابات والثورات وما يترك ذلك كله من أثر مباشر على حياة الناس واتجاهات المجتمع . ففى هذه الفترات

مكتبتنا العربية

تزداد الرغبة بين الناس فى التعرف عل خفايا الحوادث وما استتر فيها من هذه « المعاملات » السياسية والمساومة الدبلوماسية وما إليها من أوجه العلاقات بين الدول وبين الأفراد والهيئات ، فاشتداد الرغبة بين الناس فى التعرف على هذه الخفايا يخلق فى الكتاب وأولى الزعامة الفكرية والسياسية ، والذين ساهموا فى حـــدث من أحداث التاريخ المعاصر ، اتجاها لرى هذا الظمأ وتعريف الناس هـذه الخفايا كما اختبروها عن كثب فى حياتهم الخاصة أو فى مشاركتهم فى الشؤون العامة التى أولدت هـذه الأحداث التاريخية وهذه التيارات الفكرية .

ويشير هذا الكاتب الهنغارى إلى أن النقطة الجوهرية فى موازنة أدب مترجم هو التفرقة بين إخلاص الكاتب وبين الحقيقة المجردة التى يحاول أن ينشرها فى الناس على لسانه وحسب اختباره لها وتفهمه لجوهرها .

وهذه نقطة تؤلف محور النقد والتحليل الذى يعالج به النقاد والقراء أدب التراجم ، فقد سبقت لجان جاك روسو فى « اعترافاته » الشهيرة أن لمس دقة هذه النقصة . فقال فى المقدمة الأصلية « لاعترافاته » ـ وهى مقدمة لم تنشر فى النص المتداول : لايستطيع أحد أن يصف حياة امرىء غير هذا المرء نفسه ، فحقيقة تلك الحياة وأسرارها الدفينة شىء لا يقوى على معرفتـه إلا ذلك المرء نفسه .

ولكن المرء حين يسعى لوصف حياته يتجه من غير وعى لإخفائها ـ أو على الأقل إخفاء جزء منها ـ لا يسر اطلاع الناس عليه . فهو لا يصف نفسه كما هى على حقيقتها السافرة ولكن كما يريد أن يعرف بها بين الناس . وحتى لو أخلص الكاتب فى اعترافاته أو ترجمة حياته الشخصية فلا مفر من أن يستر ـ عن وعى وعن غير وعى ـ ألوانا من هذه الحياة لا يستطيع اطلاع الناس عليها لا لأنه يخشى ذيوع ذلك ولكن لأنه لا يدركها هو نفسه حين يسجل فى اعترافاته هذه الألوان .

ويحاول المسيو سبربر أن يحلل أسباب هذا التناقض بين الإخلاص فى التعبير وبين نشر الحقيقة المجردة فى أدب الاعترافات والتراجم فيقول : إن المرء حين يكتب عن نفسه يصبح أشبه بالرجل الذين يشاهد نفسه فى المرآة . فهو لا يرى نفسه كما هى ولكن يشاهد بعينيه خيالا لنفسه فى موقف محرج . فالنظر فى المرآة حالة من حالات العزلة النفسية . وعقل المرء فى عزلته النفسية أقل خصوبة منه فى الحالات التى يتصل فيها عن كثب بالحياة والمجتمع .

وسبب آخر لا يزكى الحقيقة فى أدب التراجم الشخصية والاعترافات . وهو أن الذى يدون اعترافاته ويكتب سيرة حياته هو فى الواقع إنسان ارتكب محرما أو خطيئة فجاء يطلب الصفح والمغفرة عن طريقة الاعتراف وكتابة سيرته الخاصة .

ومن أسباب التناقض بين الإخلاص والحقيقة

مكتبتنا العربية

فى آدب السير الشخصية والاعترافات ، كون الذين يلجأون إلى هذا النوع من الكتابة مشغوفين بالتطلع إلى ما ودوا لو كان لهم ، والنفور مما كان لديهم . فهم والحالة هذه عاجزون عن إدراك ما هم فيه الآن .

فالإخلاص فى القيام بعمل ما أدبياً كان أم ماديا لا يعنى المقدرة على اكتشاف الحقيقة ، فالإخلاص شىء والمقدرة على بلوغ الحقائق والتعبير عنها شىء آخر .

إعادة كتابة التوراة والانجيل :

يشتغل رجال الكهنوت فى أمريكا فى إعادة كتابة « الكتاب المقدس » مبتدئين بالعهد القديم (التوراة) ومنه إلى العهد الجديد (الانجيل) .

فقد أعلن مجمع الكنائس البروتستانية الأعلى فى الولايات المتحدة الأمريكية بأن لجنة من أهل الاختصاص فى اللاهوت واللغات الشرقية القديمة قد تفرغوا منذ سبعة أعوام إلى إعادة كتابة التوراة والإنجيل فى لغة عصرية مجردة من التعابير القديمة التى يحتويها الكتاب المقدس فى ترجمته الحالية المعمول بها فى العالم البروتستانتى . وستصدر الطبعة الجديدة من الكتاب المقدس فى صورته المعدلة فى أوائل الشتاء المقبل .

وقد كلفت سيدة من المتبحرين فى اللغة الانجليزية بالإشراف على طبع النسخة الجديدة من التوراة والإنجيل .

وفى نفس الوقت أعلن مركز البابوية الكاثوليكية فى الفاتيكان بأن النسخة المتداولة حاليا من التوراة والإنجيل فى البلدان الكاثوليكية التى تتكلم اللغة الانجليزية قد عدلت ، وأن الكتاب المقدس سيظهر قريبا فى طبعة معدلة يراعى فيها التطور الذى ألم باللغة والفكر الانجلوسكسونى المعاصر . وغرض الأوساط الكاثوليكية من هذا التعديل فى لغة التوراة والإنجيل هو تسهيل القراءة واستيعاب الحكم والعظات فى الكتاب المقدس على النشء الجديد من الكهنوت والرعية . وستشرف على طبع هذه النسخة الكاثوليكية المعدلة من الكتاب التوراة والانجيل رئيسة إحدى أديرة الراهبات الكاثوليكية .

وقد سبق للمجمع الحاخامى اليهودى العالمى فى عام ١٩١٧ أن أدخل تعديلات جمة على الترجمة الانجليزية لتوراة اليهود (وهى العهد القديم فى الكتاب المقدس الذى يستعمله المسيحيون) . ويحاول اليهود حمل المراجع المسيحية على إزالة بعض الآيات من العهد الجديد التى تمس باليهود وتعذيبهم للسيد المسيح .

السرطان والطب العربى :

أذاعت وكالة أنباء الشرق من بيروت الخبر التالى :

زار وكالة أنباء الشرق السيد محمد سعيد النحيلى من سكان شارع حيرا فى بيروت وروى القصة التالية :

مكتبتنا العربية

إننى مصاب بداء السرطان فى قصبة رجلى اليسرى وقد أجريت لى عملية جراحية فى مستشفى الصنائع ثم جلسات كهربائية فى مشتشفى أوتيل ديو ، فلم أحصل على فائدة .

وقد توالى نزيف الدم حتى هزل جسمى وساءت صحتى ولزمت الفراش وقد أصابنى فقر شديد فى الدم .

وقد تقدم مؤخراً لمعالجتى بواسطة العقاقير العربية السيد محمد معاذ فوقف نزيف الدم بعد أربعة أيام من بدء المعالجة وبدأت الكتلة السرطانية تتقلص والدرنة السرطانية تنكشف من جميع جهاتها ما عدا جهة العظم وقد خف سريان الماء والروائح الكريهة المنبعثة من السرطان .

هذه هى القصة كما رواها المصاب حرفياً .

واستطردت وكالة الأنباء توضح ما يأتى :

وزيادة فى التثبت من صدق هذه القصة استدعت الوكالة السيد محمد معاذ الذى أكد صحة ما رواه المريض وأطلعنا على إفادات مسلمة إليه من الدكتور عفيفى بربير طبيب المؤسسة الفرنسية لمكافحة السرطان فى بيروت .

دموع الشفاء :

يقول صحفى فرنسى زار إيران مؤخرا : إنه دهش لنجاح الطريقة التى يعالج بها بعض الإيرانيين مرضاهم بالدموع واعتقاد هؤلاء بأن الدموع تشفى من الأمراض المزمنة .

ويقول هذا الصحفى إن بعض مآتم الإيرانيين تخصص لجمع الدموع ، إذ يعطى النائحون قطعا من الإسفنج لالتقاط دموعهم المسكوبة على خدودهم فى فترات الانفعال النفسى العنيف الذى يجرى فى هذه المآتم .

وتؤخذ قطع الإسفنج المبللة بالدموع إلى أحد الرؤساء الروحيين للجماعة فيعصر الدموع الراسبة فيها فى قوارير صغيرة تخزن للاستعمال عند الحاجة .

وهذه عادة تعود إلى ألوف السنين وقد أشار الصحفى الفرنسى إلى أن النوواة قد سجلت هذه العادة فى المزمور الخامس والعشرين إذ يقول داوود : « قد عودت مهاجراتى فادخر دموعى فى كنوزك أو ليست فى سفرك » .

أول من اخترع اللاسلكى

كتب أحد علماء الفيزياء الأمريكان يجادل القول بأن ماركونى الإيطالى هو أول من اخترع الراديو .

ويدعى هذا العالم الأمريكى أن أول من اخترع الراديو هو مزارع أمريكى فى بلدة موارى فى ولاية كنتاكى فى الولايات المتحدة الأمريكية واسمه ناتان ستيفيلد . وذلك إثر تجربة قام بها فى سنة ١٨٩٢ ، أى قبل تجربة ماركونى بثلاث سنوات .

وتجربة المزارع الأمريكى كانت باستعمال سلك عادى استطاع أن يحمل حديثه إلى مسافة طولها أكثر من ميل .

مكتبتنا العربية

وقد سجل هذا المزارع اختراعه فى سنة ١٩٠٨ وحصل على امتياز لإنتاجه على شكل أدق بمونة أحد الشركات التجارية .

ويقول العالم الأمريكى إن بعض المحتالين استطاعوا سرقة سر اختراع المزارع الأمريكى فذهب ضحية هذا الاحتيال وأنفق بقية حياته منعزلا فى قرية نائية يلهو بتجاربه اللاسلكية .

معالجة السل بعقاقير جديدة

نجحت الدوائر الطبية فى أمريكا فى اكتشاف دواء جديد للسل ، فقد كانت الوسائل الطبية المألوفة فى معالجة مرض السل على ثلاثة أنواع :

١ — مناخية وغذائية .
٢ — جراحيـــة .
٣ — عقاقيرية .

والدواء الجديد يستند إلى المعالجة العقاقيرية . فالمعالجة العقاقيرية تهدف إلى قتل الجرثومة أو تقوية مكافحة الجسم لها بواسطة أملاح الكلس والذهب والحـــديد ، وكان الأطباء يقترحون للمعالجة مادة (السترابتومايسين) و (الاسيد بارمينيد سكيسيليك) .

أما الدواء الجـــديد فمشتق مباشرة من (الأسيد نيكوثينيك) أحد فروع الفيتامين ب . وهو يستخرج بكميات كبيرة وبسهولة ونفقات رخيصة من الفحم الحجرى ومشتقاته .

وقد أخذت المعامل الكيماوية الأمريكية تخرجه فى شكل أقراص بيضاء كأقراص الاسبيرين تحت ثلاثة أسماء .

نايدرازايد — ذريميفون — مارسيليد .

وهذه الأقراص تؤخذ بطريق الفم ولها تأثير سريع على المرضى وليست لها خاصية التسمم . وأثمانها معتدلة .

وقد أثبتت التجارب التى أجريت على مرضى السل بواسطة هذا الدواء الجديد أن جرثومة السل لم تظهر مقاومة قوية ضد هذه الأقراص . وقد أولدت هذه التجارب نتائج عجيبة . فقد ثبت أن تأثير هذه الأقراص على المرضى الذين قطع منهم أمل الشفاء كان من قبيل المعجزات .

وهذا التأثير النافع حدث المرضى من جميع الأعمار والأجناس وفى الحالات المزمنة .

ومن ظواهر مفعولية هذا الدواء الجديد ما أثبتته النتائج الأولى وهى هبوط حرارة المريض إلى الحد الطبيعى بعد أن كان ارتفاعها — قبل استعمال الدواء ، يصل إلى ١٠٣ أو ١٠٥ درجات .

وقد تضاعفت قابلية الأكل والنشاط عند المرضى بشكل ملحوظ وزادت أوزانهم زيادة سريعة ، وهذه النتائج السريعة على غاية من الأهمية كما يشهد بذلك الاهتمام البالغ الذى تظهره الأوساط الطبية نحو هذا الدواء السحرى .

ولن تستطيع الأوساط الطبية أن تعطى حكمها النهائى على مفعول هذا الدواء الجديد قبل مضى أشهر أو سنوات ليتأكد الأطباء من شفاء المريض شفاءا تاما والتيقن من ظواهرها التى هى ظواهر عارضة ليس إلا .

دكتور عمر حليق

مكتبتنا العربية

العالم الإسلامي في شهر

وثبة الجيش المصري على الطغيان :

لقد مر زهاء شهرين وهذا العدد في أيدي القراء ، على تلك الحركة المباركة ، ألا وهي وثبة الجيش المصري على الطغيان .

وإن هذه الحركة الموفقة لمما يؤرخ به في مصائر الأمم ، ذلك أنها نقلت تاريخ مصر من فصل إلى فصل شأنها في ذلك شأن الحركات القومية الكبرى .

ولسوف يكون لهذه الحركة الميمونة أثرها البعيد في مستقبل الشرق الأوسط كله فيما نعتقد ، فإن مثل هذه الحركات الخطيرة العظيمة الأهداف لن يقف أثرها عند البلد الذي انبعثت منه وبخاصة في هذا العصر الذي عظمت فيه أسباب الاتصال بين الأمم والذي ازدادت فيه أواصر القربى بين مصر وجاراتها .

لقد ظلت مصر سنوات طويلة بعد وثبة سعد على الاحتلال ، تعاني من أصناف البلاء وضروب المساوىء ما نفد معه صبرها ؛ ذلك أن سادتها وكبراءها ، قد اقتنعوا من الإصلاح بالخطب والكتابة ، حتى بحت الأسماع والأذهان دعوة الإصلاح ورأت مصر أن الفاقة والجهل والمرض توبق أرواح بنيها ، أن غاية الحاكمين من الحكم هي المغانم وهم في ذلك سواء مهما تغيرت الوجوه والأسماء اللهم إلا فئة قليلة ممن يبغون الخير ولكنهم لا يجدون إلى غايتهم سبيلا .

وكانت بلية مصر بملكها أعظم من بليتها بزعمائها وحكامها ؛ فلقد أمعن هذا الملك في اللهو وأسرف في التبذل ، وراح يجمع المال ولا يقنع ، ويأكل بالباطل ولا يشبع . وليت أمره اقتصر على فساد شخصه ؛ بل لقد عمد هذا اللاهي الهازل إلى إذلال شعبه ما وسعه الإذلال ، لا يعبأ بما يصيب أمته ما دامت كلمته هي العليا ، وما دام ينظر إلى الناس جميعا في تبطله ولهوه نظرته إلى عبيده .

وأحاط اليأس بالناس ، فإذا اجتمع الأحرار تهامسوا يتساءلون كيف الخلاص ، والعدو الأجنبي يتربص بمصر الدوائر ، وقادتها قد أحنوا رؤوسهم للطاغية العابث ؟ ثم ينصرف المتهامسون وفي قلوبهم حسرات ومن حولهم ظلمات .

ولكن الأحرار لم يكونوا يعلمون أن الله قد كتب لمصر النجاة على يد جيشها الباسل ، فقد تحرك الجيش لا كما تتحرك جيوش الطاغين ليضرب الشعب بل تحرك ليبعد عن مصر من أذل ذلك الشعب .

وتطلعت مصر فإذا بها ترى الرجل الذي حلمت به طويلا حقيقة ماثلة أمامها . وقد رأت مصر القائد ، محمد نجيب ، يفعل ولا يتكلم ، فيتقدم باسم الشعب المصري إلى الطاغية فيطلب إليه

مكتبتنا العربية

فى اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ أن ينزل عن عرشه لولى عهده قبل الساعة الثانية عشرة ، وأن يغادر البلاد قبل الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم .

وتم للقائد الذى ادخره الله لهذا اليوم المشهود ما أراد ، وانقضى أمر الطاغية كما كانت تنقضى ليلة من ليالى فسوقه !

وجاءت هـــذه الثورة الجليلة النبيلة متممة لثورة القائد أحمد عرابى ، فإن عرابيا قد دهمه الاحتلال فلم يحقق ما أراد من إصلاح ؛ وظلت مصر مغلوبة على أمرها حائرة بين الظلام والنور حتى أهل هذا الفجر الجديد وأخذ القائد المظفر وأعوانه من العاملين المخلصين يضعون فى سرعة تدعو إلى الإعجاب أسس الإصلاح التى طالما تحرقت إليها البلاد .

وحل النهوض والتطهير محل القعود والفساد ؛ وافتتح فى تاريخ مصر عهد وتم لها فى مدى شهرين ما لم تكن لتبلغه فى عشرات السنين ؛ فها هى ذى التشريعات والقوانين التى كان يظنها الناس أحلاما ، ترى بعضها فى إثر بعض ، ومن أهمها قانون تحديد الملكية ، وكلها مؤدية بعون الله إلى بعث جديد . ورأت مصر وزراءها يتنافسون فى العمل المثمر ، يحسون إحساس الشعب ولا يجعلون بينهم وبينه حجابا ورائدهم فى ذلك قائدهم المخلص الباسل الذى قوض دعائم الفساد والظلم .

ولن يقتصر أثر هـــذه الحركة المباركة على الإصلاح المادى وحده ، فإن خطرها الأدبى لعظيم ، وحسبنا أن تصرف اليأس عن القلوب ، وأن تبث الثقة فى النفوس ، وأن تربط بين الحاكم والمحكوم بروابط المحبة ، وأن تجعل الناس يؤمنون بالعدل ويسمون بأنفسهم فلا يرتضون بعد اليوم ذلا ولا يخافون ظلماً ولا هضما .

ولهذه الحركة الموفقة أثرها بعون الله فيما بيننا وبين الدول الأجنبية ، فقد آمن من لم يكن يؤمن أن مصر جادة لن يعوقها عما تطلب لنفسها من مكانة بعد اليوم عائق ، ولن يصدها عن سبيلها مدع ولا عائب ، والله موفقها إلى ما تريد .

لبنان وحركة الإصلاح والتطهير :

فى لبنان اليوم حركة تهدف إلى الإصلاح الشامل والتخلص من مساوىء الماضى وما أشبه ما يطلبه لبنان بما ظفرت به مصر ؛ وهكذا أخذ يتجاوب الشرق بأصداء الحركة المصرية .

تقدمت الجبهة الشعبية المؤلفة من الكتائب والهيئة الوطنية والمؤتمر الوطنى إلى رئيس الجمهورية تطلب إليه أن يسند الحكم إلى شخصيات نزيهة لم يسبق لها الاشتراك فى الحكم ، بحيث تتألف منها وزارة شعبية قوية ، هدفها الإصلاح الحق والتطهير الشامل ، من الفساد والرشوة واستغلال النفوذ .

وكان رئيس الجمهورية قد أعد برنامجا شاملا للإصلاح أقرته عليه وزارة سامى الصلح . ولكن نواب المعارضة حملوا حملة قوية على رئيس الجمهورية ووصفوا برنامجه الإصلاحى بأنه برنامج سطحى

مكتبتنا العربية

لا يحقق رغبات الشعب ؛ وأصروا على وجوب إقصاء كل من كان له يد فى فساد الحكم منذ سنوات عديدة .

ولم يسغ السيد سامى الصلح هذه المطالب ؛ ورفض أن يستقيل من الحكم وأعلن أنه يطلق قنبلة سياسية إذا أصر رئيس الجمهورية على إقصائه من منصبه .

وفى التاسع من هذا الشهر اشتدت الأزمة اللبنانية ، فقد استقال أعضاء الوزارة فلم يجد رئيس الجمهورية بدا من إعفاء السيد سامى الصلح من منصبه ، ثم عهد إلى مجلس وزراء مؤقت مكون من ثلاثة أعضاء للقيام على شؤون الحكم حتى تؤلف وزارة جديدة ، ولا شك أن صفاء الجو رهين بما يعتزمه رئيس الجمهورية حيال مطالب الشعب ، وعلى مبلغ ما تحققه أية وزارة من هذه المطالب ، فلم تعد ترضى الشعوب إلا بالعمل الحاسم الذى يقضى على ما تحملته طويلا من ضروب الفساد والعدوان. وقد جاءت الأنباء اليوم بأن الجيش اللبنانى أرغم رئيس الجمهورية السيد بشاره الخورى على الاستقالة وقدو أنه تولى الحكم

مشكلة تونس

لا يرى الوطنيون فى تونس هدفا لهم إلا الاستقلال التام عن فرنسا ؛ أما ما تتقدم به فرنسا من مقترحات للإصلاح فما هى فى نظر الوطنيين إلا من ألاعيب السياسة ؛ ولقد أشرنا فى العدد الماضى إلى أن فرنسا لم تتقدم بهذه الإصلاحات إلا حين أرادت أمريكا أن تخرج من حرج موقفها بعد أن امتنعت عن التصويت حينما أريد عرض قضية تونس على مجلس الأمن إذا لم تنفذ الحكومة الفرنسية برنامج إصلاح داخلى فى تونس .

وقد تقدمت فرنسا فعلا بما تراه من إصلاح ؛ ولكن الأزمة التونسية قد دخلت مرحلة حرجة، فلقد أرسل جلالة باى تونس إلى رئيس الجمهورية الفرنسية كتابا رفض فيه مشروع قانون الإصلاح الفرنسى لأنه لا يتفق مع الأمانى القومية للشعب التونسى .

مشكلة البترول فى ايران

عادت إنجلترة وأمريكا تحاولان بعد حكم محكمة العدل الدولية فى مصلحة إيران ، أن تحملا إيران على حل هذه المشكلة عن طريق المقترحات والمفاوضات ، فتقدمتا إلى الدكتور محمد مصدق باقتراحات جديدة ، وقد وصفها الدكتور مصدق بأنها أسوأ ما قدم إليه من مقترحات لحل هذه المشكلة منذ قيامها ، وأبدى عجبه من هذه الأساليب الاستعمارية التى لا تملها إنجلترة ، ثم قال « إن المقترحات التى قدمها ترومان وتشرشل لحل مشكلة الزيت الإيرانى توحى بأن الحكومة البريطانية ما برحت تتبع سياستها القديمة تحت ستار ألفاظ وتعبيرات جديدة ، وأنه ليس

مكتبتنا العربية

طرائف علمية وأدبية

البيان والبديع فى القرآن

محاورة بين أبى بكر بن دريد وأبى حاتم السجستانى

****

روى العلامة المحدث الرحالة أبو عبد الله محمد ابن رشيد الفهرى السبتى فى رحلته (ملء العيبة) (الجزء الثانى ، وهو بخط المؤلف ، من النسخة الوحيدة المحفوظة بالاسكوريال) عن العلامة الأديب الناقد أبى بكر محمد بن حسن بن حبيش اللخمى التونسى بسنده إلى الإمام أبى أحمد الحسن ابن عبد الله بن سعيد العسكرى مما تضمنه كتابه المسمى « بالحكم والأمثال » قال : أخبرنا أبو بكر ابن دريد قال : قلت لأبى حاتم سهل بن محمد السجستانى : إن الشعر يتضمن من محاسن البيان ما لا يكاد يوجد إلا فيه ولا يؤخذ إلا منه . فقال : لا أعلم شيئاً مما تومىء إليه إلا وقد اشتمل القرآن عليه ووجد فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم مثله ، وجاء فى فقر الصحابة عدله . فالام تشير ؟ فقلت : الاستعارة كقول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

فى تلك المقترحات أية مراعاة لشعور الشعب الإيرانى » .

ولم تر إيران بدأ من رفض هذه المقترحات الجديدة ، وسيمضى الدكتور مصدق فى سياسته الوطنية الحازمة غير عابىء بما تضعه إنجلترة فى طريقه من عقبات سياسية واقتصادية ؛ ولا تألو حكومة الدكتور مصدق جهداً على الرغم مما يواجهها من صعاب ، فى العمل على تذليل الصعوبات الاقتصادية التى ترتبت على هذه المشكلة وهى تستعين فى سياستها باستشارة الخبراء الاقتصاديين العالميين .

وقد أراد الدكتور مصدق أن يستوثق من مكانة وزارته قبل أن يقدم على أى عمل جديد بسبب هذه المشكلة ؛ لذلك قرر أن يطرح على مجلس النواب الثقة بوزارته بعد أن يفضى إليه بأسباب رفضه هذه المقترحات ؛ وقد يلجأ الدكتور مصدق إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين إيران وإنجلترة .

وقد علق الزعيم الدينى آية الله كاشانى على تلك المقترحات الثنائية بقوله : إنها امتهان لكرامة إيران وندد بتدخل الدولتين فى النزاع بين إيران وشركة البترول قائلا : إنه يعد تدخلا فى الشئون الداخلية لدولة مستقلة .

محمود الخفيف

مكتبتنا العربية

طرائف علمية وأدبية

البيان والبديع فى القرآن

محاورة بين أبى بكر بن دريد وأبى حاتم السجستانى

****

روى العلامة المحدث الرحالة أبو عبد الله محمد ابن رشيد الفهرى السبتى فى رحلته (ملء العيبة) (الجزء الثانى ، وهو بخط المؤلف ، من النسخة الوحيدة المحفوظة بالاسكوريال) عن العلامة الأديب الناقد أبى بكر محمد بن حسن بن حبيش اللخمى التونسى بسنده إلى الإمام أبى أحمد الحسن ابن عبد الله بن سعيد العسكرى مما تضمنه كتابه المسمى « بالحكم والأمثال » قال : أخبرنا أبو بكر ابن دريد قال : قلت لأبى حاتم سهل بن محمد السجستانى : إن الشعر يتضمن من محاسن البيان ما لا يكاد يوجد إلا فيه ولا يؤخذ إلا منه . فقال : لا أعلم شيئاً مما تومىء إليه إلا وقد اشتمل القرآن عليه ووجد فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم مثله ، وجاء فى فقر الصحابة عدله . فالام تشير ؟ فقلت : الاستعارة كقول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

فى تلك المقترحات أية مراعاة لشعور الشعب الإيرانى » .

ولم تر إيران بدأ من رفض هذه المقترحات الجديدة ، وسيمضى الدكتور مصدق فى سياسته الوطنية الحازمة غير عابىء بما تضعه إنجلترة فى طريقه من عقبات سياسية واقتصادية ؛ ولا تألو حكومة الدكتور مصدق جهداً على الرغم مما يواجهها من صعاب ، فى العمل على تذليل الصعوبات الاقتصادية التى ترتبت على هذه المشكلة وهى تستعين فى سياستها باستشارة الخبراء الاقتصاديين العالميين .

وقد أراد الدكتور مصدق أن يستوثق من مكانة وزارته قبل أن يقدم على أى عمل جديد بسبب هذه المشكلة ؛ لذلك قرر أن يطرح على مجلس النواب الثقة بوزارته بعد أن يفضى إليه بأسباب رفضه هذه المقترحات ؛ وقد يلجأ الدكتور مصدق إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين إيران وإنجلترة .

وقد علق الزعيم الدينى آية الله كاشانى على تلك المقترحات الثنائية بقوله : إنها امتهان لكرامة إيران وندد بتدخل الدولتين فى النزاع بين إيران وشركة البترول قائلا : إنه يعد تدخلا فى الشئون الداخلية لدولة مستقلة .

محمود الخفيف

مكتبتنا العربية

علىّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بجوزه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وكقول أوس :

وإنى امرؤ أعددت للحرب بعد ما
رأيت لها نابا من الشر أعصلا

فقال : أبو حاتم قال الله عز وجل : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ، وقال تعالى: « واشتعل الرأس شيباً » ، وقال عز اسمه : « أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » ، وقال : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ضموا فواشيكم حتى نذهب فحمة العشاء ، وقال: خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها . وقال صلى الله عليه وسلم : دب إليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد ، وهى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر . وقال أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه : السفر ميزان القوم ، وسأل عليه السلام كبير فارس عن الغالب على أنوشروان فقال : الحلم والأناة ، فقال أمير المؤمنين : توأمان ينتجهما علو الهمة . ووصف أعرابى قومه فقال: إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فغر (فاه) الحمام .

قال أبو بكر : فقلت حسبى . فالمجانس كقول جرير :

وما زال معقولا عقال عن الندى
وما زال محبوساً عن المجد حابس

وكقول زياد الأعجم :

رأيتهم يستنصرون بكاهل
وللؤم فيهم كاهل وسنام

وكقول العبسى :

أبلغ لديك بنى سعد مغلغلة
إن الذى بيننا قد مات أو دفنا
وذاكم إن ذل الجار حالفكم
وإن أنفكم لا تعرف الأنفا

فقال أبو حاتم : قال الله جل ذكره : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ، وقال : « فأقم وجهك للدين القيم » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عصية عصت الله ورسوله ، وغفار غفر الله لها [1] وقال : الظلم ظلمات . وقال معاوية لابن عباس : مالكم تصابون يا بنى هاشم بأبصاركم؟ قال ابن عباس : كما تصابون ببصائركم ، ومات لصدقة بن عامر المازنى سبعة بنين فى يوم واحد بالطاعون فقال : اللهم إنى مُسْلِمٌ وَمُسَلَّمٌ .

قال أبو بكر : فقلت : حسبى . فالمطابقة كقول زهير :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا
ما الليث كذب عن اقرانه صدقا

وكقول الفرزدق :

يستيقظون إلى نهاق حميرهم
وتنام أعينهم عن الأوتار

فقال أبو حاتم : قال الله عز وجل : « ولكم فى القصاص حياة » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار : إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع . وقال الحسن : ما رأيت يقيناً لا شك

---

(١) فى طرة الأصل بخط المؤلف « يذكر أسلم فى هذه الرواية ، وذلك لأنه ورد فى رواية أخرى بلفظ أسلم سالمها الله . وغفار غفر الله لها . وهى أيضاً صالحة للاستشهاد بها وعصية ، وغفار ، وأسلم ، قبائل من العرب .

مكتبتنا العربية

فيه أشبه بشك لايقين فيه من الموت ، وقال رحمه الله وقد عوتب على تخويفه الناس بوعظه : إن من خوفك حتى تلقى الأمن ، خير من ممن أمنك حتى تلقى الخوف .

قال أبوبكر : فقلت : حسبي فرد إعجاز الكلام على صدوره كقوله :

غريب بنى ســـليم أقصدته
سهام الموت وهى له سهام

فقال أبوحاتم : قال الله عز وجل : « لاتفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » . وفى الحديث : من مقت نفسه أمنه الله من مقته .

قال أبو بكر : فالالتفات من الكناية إلى المخاطبة كقول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح
سقيت الغيث أيتها الخيام

وكقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فهاجنى
لا زلت فى غلل وأيك ناضر

قال أبوحاتم : قال الله عز وجل : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجَرَيْن بهم » . وقال : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » . ثم قال : « وبرزوا لله جميعاً » .

فقال أبو بكر : حسبي أنك لا تكاثر ! .

****

الزكام

الزكام مرض خفيف عادى لكنه من أغرب الأمراض التى تطرأ على الإنسان ، ولم يهتد الطب حتى الآن إلى علاج فعال له ، وقد صرح أحد مشاهير الأطباء وهو الدكتور أندروز فى محاضرة عن الزكام ألقاها منذ نحو ثلاث سنوات أمام جمعية الفنون الملكية بلندن بقوله : « سأحدثكم عن جهلنا بالزكام أكثر مما أحدثكم عن معرفتنا به » . والدكتور أندروز كان رئيس لجنة من الأطباء عهدت إليها المراجع الصحية فى بريطانيا إن تدرس الزكام دراسة علمية مستفيضة ، ولكنها لم تصل إلى نتيجة حاسمة .

أما الأدوية التى توصف للزكام فلا تحصى لكثرتها وقد سجل حتى اليوم بلندن وحدها فى دائرة تسجيل الاكتشافات والاختراعات نحو عشرة آلاف دواء للزكام ولكن بدون جدوى .

والسبب الرئيسى الذى يعيق دراسة مرض الزكام هو أن جرثومته صغيرة جداً من نوع الفيروس حتى إن المجهر الألكترونى رغم قوته الكبيرة لا يستطيع أن يظهرها . وهذا الصغر لا يمكن العقل أن يجده ولا أن يتصور كيف تعيش هذه المخلوقات المتناهية فى الصغر .

ويؤخذ من أبحاث تلك اللجنة أى المنديل الذى يستعمله المزكوم تتناثر منه نحو ١٥ ألف ذرة وفى كل ذرة عدد كبير من فيروس الزكام ، وإن السعلة الواحدة تنثر نحو أربعمائة من هذه الذرات . أما العطسة فتنثر نحو مليون .

مكتبتنا العربية

فكرة هذا العدد

بمناسبة العام الهجرى الجديد أصدرنا هذا العدد خاصاً بفكرة الفتوح الإسلامية . ومدارها على أن ظهور الإسلام كان فتحاً لعالم جديد . كان فتحاً فى الأرض للعمران والإصلاح ؛ وكان فتحاً فى التشريع للنظام والعدل ؛ وكان فتحاً فى الأدب للابتكار والتجديد ؛ وكان فتحاً فى العلم لتصحيح الخطأ ونشر المعرفة ؛ وكان فتحاً للذوق فى ازدهار العمارة والزخرفة والموسيقى ؛ فهو كتاب قيم يلخص فضل العرب والمسلمين فى كل باب من أبواب الثقافة وفى كل فن من فنون الحضارة .